يوسف السباعي
ابتسامة على شفتيه

يوسف السباعي

ابتسامة على شفتيه

للمؤلف

أطياف	(قصص قصيرة ١٩٤٧)
نائب عزرائيل	(رواية ..... ١٩٤٧)
اثنتا عشرة امرأة	(قصص قصيرة ١٩٤٨)
خبايا الصدور	(» » ١٩٤٨)
يا أمة ضحكت	(» » ١٩٤٨)
اثنا عشر رجلا	(» » ١٩٤٩)
أرض النفاق	(رواية ..... ١٩٤٩)
فى موكب الهوى	(قصص قصيرة ١٩٤٩)
من العالم المجهول	(» » ١٩٤٩)
هذه النفوس	(» » ١٩٥٠)
إلى راحلة	(رواية ..... ١٩٥٠)
مبكى العشاق	(قصص قصيرة ١٩٥٠)
بين أبو الريش وجنينة ناميش	(» » ١٩٥٠)
أغنيات	(» » ١٩٥١)
أم رتيبة	(مسرحية .... ١٩٥١)
هذا هو الحب	(قصص قصيرة ١٩٥١)
صور طبق الأصل	(» » ١٩٥١)
بين الأطلال	(رواية ..... ١٩٥٢)
السقا مات	(» » ١٩٥٢)
سمار الليالى	(قصص قصيرة ١٩٥٢)
الشيخ زعرب	(» » ١٩٥٢)
نفحة من الإيمان	(» » ١٩٥٢)
وراء الستار	(مسرحية .... ١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
هذه الحياة	(» » ١٩٥٣)

البحث عن جسد	(رواية ..... ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية .... ١٩٥٣)
فديتك بالليل	(رواية ..... ١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة	(» » ١٩٥٣)
رد قلبي	(رواية في جزأين ١٩٥٤)
ليالي ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة	(رواية ..... ١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات .... ١٩٥٧)
من حياتي	(» ...... ١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(» ...... ١٩٥٩)
نادية	(رواية في جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع	(» » ١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات .... ١٩٦١)
أيام وذكريات	(» ..... ١٩٦١)
أيام من عمري	(» ..... ١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية في جزأين ١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية .... ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية في جزأين ١٩٦٩)
لست وحدك	(رواية ..... ١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات .... ١٩٧٠)
أيام عبد الناصر	(» ..... ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(رواية ..... ١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات .... ١٩٧١)
العمر لحظة	(قصة ...... ١٩٧٣)

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى الشهيد الذى بذل روحه من
أجل بعث الروح الفلسطينية .

والذى جعل من جسده الطاهر
معبرا للعودة .

(يوسف السباعى)

مقدمة

كنا أصل الحضارة . وشعوب العالم تعيش فى ظلمات الجهل . ونهب الاستعمار مواردنا واستعبد شعوبنا .. وحطمنا القيد .. وبدأنا نحقق حريتنا .. ونخطو نحو التقدم الاجتماعى والبناء الاقتصادى .. تلك هى مسيرتنا الطبيعية ولكنكم أوقفتموها ــ ونزعتم الأرض من تحت أقدامنا .. ثم تسألوننا الآن .. لماذا لم تخضروا الأرض .. أى أرض ؟ التى سرقتموها ؟ لقد كانت لنا مزارع وبيارات وكنا نعمل بكل ما نملك من وسائل .. كنا نستطيع أن نعمل وإياكم من أجل الرخاء والعدالة ولكى نجعل من وطننا الفلسطينى وطنا أفضل .. يعمه الحب والخير .. وتسوده العدالة والمساواة .. ولكنكم غلبتم العنصرية والظلم .. والبغى والعدوان .. لتسحقونا فى أرضنا ولتذرونا من عليها كبقايا رماد .. لقد سلبتم أرضنا بالقوة .. ولن تعيدها إلينا إلا القوة . إن الحرب عملية سخيفة ، ولكن عندما يواجهك إنسان بسخافة محاولا إبادتك .. فستكون أكثر منه سخافة إذا لم تحاول درء الضربة وردعه .. وتحرير أرضك واسترداد حقك .

« يوسف السباعى »

صورة لا تبهت

سوق القدس القديمة فى يوم من أيام أغسطس ونسمة المغرب تهب لتطرد قيظ الظهيرة الذى حول الحوانيت إلى أفران لم تفلح المياه التى أخذ أصحابها يرشونها حولها فى إطفاء حرقتها وإخماد لهيبها ..

وقفت سيدة أمام حانوت الشيخ عبد السلام تسأله :

— هل أجد عندك باتستة ؟

وقبل أن يجيب الرجل هتف ابنه عمار قائلا فى لهجة متبرمة :

— لا .. لقد نفدت .

وأسرع الشيخ عبد السلام يمسك بالسيدة التى همت بالانصراف قائلا :

— اصبرى لحظة .. لدى شىء أفضل من الباتستة .

وردت السيدة ببساطة :

— ولكننى أريد باتستة .

— لدى بوبلين ممتاز .. وأرخص من الباتستة .

وترددت السيدة برهة ثم استدارت قائلة :

— أتفرج .

— سأريك أشياء وردت لنا أخيرا .. عندى حرير يابانى .. وتيل وكريشة على جميع الألوان ..

— لقد كنت أريد قطعتين من الباتستة .. واحدة على أزرق .. والأخرى على برتقالى .

— تفضلى .. سأريك كل شىء .. أتشربين قهوة .. أم ليمونا باردا ؟..

— متشكرة .. ليس لدى وقت .

— حالا .

ثم أشار إلى أحد الرفوف قائلا لعمار :

— هات هذين الثوبين الأزرق والأحمر .

وتمتم عمار فى ضيق وهمس قائلا :

— إنها تريد باتستة .

ونظر الشيخ عبد السلام إلى ابنه نظرة زاجرة وقال موجها الحديث إلى السيدة :

— أنا واثق .. أن هذا البوبلين سيعجبك .. إنه مصنوع من القطن المصرى ..

وجذب عمار الثوبين وألقى بهما أمام أبيه .

وأخذ عبد السلام يفرد أحدهما وهو يستعرضه أمام السيدة . ثم بدأ يجذب لفافات الأقمشة واحدا بعد واحد من فوق الأرفف وهو مسترسل فى الحديث :

— هذا صنف ممتاز .. لقد نفد كل ما لدينا فى يومين ولم يبق سوى هذا الثوب .

وتكومت لفافات الأقمشة على الطاولة أمام السيدة .. دون أن يبدو عليها أن شيئا منها قد أعجبها .

وأخيرا أمسكت بأحد الأثواب قائلة :

— هذا معقول .. اقطع لى منه فستانا ..

وأمسك الشيخ عبد السلام بالمسطرة الخشبية ليقيس من اللفافة أربعة أمتار . ودفع بالمقص فى القماش فشقه ليفصل القطعة المطلوبة عن الثوب . وأخذ يطبقها ثم وضعها جانبا . وأسرع يمسك بثوب آخر قائلا فى إعجاب :

— وما رأيك فى هذا ؟..

ثم قربه منها ونظر إليها فى إعجاب قائلا :

— إنه يكاد ينطق عليك .

وقالت السيدة ببساطة :

ـــ هات منه فستانا .

ثم أشارت إلى ثوب آخر قائلة :

ـــ ومن هذا أيضا ..

وقبل أن يقص لها الفستان أقبلت سيدة أخرى تسأل عمارا قائلة :

ـــ أأجد عندكم حرير هندى ؟

ورد عمار بلهجته الجافة :

ـــ لا .

وأسرع الشيخ عبد السلام وهو يطبق الفستان الذى فى يده هاتفا :

ـــ بل عندنا .

ورد عمار فى إصرار :

ـــ لا يوجد عندنا حرير هندى .

وصرخ فيه الشيخ عبد السلام :

ـــ كفاك غباوة .. أنت لا تعرف شيئا .. تفضلى يا سيدة .. دقيقة واحدة .. حتى أنتهى مما فى يدى .

وانصرفت السيدة الأولى وهى تحمل أربعة فساتين . وبدأ الشيخ عبد السلام يكوم الأثواب أمام السيدة الثانية ويستعرضها فى صبر وأناة ولم تغادر السيدة الحانوت إلا وقد اشترت خمس قطع من أقمشة مختلفة .

ونظر الشيخ عبد السلام إلى ابنه فى غيظ وصاح به بعد أن انصرفت السيدة قائلا :

ـــ أتريد أن تطفش الزبائن ؟

ـــ لماذا ؟

ـــ لماذا ؟.. ألا تدرى ماذا فعلت ؟

ـــ سألوا عن بضاعة غير موجودة .. فقلت لهم إنها غير موجودة ، ماذا فى

ذلك ؟..

ـــ إذا لم يكن لديك ما يريد .. فأره ما لديك .

ـــ ولكنه يريد شيئا محددا .. لا يوجد عندنا .

ـــ وماذا ستخسر إذا ما عرضت عليه ما عندك .. إن هذا هو عملك .. وهو لا بد واجد عندك شيئا يعجبه .. ولقد رأيت مثلا أمامك .. لقد اشترت كل من السيدتين ضعف ما تريد .. ولو تركتهما لك لانصرفتا دون أن تبتاعا شيئا .

وزفر عمار فى ضيق وملل وقال :

ـــ الذى أعرفه هو أن الإنسان يعرف ما يريد .. فإذا لم يجده فليبحث عنه حتى يجده .

ـــ أنت تاجر فاشل .. ولن تنفع أبدا .. لقد قلت لك مائة مرة .. حيِّ الزبون ورحب به .. وعامله كصديق .. أو قريب .

وأطرق عمار برأسه وقد زادت قسمات وجهه تجهما .

وصاح أبوه فى غيظ :

ـــ ثم .. لماذا تتجهم هكذا .. لقد قلت لك ابتسم .. الناس ليسوا خدم أبيك .. حتى تلقاهم بمثل هذا التجهم .. إنك لا تطاق .

وفى المساء أغلق الشيخ عبد السلام الحانوت .. وضع العباءة على كتفه وعدل العمامة على رأسه . وسار يتبعه عمار بعد أن أغلق باب الحانوت متجهين إلى البيت ..

سار عبد السلام بقامته المهيبة ووجهه الأبيض البشوش ولحيته المسترسلة التى اختلط فيها السواد بالبياض وهو يحيى أهل السوق ببشاشة ويتلقى تحياتهم فى ترحاب .

وسار عمار بجسده النحيل يرتدى القميص والبنطلون .. بملامحه الدقيقة وشعره المشوش فوق رأسه الصغير وقد بدا فى نظراته شرود وكأنه لا يبصر شيئا مما حوله .

وصل الاثنان إلى البيت .. ووقف الشيخ أمام الباب الحديدى للحديقة ومد يده يجذب المزلاج من الداخل .

ونبح كلب وأقبل يتواثب فى مرح ومن ورائه صبى يتساءل « من » ثم يعلن أهل الدار عن وصول أبيه وأخيه .

ورفع الشيخ عبد السلام ابنه خالد بين يديه ثم قبله متسائلا :

ـــ كيف حالكم ؟

وأجاب خالد :

ـــ أختى عايدة أتت هى وعمى عبد الكريم وليلى .

وبدت الفرحة على وجه الشيخ وصعد درجات السلم الحجرى المؤدى إلى باب الشقة والذى اندفعت منه حفيدته الصغيرة ليلى هاتفة بالشيخ بلثغتها المحببة .

ورفع الشيخ عبد السلام ابنه خالدا بين يديه ثم قبله متسائلا :

ـــ أهلا وسهلا .. أهلا ..

وتعلق خالد بذراع عمار وهما يسيران وراء الشيخ وقال خالد متسائلا :

ـــ أأحضرت لى الكرة ؟

ورد عليه عمار باقتضاب :

ـــ قل لمن تحضرها لك .

ـــ قلت لها بعد أن عادت من المدرسة . فقالت لى عمار سيحضرها لك .

ـــ لقد نسيت .

واستقرت الأسرة حول المائدة بعد أن رصت الأم صحاف الطعام وقال الأب مرحبا بزوج ابنته :

ـــ لقد انتظرناكم فى الأسبوع الماضى .. ولكنكم خيبتم أملنا .

ورد عبد الكريم :

ـــ حاولت أن أحصل على إجازة . ولكننى لم أستطع .. فقد كانت كتيبتى مشتركة فى المناورة . وقلت لعايدة تأخذ ليلى وتحضر إليكم على أن ألحق بهما ..

ولكنها فضلت انتظارى .

وتساءلت الأم :

— لعلكما إذن تقضيان عندنا هذا الأسبوع .

وردت عايدة :

— لن نستطيع أن نمكث أكثر من يومين .

وسأل الشيخ عبد السلام :

— لماذا ؟

وأجاب عبد الكريم :

— لقد أعلنت حالة الطوارئ .. وكان المفروض ألا أحضر ولكنى استطعت أن أستأذن فى الغياب يومين بصفة خاصة .

وتمتم عمار كأنه يحدث نفسه :

— طوارئ .. ومناورات .. كأنكم تفعلون شيئا .

وضحك عبد الكريم قائلا :

— إننا نحاول أن نفعل .

وزفر عمار فى يأس وأجاب :

— لا فائدة .

وردت عايدة فى حماس :

— لا فائدة من ماذا ؟.. إن عبد الكريم سيترقى إلى رتبة نقيب فى الشهر القادم .

ورد عمار فى سخرية :

— وعلام يترقى ؟

وقال له أبوه ناهرا :

— يترقى على جهده وإخلاصه فى العمل ..

وتمتم عمار :

ـــ لعله طرد اليهود !

وأجاب الأب ساخرا :

ـــ تشطر واطردهم أنت .

وزفر عمار دون أن يجيب .

وعاود الأب حديثه يقوله فى سخرية زاجرة :

ـــ أنت لا تفلح إلا فى هذا .. لست أدرى ماذا يعجبك .. أدخلتك المدرسة فلم تفلح .. دخلتها ساخطا .. وخرجت منها ساخطا .. لم يكن يعجبك فيها شيء .. لا الدروس ولا المدرسون .. وقلت لنفسى .. أعفيك من هم الدراسة .. وألحقتك بالعمل معى فى المحل .. لعلك تساعدنى .. وتحمل عنى العبء مستقبلا .. ولكننى وجدتك كعبد المعين .. أتيت به يعيننى .. فوجدته يعان .. تقف فى المحل .. وكأنك العقلة فى الزور .. لا يعجبك العجب ولا الصيام في رجب .. ولو اعتمدت عليك لطفشت جميع الزبائن .. ولم نبع بليرة واحدة ..

وحاولت الأم أن تنهى حديث الرجل الغاضب فقالت ضاحكة :

ـــ ربما لم يكن له كيف أو كان متعبا يا عبد السلام .

ورد عبد السلام فى ضيق :

ـــ دائما .. ليس له كيف .. ودائما متعب .. ودائما وجهه متجهم لا تعرف الابتسامة طريقها إلى شفتيه ..

وقالت عايدة تخفف وقع حديث الأب :

ـــ طول عمره هكذا يا أبى .. منذ صغره .. لقد تعودت على وجهه بغير ابتسامة .. ولكنه طيب وأمير .. وقلبه كالحليب الأبيض .

وتمتم الأب فى يأس :

ـــ وكيف يصل الزبائن إلى حليب قلبه .. ليس لدى الزبائن وقت لاكتشاف ما فى قلوبنا .. إنهم لا يرون منا غير وجوهنا .. فإذا لم نلقهم بابتسامة على شفاهنا .. ولوا منا فرارا ..

وقالت مى مدافعة وهى تنظر إلى عمار فى إعجاب :

— عمار لا يخطئ يا عمى .. والذين يكرهونه لا بد أن يكونوا أشرارا .

وأجابها الشيخ فى هدوء :

— ليس بيننا وبين الزبائن حب ولا كراهية .. نحن تجار يا مى والمفروض أن نلقى الجميع ببشاشة .. وأن يكون لدينا الصبر على التعامل معهم .. وأن نعرض كل ما لدينا برقة ولباقة بحيث لا نتركهم يغادرون المحل وأيديهم فارغة .. هذه هى التجارة .. تحتاج إلى كياسة ولباقة وابتسامة على الشفتين .. أما الوجه المتجهم .. والحدة .. اللذان يلقاهم بهما عمار .. فستؤدى بنا إلى الإفلاس .

وقالت الأم متمتمة فى اعتذار عن ابنها :

— أنت تعرف طبيعته يا عبد السلام .. هل هذا شىء جديد عليه ؟

ورد الأب قائلا :

— ليس جديدا .. ولكنه أصبح الآن يهدد رزقنا .. فالمفروض أن يتولى العمل معى فى المحل .. وأنا إذا عشت اليوم .. فلن أعيش غدا .. وهو لم يتم الدراسة .. ولم يتعلم حرفة ..

وقالت الأم مقاطعة :

— ربنا يعطيك طيلة العمر ..

وكان عمار ينصت إلى هذا الحديث حوله وقد بدا كعادته شارد الذهن وكأن الأمر لا يعنيه .. وتناول ملعقة من طبق الحلو .. ثم أزاح كرسيه للخلف ونهض متجها إلى غرفته قائلا فى صوت خفيض :

— عن إذنكم .

وبدا التأثر على وجه مى وهى تحس أن الحديث قد آلمه ووجهت القول إلى عمها فى لهجة رقيقة ملؤها الحب :

— إن عمار إنسان لا مثيل له .. إنه طيب وخير .. وهو يحتاج إلى صبر لترويضه على مهنته الجديدة .. وعلى الابتسام .

وأجاب الأب فى يأس :

ـــ لقد نفذ صبرى معه .

وردت مى :

ـــ إذن سأحاول أنا ..

وقال عبد الكريم ضاحكا :

ـــ ستحاولين تعليمه الابتسام ؟.. ولا شارلى شابلن يستطيع هذا !!

وردت مى ضاحكة :

ـــ سأجلسه أمامى كل يوم ساعتين لأرسم له صورة زيتية .. وأطلب منه أن يبتسم طوال الساعتين .. حتى تتعود شفتاه الابتسام .

وردت عايدة قائلة وهى تضحك :

ـــ أولا لن يقبل الجلوس للرسم ..

وأردف عبد الكريم :

ـــ وإذا جلس فلن يبتسم .

وقالت مى :

ـــ إذن فسأرسم له صورة من الذاكرة وهو يبتسم ، وأريه كيف يبدو شكله جميلا عندما يبتسم ..

وقال الشيخ عبد السلام وهو يهم بترك المائدة :

ـــ أنتم تضحكون .. والمسألة تبعث على الأسى .. هذا الولد .. قد حيرنى ..

وصاح خالد معترضا :

ـــ مى لا تضحك يا أبى .. لقد رسمت اليوم فى المدرسة صورة لأخى عمار وهو يرتدى ثياب جندى ويمسك بندقية .

وقالت مى معقبة :

ـــ لم تكن صورة عمار .. لقد كنت أحاول أن أرسم صورة لمقاتل فلسطينى

كنموذج يرسمه الأولاد فى الفصل .. وفجأة سمعت خالدا يهتف من وسطهم بأعلى صوته ويقول لى « هذا أخى عمار يا أبلة مى » .. ولم أكن أدرك أن ملامح المقاتل تشبه عمارا حتى صاح بى خالد .. وعندما عدت أتأملها وجدت بها بعض الشبه فعلا من عمار ..

وتساءلت الأم فرحة :

ـــ هل هو جميل كعمار ؟

وردت أخته عايدة صائحة :

ـــ وهل تظنين ابنك جميلا ؟

وردت الأم متفاخرة :

ـــ ليس هناك أجمل من عمار .

وقالت عايدة ضاحكة :

ـــ القرد فى عين أمه ..

ونهرتها الأم قائلة :

ـــ قرد فى عينك وعين أبيك .

وأقبلت عليها ليلى الصغيرة تتساءل فى لثغتها :

ـــ أنا جميلة يا نينة ؟

وصاح بها خالد :

ـــ أنت قردة .

وهتفت الصغيرة وهى تتجه إلى أمها شاكية :

ـــ أنا قردة يا ماما ؟

وضمتها عايدة إلى صدرها وهى تقول :

ـــ أنت روحى ..

والتفت عبد الكريم إلى مى وهو يمسح يديه فى المنشفة :

ـــ إذن ستعلمين عمارا الابتسام ؟

— أجل .

— وتجلسينه أمامك ساعتين ؟

— سأحاول .

— وتطلبين منه أن يبتسم ؟

— أجل .

— وهل سيسمع كلامك ؟

— ربنا يهديه .

— وإذا لم يفعل ؟

— لن يستعصى على رسمه .. لقد قال لكم خالد كيف رسمت صورته بلا وعى .

واعترض خالد صائحا :

— ولكنه لم يكن يبتسم يا أبلة مى .

— سأجعله يبتسم فى الصورة .

وقال عبد الكريم ضاحكا :

— والله لو رسمت الابتسامة على شفتيه .. لطارت فى اليوم التالى ..

وقالت عايدة :

— أنا أعرفه من يومه .. وجهه يقطع الخميرة من البيت .

وقالت الأم وهى تهز رأسها فى أسى :

— يا ناس اعذروه .

وأقبلت عليها مى وهى تحيطها بذراعيها :

— عمار لا يوجد مثله يا خالتى .

وضمتها الأم إليها فى حنان وهى تتمتم :

— أنت حبيبتى يا مى .. أنت أعز من أولادى .

وقالت عايدة ضاحكة :

— خلاص .. راحت علينا .. حلال عليكى يا مى .

واتجهت مى إلى غرفة عمار بجسدها الرقيق وشعرها الأسود الطويل المكعوف على رأسها وعينيها السوداوين الواسعتين وأنفها الدقيق وشفتيها الرقيقتين .

وكان عمار قد استلقى على مقعد من القش فى الشرفة الخلفية المطلة على الحديقة ومد ساقيه على سور الشرفة وأسند رأسه على حافة المقعد وأغمض عينيه .

ووضعت مى يدها على كتفه . ولم يتحرك عمار .. ولم يبد عليه أنه شعر بمسة يدها .

وسألته مى فى همسة رقيقة :

— ما بك يا عمار ؟

ورد وهو مغمض العينين :

— لا شىء .

— أرجو ألا يكون حديث عمى قد أغضبك .

— أبدا .

— ولكنك يجب أن تفكر فيما قال .

وفتح عمار عينيه ونظر إليها نظرة غير مبالية وقال فى غير اكتراث :

— كيف ؟

— إن مستقبلك معه فى العمل معه فى الحانوت .. فيجب أن تسمع نصحه .

— وماذا يريد ؟

— يريدك أن تهش للزبائن .. وأن تصبر عليهم .

— وأن أبيعهم ما لا يريدون .. وماذا أيضا ؟

— أن تضع ابتسامة على شفتيك .

— سأحاول .

ونظرت مى إلى وجهه متأملة ثم سألته :

— ما رأيك فى أن أرسم لك صورة ؟

— صورة ؟!!

— أجل .

— لى أنا ؟

— أجل .

— افعلى شيئا أفيد من هذا .

— سأرسمك صورة بالزيت .

— لماذا ؟.. من أكون أنا حتى ترسمينى ؟

— أنت .. أنت ابن عمى ؟

— أهذا شيء يجعلنى أستحق الرسم ؟

— وأنت إنسان طيب .. وخير ..

— هل هذا مبرر للرسم ؟

— سأرسم صورة وأنت تبتسم .

— ولماذا أبتسم ؟..

— لأن شكلك سيصبح أفضل وأنت تبتسم .

— وماذا يهم شكلى ؟..

— حتى تستطيع أن تلقى الزبائن .. وتتعامل معهم .

— هل تظنين الزبائن .. يهتمون بشكلى .. إذا كنت أبتسم أو لا أبتسم ؟

— إنهم يهتمون بأن يلقاهم إنسان ببشاشة .

— قلت لك سأحاول .

— وهل لديك مانع من أن تجلس أمامى حتى أرسمك ؟

— أجل .

— لماذا ؟

ـــ لأنى أكره هذه الأشياء .. أكره أن أجلس لأبتسم .. بلا مبرر .

ـــ سأحاول أنا أن أجعلك تبتسم .

وبدأ صبره ينفد وقال لها فى ضيق :

ـــ اذهبى يا مى .. لا داعى لإضاعة الوقت فى هذه السخافات ..

ـــ ولكن هذه السخافات هى عملى .. إننى مدرسة رسم يا عمار .

ـــ إذن اذهبى وعلمى الأولاد الرسم .. علميهم أن يرسموا شيئا مفيدا ..

ـــ إنى أفعل ..

ـــ يكفيك هذا .. ودعينى فى حالى ..

وهزت مى رأسها فى أسف وهى تقول :

ـــ إذن سأرسمك من الذاكرة .

ـــ افعلى ما تشائين .

ـــ سأرسمك وأنت تبتسم .. لأريك كيف يمكن أن تكون إنسانا آخر بالابتسامة على شفتيك .

وغادرت مى الشرفة .

وعاد عمار يغمض عينيه ويسند رأسه إلى حافة المقعد ..

وعاد صوت مى يتردد فى مسامعه :

كيف يمكن أن تكون إنسانا آخر بالابتسامة على شفتيك .

ابتسامة على شفتيه ؟!!

كيف ..؟

وفجأة وثبت إلى ذاكرته صورة .. لا تريد أن تمحى منها .

صورة تأبى أن تبهت أو تضمحل منذ زمن بعيد .. بعيد ..

وهو لم يزل بعد طفلا . وهم يعيشون فى بيتهم خارج مدينة القدس .. فى دير ياسين .

استيقظ على انفجار مروع .. هز جدران البيت .

وأقبلت عليه أمه جزعة وضمته إليها .

ومن الغرفة المجاورة أقبلت خالته زاهرة وهى تجر ابنتها مى فى يدها وهى تصرخ باكية .

وكانت خالته حاملا .

ومن الحديقة أقبل أخوه الأكبر محمود يصرع فزعا وهو يصيح :

— اليهود يهاجمون البلدة .

— من قال لك ؟

— عم إبراهيم البقال .. وقال لى اختبئ لأنهم يقتلون كل من يقابلهم .

وكان أبوه وزوج خالته قد غادرا البيت كل إلى عمله .

وازداد صوت الانفجارات .. وأخذت تقترب من البيت .

انفجار .. يتلوه انفجار .. والطلقات تتوالى .

وفى ارتياع جمعتهم أمه فى إحدى الحجرات .

وسمع أصوات صرخات .. ثم ضجيجا وصوت أقدام كثيرة تقترب من البيت .. وباب الحديقة يدفع .. وأصوات أقدام تتزاحم فى الحديقة .. وباب البيت يقتحم .. ثم أقداما تصعد الدرج .

وأسرعت أمه تجمعهم وراء ستار باب الشرفة العريضة .. وطلبت منهم أن يكتموا أنفاسهم حتى يغادر اليهود المنزل .

وسمعت أصوات الأقدام تجول داخل الحجرات وأشياء تتحطم .. وازداد اقتراب الأقدام .. ودخل أحدهم الحجرة .. ثم صاح :

— لا أحد هنا ..

وهم بالخروج .

وفجأة صرخت الصغيرة مى وهى تمسك بيد أمها . وتوقفت أقدام الرجل .. ثم اقترب من الستارة وبطرف السنكى فى يده أزاحها ونظر إليهم وهو يهز رأسه ويهتف ساخرا :

— إذن فأنتم هنا .

٢
كيف ..؟ كيف ..؟

كتم الجميع أنفاسهم وقد أصابهم الرعب .. وعاودت مى الصراخ ..
وأشار لهم رجل العصابات الصهيونى بطرف السونكى المعلق فى البندقية قائلا :

— اخرجوا ..

وجمد كل منهم فى مكانه فلم يستطع حراكا .. وأخذ الرجال المسلحون فى التدفق فى الحجرة ووقفوا يرقبون المرأتين والطفلين وكأنهم حصلوا على كنز ثمين .

وصاح الرجل الذى عثر عليهم :

— أين الرجال .

والتقطت أم عمار أنفاسها ثم ردت :

— خرجوا .

— إلى أين ؟

— إلى أعمالهم .

وصاح الرجل بزميل له :

— ارفع الستار فقد يكونون مختبئين وراءه .. وخذ حذرك .

وعاودت مى الصغيرة صراخها وهى على كتف أم عمار .. وأحست الأم الحامل بالغثيان وأمسكت بطرف الستار حتى لا تقع .

وأحس عمار بالغيظ من مى وهى تمعن فى صراخها .

لماذا تصرخ هذه الحمقاء الصغيرة .. لقد كانت هى السبب فى اكتشاف الرجال لمخبئهم .. وهى ما تزال تعاود هذا الصراخ الغبى .

ورفع عمار بصره إليها وصاح بها :

— اصمتي .. لماذا تصرخين ؟

وازدادت مي صراخا .

واقترب أحد الرجال من عمار وضربه بطرف السونكي فى كتفه وقال له ساخرا :

— ومالك أنت بها ..

واندفع أخوه محمود نحو الرجل يضربه بقبضته الصغيرة .

واندفعت أم عمار تبعد طرف السونكي عن كتفه وصاحت بالرجل :

— ابعد عنه .

وبركلة عنيفة أزاح الرجل محمودا بقدمه ثم اقترب من أم عمار قائلا فى سخرية :

— إذن أقترب منك أنت .

ثم دفع السونكي إلى صدرها وشق ثوبها .

واندفع عمار صارخا وأمسك بساق الرجل وحاول أن يعضه ولكن الرجل ركله بقدمه ركلة أسقطته على الأرض .

وجذب الرجل مي من كتف أم عمار وقذف بها على الأرض .

وصرخت أم مي واندفعت إلى الرجل غاضبة تحاول أن تمسك بخناقه ..

وببساطة تلقاها الرجل بطرف السونكي مصوبا إلى بطنها المنتفخ وبكل ما يملك من قوة دفعه إلى داخل بطنها وهو يقول فى استخفاف :

— لا داعي للمزيد من نسلكم .. لست أدرى لماذا تتكاثرون بمثل هذه السرعة .

وبقر السونكي بطن المرأة الحامل وسقطت المرأة تتلوى وقد خرج كل ما فى باطنها .

وقفز محمود نحو الرجل وقبل أن يصل إليه انطلقت رصاصة من فوهة إحدى

البنادق فاستقرت فى رأسه .. وعلت من شفتيه صرخة ثم هوى إلى الأرض والدماء تغرق وجهه .

وصرخت أم عمار وسقطت مغشيا عليها .

وعاودت الصغيرة مى صراخها وهى تزحف على الأرض .

وجمد عمار فى مكانه مشدوها .. منظر عجيب .. لا تستطيع السنون أن تمحوه من ذاكرته .. لم يطف بذهنه أن بطن الإنسان يمكن أن يحوى كل هذه الأشياء حتى رأى خالته تتلوى على الأرض وكل شيء قد تدلى منها .. الأمعاء والجنين .

ولا خطر بباله أن هذه الرصاصة الصغيرة التى تنطلق من فوهة البندقية يمكن أن تستقر فى رأس إنسان فترديه قتيلا حتى أبصر أخاه يتلوى على الأرض ثم يستقر جثة هامدة .

فظيع .. فظيع .

والرجال يضحكون .. يقهقهون .. كأنما يرقبون منظرا مضحكا على خشبة مسرح .

والدماء تتدفق على الأرض وتسيل ببطء حتى تصل إلى موضعه فيحس بها لزجة ساخنة تحت كفه .

ومن الخارج تتعالى الانفجارات .. والصرخات .

وتلفت الرجل إليه ثم ركله بقدمه ركلة عنيفة حملها بقية ما يطويه من حقد صائحا :

ــ كلاب .

وبصق .. ثم قهقه .

وغادر الغرفة تسبقه خطوات زملائه على الدرج .

ونهض عمار ينقل أقدامه الصغيرة العارية وسط الدماء .. وأشياء كثيرة حمراء تتدلى من بطن خالته .. وأخوه قد تقوس جسده وغطت الدماء وجهه .. وأمه

راقدة .. وقد فغرت فاها وأسبلت عينيها .. والصغيرة تحبو وسط الدماء .. وقد تلوثت ثيابها وكفاها ووجهها .. تسعى فزعة إلى أمها التى أفرغ الهمج جوفها .

لو استطاع أن يقضم رقبتهم أو يبقر بطونهم .. لقد حاول أن يعض أحدهم ولكن ركلته كانت أقوى من أسنانه .

لو أن أباه هنا .. لعرف كيف يريهم .

أو زوج خالته !!

لماذا خرج كلاهما ..

وفجأة سمع صوت أبى مى .. كان يصيح مهددا .. شاتما .. صارخا .

إنه لا بد سيقتلهم .

سيشق بطن أحدهم كما فعلوا بخالته .

وسمع عمار طلقة .. ثم أعقبتها صرخة .. وصوت شيء ثقيل يرتطم بالأرض .

ولم يعد يسمع صوت أبى مى ..

ربما كان منهمكا فى قتل الباقى .. وشق بطونهم .

ولكنه عاد يسمع صوت القهقهة .. قهقهة الجمع .. الذين يشاهدون المسرحية الهازلة .

وتعاقبت أصوات الأقدام على الدرج .. وفى الحديقة .. ورويدا .. رويدا .. ساد السكون الدار .

إلا من صراخ الصغيرة فى الداخل .. والانفجارات فى الخارج وتتوالى الصورة فى ذهنه .

ويذكر بعد ذلك أباه وهو يحمله على كتفه .. وأمه تحمل مى الصغيرة .. وما زال صراخها يتعالى .. ويسيرون فى درب ضيق فوق سفح الجبل .. تاركين وراءهم .. جثثا ملقاة على الطريق .. شيوخا وأطفالا ونساء .. ولم يعد منظر أخيه وخالته غريبا على عينيه فقد امتلأت الطرقات بأمثاله .. وفى الميدان جردت

النساء من ثيابهن .. وحولهن فوهات البنادق .. والقهقهات الساخرة .. ورجالهن جثث .. تطؤها النعال .

أشياء مروعة .. خلفها وراءه .

سماها الناس بعد ذلك .. مذبحة دير ياسين .. قريتهم الهادئة الطيبة .. ووصفوا فظائعها .

ولكن أحدا .. لم يرها .. كما رآها هو .

لم ير .. طرف السونكي يغرس فى بطن خالته .. كما تغرس السكين فى البطيخ .. ويخرج منها الجنين كقلب البطيخة .

لقد قرأ أشياء كثيرة عنها .

ولكن الكلمات على الورق .. باردة .. تتألق فى أناقة .. سواد الحروف على بياض الورق .. وعبثا تستطيع أن ترسم الصورة .. عبثا تستطيع أن تكون مخالب ممزقة .. عبثا تستطيع أن تتحول الحروف إلى بقع قانية لزجة ساخنة .. عبثا تستطيع السطور أن تتحول إلى أحشاء تتدلى .. وأشياء أخرى تختلط بالدماء والأحشاء .

كلام .. كلام .

والحقيقة المروعة .. ابتلعتها الأيام .. ولم تترك منها إلا ذكرى .. تروى كالحواديت .

وبدت أمه مشدوهة وهى تحتضن الطفلة الباكية .. وأخذت تتعثر فى حصى الطريق وتهتف بأبيه وفى صوتها أنين موجع :

— إنها جوعى .

ومد الرجل يده فقطف برتقالة من شجرة مطلة على الطريق وأجاب لاهثا :

— حاولى أن تسليها بالبرتقالة .. أسكتيها بأية طريقة .. حتى لا تنم صراخاتها عنا .

وأحس عمار برجفة .

مرة أخرى يمكن أن تشى بهم مى .

ألم تفعلها فى المرة الأولى .

ولكن هذه المرة .. معهم أبوه .

لن يترك أحدا يفتك بهم .. ويبقر بطونهم .

ولكن ماذا يملك أبوه إزاء بنادقهم ؟!

ماذا استطاع أن يفعل زوج خالته .. وهو مقبلٌ عليهم لنجدتهم .. إنه لم يستطع حتى الوصول إليهم .

لقد أرداه الكلاب بطلقة .. ثم بصقوا عليه ..

لم يُجدهم وجوده نفعا .. ولا استطاع هو أن يحمى نفسه .

ولو كان أبوه موجودا .. لضاع هو الآخر .. ولكن الله أرسله متأخرا وإلا لكانت أمه تقف فى الميدان مع بقية النساء وكانت جثته يطؤها البغاة .

وضاع أخوه محمود .. لن يراه بعد ذلك .. الجسد المقوس .. والوجه المضرج بالدماء .. ولو كانت عايدة أخته فى البيت لضاعت هى الأخرى ولكنها ذهبت إلى زيارة جدتها فى المدينة .

وواصل الأربعة السير .. وسقط الظلام .

وهمست الأم وهى تربت ظهر الصغيرة التى غلبها النوم .

ــ أخشى أن نضل يا عبد السلام .

ــ لا تخافى .. إننى أعرف الطريق جيدا .. طالما قطعته سائرا على الأقدام عندما كان يمرض الحصان وتعطل العربة .. ويرسلنى أبى إلى بيت جدى فى المدينة .

وتنهدت أم عمار .. وعادت الدموع تنهمر من عينيها وهى تضم الصغيرة إليها وهمست فى أنات أليمة :

ــ ابنى .. حبيبى .. كان يجب ألا أتركه .. كان يجب أن أبقى معه .

وحاول عبد السلام أن يشد أزرها فقال وهو يطوى مواجعه :

— امشى يا فاطمة .. لا فائدة من هذا كله .. يجب أن نقاوم من أجل هذين الصغيرين .

وعلا صوت بكائها وهى تتمتم :

— يا حبيبتى يا أختى .. كانت تنتظر وليدها فى لهفة .. كانت تتمنى أن يكون ولدا .. ولكنهم مزقوه كما مزقوها .. يا حبيبتى يا زينب .

ونهرها عبد السلام والدموع تملأ مقلتيه :

— وبعدين .. امسكى نفسك .. وإلا أمسكوا هم بنا .

وصمتت الأم برهة ثم عاودت التساؤل فى قلق بعد برهة :

— ترى ماذا جرى لابنتى عايدة ؟

— إنها لا شك فى أمان عند أمى .

وواصل الجماعة السير .. حتى وصلوا إلى بيت الجدة فى المدينة .

ومرت السنون .. وطوى الزمن كل شىء فى ماضيهم .

وضاعت أشياء كثيرة .. وبهتت معالمها .

إلا هذه الصورة المروعة .. المحفورة بطرف السونكى .. فى ذهن عمار .. وفى قلبه .

البيت ضاع .. والمزرعة ضاعت .. وعبير الزهر ونسمة الغروب .

لم يبق لهم شىء لم يأخذه اليهود .

أخذوه ببساطة .

لم يكن بين أبيه وبينهم ثأر .

لم يقتل أحدا منهم .. ولم يعذبه .. ولم يسلبه شيئا .

سمع بعد ذلك أن النازى عذبهم .. وقتل الملايين منهم .. وسلبهم كل شىء .

ولكن أباه بالقطع لم يكن نازيا .. لم يفعل شيئا من هذا .

ولا أحد من أقاربه .

لم يقتل أحد صغارهم كما قتلوا أخاه .

ولم يبقر أحد بطن نسائهم كما بقروا بطن خالته .. ولا مزق أحد أجنتهم فى بطون أمهاتهم كما فعلوا بالجنين الصغير فى بطنها .

لم يشعر أحد من أسرته أو قريته بالكراهية لهم من قبل .. حتى يفتكوا بهم بمثل هذا الحقد والكراهية .

أشياء كثيرة .. كانت تستعصى على فهمه خلال السنوات التى أعقبت المشهد الرهيب .

لماذا فعل بهم جيرانهم اليهود كل هذا ؟!

لماذا فتكوا بهم وسلبوهم بيتهم وأرضهم .

إنها قطعا لم تكن لهم من قبل .. فلم يحدث قط أن أحدا منهم ادعى على أبيه أنه أخذ منه أرضه .. أو سلب ماله .. أو قتل أحدا من ذويه .

لماذا إذن أقدموا على هذه الجريمة البشعة والمذبحة الرهيبة ؟

سؤال ظل حائرا فى ذهنه .. لا يجد له إجابة .

والسؤال الذى حيَّره أكثر من هذا هو :

لماذا نسلم بما حدث كأنه أمر طبيعى ؟!

إنه يعرف أن عالمه المتحضر الذى يعيش فيه .. يعاقب السارق .. ويعدم القاتل .

ولقد سرق بيته .. وقتل أهله .

ولكن أحدا لم يتحرك .

لا سارق .. عوقب .. ولا قاتل .. قُدِّم للقصاص .. بل ظل السارق يحتفظ بسرقته .. والقاتل .. يقهقه .. والعالم ـــ فيما يبدو ـــ يصفق إعجابا به .

أترى الجريمة .. لم تكن بالبشاعة التى رآها ؟!

أتراه كان واهما فى كل ما رأى ؟!

أترى أخاه لم يقتل ولم يتقوس جسده وتغطى الدماء وجهه ؟!

أترى خالته لم يبقر بطنها هى وغيرها من النساء ؟. أترى الدماء لم تسفك

والرقاب لم تقطع ؟!

غير معقول أن يكون واهما ..

فكل شيء قد ضاع واضمحل .. إلا هذه الحقيقة المروعة .. إلا البطن المبقور .. والدماء المراقة .. والطرق الملأى بالجثث .

ولو كان واهما أو مخمورا ..

فلماذا كتبت الكتب عن هذه الأشياء المروعة ؟!

إذن فالعالم هو الواهم المخمور ..

العالم .. المتحضر .. لا بد أن يكون فى غيبوبة .. لأنه .. قد سلم للسارق بسرقته .. وأمن على جريمة القتل التى ارتكبها القاتل .. وربت ظهر صاحبها فى رفق وحنى رأسه تقديرا وإعجابا .

وكل شيء يسير فى هدوء .

فى الأرض المسروقة يعيش السارق منعما ويرتع القاتل آمنا .

ومن وراء الأسلاك يبدو المسروق وكأنه مجرم خطر .. يجب أن يبقى حبيس المعسكرات والقضبان .

والسنون تمر ..

وكل شيء ضائع .. والظالم مستأسد .. والمظلوم عاجز .. والعالم سعيد .

وما باليد حيلة .. يا عمار .. لا حيلة سوى .. الجعجعة .. والكلام .

جعجعة بلا طحن .. وكلام بلا أفعال .. أو بأفعال تناقض الأقوال ..

وبين الظالم والمظلوم سد .. يفصل بين القادر والعاجز .. بين العمل والقول ..

وكل شيء يمكن أن يبتلع .. فى القلب وفى الذهن .

إلا تلك الصورة البشعة المروعة ..

تتجدد مع الأيام ..

وكان نمو ذهنك .. ينميها .. ويصقلها .. حتى تبدو لك دائما .. وكأنها

حقيقة اليوم .. وواقع الحاضر .

وفتح عمار عينيه على صوت أمه يهتف به :

ـــ عمار ...

ـــ نعم ..

ـــ أستظل يقظا طوال الليل ؟

ـــ ليس فى عينى نوم .

ـــ قم إلى فراشك وأنت تنام .. أم تريد أن تستيقظ متأخرا .. حتى تثير المزيد من غضب أبيك عليك .

ـــ سأقوم عندما يراودنى النعاس .

ـــ قم يا بنى الله يهديك .. إنى ألاقى الويل فى إيقاظك فى الصباح .

ورد عمار متبرما :

ـــ حاضر سأقوم .

ـــ لقد طلبت من مى أن تضبط المنبه وتضعه بجوارك .

ووصلت الأم إلى الشرفة .. ومدت يدها تتحسس رأسه فى حنان قائلة :

ـــ لماذا صددت البنية .. عندما طلبت منك أن ترسمك .

وأزاح عمار يد أمه من فوق رأسه فقد كان يكره مظاهر الحنان ، وأجابها فى لهجة مقتضبة :

ـــ لأنى لا أحب هذه السخافات .

ـــ والله ما فى أسخف منك .. إن البنية تحبك .

ـــ لا أريد من أحد أن يحبنى .

ـــ خسارة فى حبة عينك .

ونهض عمار حتى ينهى الحديث متجها إلى فراشه قائلا فى تبرم :

ـــ تصبحى على خير .

ـــ وأنت من أهله .

(ابتسامة على شفتيه)

وفى الصباح لم يحتج عمار إلى دقات المنبه لتوقظه .. فلقد أيقظته طرقات صديقه يحيى على باب الشرفة الخلفي وخيل إليه فى أول الأمر أن مي تدق باب الغرفة فى محاولة لإيقاظه وأجاب وهو مغمض العينين :

ـــ ما زال الوقت مبكرا .. لماذا توقظينني ؟

وأجاب يحيى ضاحكا :

ـــ أنا يحيى يا عمار .

وقفز عمار من فراشه .. وفتح باب الشرفة فوجد يحيى قد صعد بضع الدرجات المؤدية إلى الحديقة ووقف ينظر إليه ضاحكا وهو يسأل :

ـــ أما زلت نائما حتى الآن ؟

ـــ كم الساعة ؟

ـــ السابعة والنصف .

ـــ ولماذا لا أنام حتى الآن .. ما الذى أيقظك أنت مبكرا .

ـــ سأذهب إلى المعسكر .

ـــ أى معسكر ؟

ـــ معسكر التدريب .

ـــ إذن فقد كنت تتكلم جادا .

ـــ طبعا .

وهز عمار رأسه قائلا :

ـــ عجيبة !

ـــ وأى عجب فى ذلك ؟

وتمتم عمار فى نوع من اليأس :

ـــ لم أتعود أن آخذ شيئا مأخذ الجد .. كله كلام .

ـــ ماذا تعنى ؟.

ـــ أعنى .. أنى أسمع دائما أننا سنلقى اليهود فى البحر .. ولم أعرف حتى الآن

كيف .

ـــ هذا موضوع تحتاج مناقشته إلى وقت .. ولا بد أن أذهب الآن .. لماذا لا تأتى معى ؟

ـــ كيف ؟

ـــ ارتد ثيابك وتعال معى .

ـــ والحانوت .. وأبى .

ـــ قل له إنك ذاهب للتدريب فى معسكرات الفدائيين .

ـــ أبى يريدنى أن أفعل شيئا نافعا .

ـــ وهل هناك أنفع من هذا ؟

ـــ لا أظن أبى سيقتنع به .. حتى يدخله فى عداد الأعمال النافعة .

ـــ حاول أن تقنعه .

ـــ وأنا غير مقتنع ؟!

ـــ ولماذا أنت غير مقتنع ؟

ـــ لأن ذهنى مشوش .. وكل ما أراه وأسمعه .. يزيده اضطرابا وتشويشا .

ـــ على أية حال سأذهب أنا .

ـــ أنت حر يا يحيى .. لأنك أنهيت دراستك .. وليس لأحد وصاية عليك .. وكل ما تفعله تقع عليك مسئوليته .. أنت تعول نفسك .. ولكن أبى ما زال يعولنى .. وعلىّ أنا أن أعول الأسرة من بعده .. وهو يريدنى أن أتعلم الابتسام فى وجه الزبائن .. إن هذه هى مهمتى الأولى .. فى هذه الآونة .

ـــ ولماذا لا تلتحق بعمل تعول به نفسك ؟

ـــ أين ؟.

ـــ تعلم حرفة .

ـــ من باب أولى أتعلم حرفة التجارة .. لأرث أبى .

ـــ وهل تصلح أنت لذلك ؟.

— حتى الآن لا .. ولكن فى المستقبل .. من يدرى ؟

— إن علينا أن نصنع المستقبل بأيدينا .. نحن شعب ضائع يا عمار .. شعب مسروق .. منهوب .. مظلوم .. شعب من اللاجئين .

— وماذا تريد منا أن نصنع ؟

— نتحول إلى شعب من المقاتلين .. هذه هى مهمتنا الأولى .. نمسك بالسلاح .. ونقاتل .

وأخرج عمار زفرة من صدره ثم تمتم فى صوت خفيض :

— معك حق ..

— عندما نمسك السلاح ونقاتل .. سيوضع كل شىء فى موضعه .. سيعرف العالم أننا شعب نقاتل من أجل أرضنا ووطننا وحريتنا .. لا جماعة من اللاجئين .. يسألون العالم حسنة .. وسنستقطب كل القوى الفلسطينية المختلفة بلا سبب .. وسنكشف الزعامات الزائفة .. بل وأكثر من هذا سنستقطب كل القوى العربية المختلفة .. المتناقضة .

وعاد عمار إلى شروده ثم قال وهو يهز رأسه فى نوع من التشكك :

— أنت متفائل يا يحيى .. متفائل جدا .. إن التناقض بين القوى العربية .. أكبر من أن يتغلب العمل الفدائى الفلسطينى عليه .. إن الوحدة فى نظر كل نظام تحتم تصفية النظام المضاد من أجل أن تتحقق وحدة حقيقية بلا متناقضات .

— لن ندع ظلال اليأس تعتم طريقنا .. سنسير بكل ما نملك من قوة الإيمان ودفعة الأمل .

وصمت عمار برهة ثم تساءل :

— وماذا فعلت بعملك فى المكتب الهندسى الذى تعمل به ؟

— سألت كبير المهندسين أن يمنحنى إجازة بدون مرتب .

— وكيف ستعيش بغير مرتب ؟

— ولماذا أريد المرتب ؟.. فى المعسكر لن يعجزوا عن منحنا وجبة الطعام ..

وثياب التدريب وسلاحه ..

— وماذا قلت لوالدتك ؟..

— قلت لها إننى ذاهب فى مهمة فى دمشق .

— ومتى ستعود ؟

— أعتقد أنى أستطيع العودة كل أسبوع .

— مر على فى كل مرة تأتى .

— طبعا .. فلعلك تأتى معى ذات مرة .

— من يدرى .. ألا تأخذ فنجانا من الشاى ؟

— أزف الوقت .. كان يجب أن تمنحنى إياه منذ أن طرقت بابك .

— طويتنى بالكلام .. فسهوت عنه .

— سأتغدى معك فى المرة القادمة .. هذا أفضل من فنجان شاى .

— اتفقنا ..

وشد كل منهما على يد الآخر فى مودة .

وهبط يحيى من درج الشرفة عابرا الحديقة إلى الباب الخارجى .

ودق جرس المنبه فوضع عمار أصبعه عليه حتى يسكته .

وأسرع فى ارتداء ملابسه وتناول إفطاره .

لم يكن على استعداد لتلقى مزيد من اللوم من أبيه .

إن عليه أن يحاول استرضاءه .. فهو قبل كل شيء يحبه ويحس له بالاحترام .

وهو من وجهة نظره على حق .. وإيمانه بالحديث الشريف الذى لا يفتأ يردده .. (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) يحتم عليه أن يتقن عملية التجارة .. لأن هذا هو عمله .. فهو لم يفلح حتى الآن فى أداء غيره .. ولقد وجد فيه بحكم الظروف التى لم توجد له بديلا .. ومن أجل هذا يجب أن يكون تاجرا شاطرا .. يعرف كما قال أبوه .. كيف لا يترك الزبون يخرج بيده فارغة . بكلمة حلوة .. وابتسامة عذبة .. هذا هو ما يجب عليه أن يتقنه .

الآن على الأقل .

وعندما يمسك السلاح .. إذا ما قدر له أن يمسكه .. يصبح عليه أن يتقن استعماله ..

وفى طريقه إلى الحانوت .. عادت كلمات يحيى تطرق مسامعه ..

عندما نمسك السلاح ونقاتل .. سيوضع كل شىء فى موضعه .

إلى أى مدى يصح هذا القول ؟

إلى أى مدى يصح .. مع الفلسطينيين المتنافرين ؟

وإلى أى مدى يصح مع العرب المتقاتلين ؟..

يقاتل بعضهم البعض الآخر .. ولا يقاتل العدو الحقيقى ..

خرج البعض فى سوريا بالسلاح .. من أجل فض الوحدة ..

وتشاغلت جيوش العراق وسوريا .. بطى النظام وراء النظام .. وعمل الانقلاب وراء الانقلاب .. والثورة فى أعقاب الثورة .

والجيش المصرى مشغول بحماية ثورة اليمن من الرجعية ..

والأردن والسعودية تجدان فى مصر خطرا أكبر من خطر إسرائيل ..

والزعامة الفلسطينية ترتدى الكاكي وتهدد بإلقاء إسرائيل فى البحر ..

كيف ؟!! كيف ؟!!

وكل ما فى ذهن عمار .. يبدو أوهاما فى أوهام .

الحقيقة الوحيدة التي لا تهتز هي الأرض التي سرقت والبيت الذي ضاع ، وهي الجسد الصغير المقوس بوجهه المضرج بالدماء .

هى المرأة المبقورة البطن .. يتدلى من جوفها الأحشاء والجنين .

والطفلة تحبو وسط الدماء .

والرجل صاحب السونكي يقهقه ويبصق ويقول :

« كلاب » .

٣

هل تحبينه ؟ ..

وقفت مى وسط الفصل أمام السبورة . وهى تشرح للتلامذة درس اليوم وقد كتبت على السبورة التاريخ ونوع الدرس (رسم من الذاكرة) ثم كتبت ارسم من الذاكرة صورة تاجر يبيع الأقمشة فى سوق القدس .

وكان خالد يجلس وسط التلاميذ يتطلع إلى ما تكتبه مى على السبورة .. ولم يتمالك نفسه من أن يهتف ضاحكا :

— هل نرسم أبى .. أم أخى عمار ؟

وضحك صبى يجلس بجواره وتساءل :

— وما الفرق يا خالد ؟

— الأول ضاحك . والثانى متجهم .

ورد الصبى فى حيرة :

— وهل تعرف كيف ترسم وجها يضحك وآخر متجهما ؟

— سأحاول .

— أنا لا أعرف .

وتساءل صبى من آخر الفصل :

— هل نرسمه جالسا أم واقفا ؟

وتساءل آخر :

— هل يبيع لرجل أم امرأة ؟

وردت مى وهى ترفع أصبعها مهددة :

— لا أريد كثرة أسئلة .. ليرسم كل منكم ما يتصوره . وانهمك الصبية فى الرسم ، وأخذت مى تمر بين الصفوف مبدية ملاحظاتها بين آونة وأخرى

أو ممسكة بقلم أحدهم تساعده فى رسم الخطوط الأولية للسوق .

ووقفت أمام خالد فوجدته قد كتب على الصفحة « محل الحاج خالد عبد السلام » وترك الصفحة بيضاء دون أن يرسم شيئا .

وسألته مى فى غيظ :

— ما هذا ؟

وسألها بدوره فى دهشة :

— ألا يبدو ما أريد واضحا .. ألا تعرفين القراءة ؟

ورددت مى الكتابة قائلة :

— محل الحاج خالد عبد السلام .

— بالضبط .

— وأين صاحب المحل ؟..

— ذهب إلى معسكرات الفدائيين .. أتحبين أن أرسمه لك هناك ؟

وبسرعة البرق أخذ يرسم على الورقة جنديا يحمل السلاح .

وقالت مى فى إصرار :

— لم أقل لك ارسم جنديا يحمل السلاح .. ولكنى قلت ارسم تاجرا يبيع القماش .

ورد خالد فى ضيق :

— لا أعرف أن أرسم سوى هذا .. هذا أسهل كثيرا .

وعاد يرسم جنودا آخرين يحملون السلاح ، ونظرت إليه مى وهى تقول منذرة :

— ستأخذ صفرا ..

وبعد برهة دق الجرس واندفع الصبية إلى الخارج يتواثبون ويتصايحون .

وخرجت مى تحمل كراستها متجهة إلى حجرة المدرسين ، وفى الممر التقت بأميرة تسير بخطواتها القصيرة السريعة وقد انتصبت قامتها وتهدلت جدائلها

الذهبية على كتفيها ، ولم تكد تراها حتى هتفت بها :

— مى .. كنت أبحث عنك .

وأجابت مى باسمة :

— خير ؟

— أخى كمال ينتظرنا بعربته فى الخارج !.. ويريدنا أن نذهب معا .

— إلى أين ؟

— إلى السوق ..

— لماذا ؟

— يريد أن يشترى قماشا من دكان عمك لبياضات الطقم الذى أحضره للعيادة .

— وهل يحتاج لوساطة لدى عمى ؟

— قال إنه يريد أن تختارى له القماش على ذوقك .

— ذوق أنا ؟.

— هكذا ادعى .

— أخشى أن أخذله .

— لا أعتقد .. فدرجة الإعجاب بك قد زادت هذه الأيام حبتين .

وتساءلت مى فى خجل ودهشة :

— إعجاب بى أنا ؟. منذ متى ؟

— منذ أن رآك آخر مرة عندما كان يعود خالتك .. وسيرتك لا تترك لسانه .

— عجيبة !

ووصلت الفتاتان إلى باب المدرسة ولمحهما الدكتور كمال الذى كان يقف بعربته على الرصيف المقابل للباب فهبط يلقاهما محييا مى فى بشاشة ومودة .

— أهلا مى .. لعلى لا أكون قد أزعجتك ..

— أبدا .

وفتح باب العربة بجواره ودعا مى إلى الركوب قائلا :

— تفضلى .

ولكن مى أسرعت تفتح الباب الخلفى ودلفت إلى العربة بسرعة قائلة :

— سأجلس هنا ..

وجلست أميرة بجوار أخيها .

وانطلقت العربة إلى السوق .

وقال كمال يفتتح باب الحديث :

— كيف حال خالتك ؟

— الحمد لله .

— كان يجب أن أعودها ثانية .. لولا أنى سافرت بعدها مباشرة .. ولكنى سأزورها فى أقرب فرصة .

— لا داعى لأن تتعب نفسك .. إنها الآن بخير .

ورد كمال مازحا :

— ألا تريدين أن أزوركم .. لن أكلفكم سوى فنجان القهوة .

— إنه بيتك تحضر وقتما تشاء .. إنى وأميرة .. كأخوات .

وردت أميرة مؤكدة :

— بل أفضل .. لم يكن أحد يسأل عنى طوال مدة دراستى فى القاهرة .. سواك .. ولم يهون على أن أعود هنا لأدرس الإنجليزية لهؤلاء القردة .. سوى أنى سأكون معك فى مدرسة واحدة .

وقال كمال ضاحكا :

— لعل إغراء القاهرة لا يكون أقوى من مى .

وردت مى قائلة :

— إذا سنحت لها فرصة العمل معيدة فلن يفلح إى إغراء فى إبقائها .

وقال كمال :

ـــ لا أظن شغلانة المعيدة وحدها هى التى تغريها بالقاهرة .. إن هناك سببا أقوى للإغراء .

وضحكت مى متسائلة :

ـــ ما أخباره يا أميرة ؟

وأعاد السؤال أميرة من شرود استغرقت فيه وهزت رأسها مستفسرة :

ـــ أخبار من ؟.

وأجابت مى :

ـــ رءوف ..

وأطلقت أميرة تنهيدة . ولم يبد أن رءوف كان بعيدا عن ذهنها الشارد فقد قالت ببساطة :

ـــ إنه يدرس فى بعثة مدرعات فى تشيكوسلوفاكيا .

وقال كمال :

ـــ لقد كتب إلى أنه سيزورنا بمجرد عودته من براغ .

وقالت مى :

ـــ لعله يحضر الدبل معه .

وتنهدت أميرة ولم تجب ، وقالت مى :

ـــ ربنا يحضره بالسلامة .. ويتمم كلّ شىء على خير .

ووصلت العربة إلى السوق . ووقف كمال بها فى أحد المنعطفات .. ثم هبط الثلاثة يسيرون إلى الدكان .

وفوجئ الحاج عبد السلام بمى ورفاقها يقبلون على الحانوت وهتف بهم مرحبا :

ـــ أهلا وسهلا .. ما هذه المفاجأة الطيبة . تفضلوا ..

وحاول عمار أن يرسم ابتسامة على شفتيه ونظرت إليه مى فى إعجاب

لم تستطع أن تخفيه وقالت تهمس به مازحة :

— أجل . هكذا أفضل .

وسرعان ما ضاع شبح الابتسامة .. وعاوده التجهم وهو يشد على يد الضيوف مرحبا .

وقالت أميرة :

— حضرنا لشراء بياضات لعيادة كمال .

ورد الحاج عبد السلام :

— مبروك يا دكتور .. المحل كله تحت أمرك .. أنت رجل أمير .. لقد سألت الحاجة عنك عدة مرات .

ورد كمال : أنا مقصر فى حقها .. ولكننى سأزورها فى أقرب وقت ..

— إنها لا ترتاح إلى طبيب سواك .. إنها تعزك كابنها .

— وأنا أحس أنها تماما كأمى .. إنها سيدة كاملة .

ومد الحاج عبد السلام يده إلى رف وراءه ثم جذب بضعة أثواب .. وأخذ فى عرضها على كمال قائلا :

— هذه بضعة أثواب وصلت إلينا من شركة المحلة .. عينات جديدة ممتازة .

وقال كمال ضاحكا :

— لقد فوضت مى فى انتقاء القماش .. إنى أثق فى ذوقها .

وأشارت مى إلى ثوب غلبت عليه الزرقة قائلة :

— يعجبنى هذا .

وبسرعة قال كمال :

— انتهينا .. أنا أيضا أعجبنى ..

وتساءل عبد السلام :

— كم مترا تريد ؟

— طقم من كنبة وأربعة كراسى فوتيل .. كم مترا يحتاج ؟

وسرعان ما قطع الحاج عبد السلام القماش المطلوب .

وتساءل كمال وهو يخرج محفظة النقود عن الثمن فأجاب الرجل وهو يسلمه اللفافة ضاحكا :

— ثمنه وصل .

وشكره كمال وعاد يلح فى معرفة الثمن قائلا :

— إذا لم أدفع الثمن فلن آخذ القماش .

— يا دكتور خيرك سابق .. إنك لست غريبا .. وعيادتك عيادتنا .

— إذا لم تأخذ منى الثمن فلن أجسر بعد ذلك على أن أعود إليك .

— إذن سآخذ منك ثمن الشراء بدون ربح ..

ودفع كمال النقود وسار نحو العربة تصحبه الفتاتان . وقالت أميرة :

— لم أتصور أنه بهذا الثمن !

ورد عليها كمال :

— وذوقه فى منتهى الجمال .

وأجابت مى ضاحكة :

— إذن سأفتح مكتبا للديكور .

— سأكون أول زبائنك وسأطلب منك أن تتولى تأثيث بيتى .

وردت مى مازحة :

— عندما يستقر رأيك على العروس . أنا تحت أمرك .

ونظر إليها كمال فى إعجاب وهو يفتح باب العربة :

— لقد استقر رأيى عليها .. فعلا ..

وأحست مى بالارتباك من نظرته ومن حديثه ولكنها حاولت أن تتجاهل ما قد يكون عناه بقوله ولو على سبيل المزاح وقالت تجاريه فى مزاحه :

— مبروك — أنا فى خدمتك فى أى وقت .. سأفتح مكتب الديكور من أجلك .

واتجهت العربة إلى بيت مى ..

وأشاعت الجملة التى ألقاها كمال بين المزاح والجد جوا من الصمت ترك كلا منهما مغرقا فى التفكير .. بحيث بدت الجملة وكأنها لم تكن مجرد غزل .. بل عرضا لزواج .

ولم ينته اليوم .. حتى تحولت فعلا .. إلى هذا .

وقفت العربة أمام البيت وهبطت مى وحاولت أن تحطم إطار الحياء الذى وضعتها فيه كلمات كمال التى نمت عن إعجاب يتجاوز مجرد الغزل العابر وقالت مازحة :

ـــ أأستطيع المغامرة بدعوتكما إلى الغداء ؟

ورد كمال :

ـــ لو كنت جادة فسأدخل فورا .

ـــ ألا تتأكد أولا مما لدينا من طعام .. فقد يكون ما لديكم أفضل .

ـــ ليس الطعام هو المهم .. وإذا لم تقبلى المغامرة بدعوتنا .. فسأدعوك أنا .. رغم أنى لا أعرف ماذا يمكن أن تكون أمى قد أعدت ..

ـــ بل سأقبل المغامرة .. ولتقل خالتى ما تقول .. إن الضيوف المفاجئين يفزعونها .. ولكننى واثقة أنها لن تعتبركما ضيفين .. تفضلا .. على ما قسم .

وقال كمال ضاحكا :

ـــ سآتى مرة أخرى .. عندما يكون الطعام من إعدادك أنت .. حتى تكونى مسئولة عن المغامرة ..

وردت مى :

ـــ لن تكون مغامرة إذن .. فسأستعد لها مسبقا .

وتساءل كمال :

ـــ وأى شيء تجيدين .. من أنواع الطعام ؟؟

وردت أميرة :

ـــ كل شيء ..

وعاد كمال يرمقها بنظراته المعجبة وهو يتمتم قائلا :

ـــ ميزة أخرى .. لم تخطر لى ببال ..

وقالت أميرة مؤكدة :

ـــ إن مى طباخة ماهرة .

ـــ إذن فلا داعى لأن تكلفتنا الآن فى دعوة غداء .. لا تتحمل هى مسئوليتها . أنا مصر على أن أدعى على استعداد .

وقالت أميرة :

ـــ أهو اختبار ؟!!

وقال كمال مؤكدا :

ـــ مى لا توضع موضع اختبار أبدا .. إنها فوق كل اختبار .

وأحست مى أن الحديث يعود مرة أخرى ليلبس ثوب الجد .. وغلبها الحياء وهى تستمع إلى إطراء كمال .. وتلعثمت فلم تعرف ما ترد به .. وقالت تحاول أن تخرج الحديث عن جديته لتعيده إلى لهجته المازحة :

ـــ نصيحتى أن تقبلا الدعوة الآن .. وغدوة فى اليد .. خير من عشرة على الشجر .. هيا تفضلا .

وقال كمال :

ـــ لا أظن الآن ممكنا .. فلا بد أن أعود إلى العيادة أولا .

ووجهت مى الحديث إلى أميرة قائلة :

ـــ إذن تعالى أنت يا أميرة .. هيا .

ـــ ولكنى ..

وقاطعها كمال قائلا :

ـــ انزلى أنت يا أميرة ..

ـــ ولكن أمى تعرف أنى سأعود للغداء .. وقد تشغل على ..

ـــ سأمر عليها وأخبرها أنك تتناولين الغداء مع مى ..

وهبطت أميرة من العربة .. وأشار كمال لهما مودعا :

ـ مع السلامة .. سأنتظر الدعوة .. إلى مصر على تناول طعامك ..

وأجابت مى :

ـ أنا تحت أمرك فى أى يوم .. دع أميرة تخبرنى .. وسأعد لكما الغداء .. مع السلامة .

وطرقت مى الباب وأقبلت على خالتها بضيفتها ولقيتها الخالة مرحبة وإن بدا عليها جزع المفاجأة لأنها لم تعد العدة لغداء ضيوف .

وقالت مى تطمئنها :

ـ سنتغدى أى شىء .

وردت الخالة فى لهجة لائمة :

ـ كان يجب أن تخبرينى لأستعد .

وضحكت مى قائلة :

ـ ماذا كنت تقولين إذن لو دخل معنا الدكتور كمال !

ـ الدكتور كمال .. هل كان معكما ؟

ـ أجل . أوصلنا حتى الباب .

ـ ولماذا لم يدخل ؟

ـ خشى أن يفاجئك .

ـ يا عيب الشوم .. هذا بيته .

وقالت أميرة :

ـ لقد وعد بالحضور للغداء فى أى يوم .. ومنتظر دعوة مى .. عندما تعد له الطعام بنفسها .

وقالت الخالة ضاحكة :

ـ إذا انتظر هذا .. فلن يأتى فى سنته .. قولى له إنى سأعد له كبيبة .. يأكل أصابعه وراءها .

وتناولت أميرة ومى طعامهما مع الخالة .

وبعد الطعام .. استقرتا فى حجرة مى .. ووقفت أميرة أمام تخطيط لصورة على لوحة موضوعة فوق حامل فى ركن الغرفة وتساءلت قائلة :

— ماذا ترسمين ؟

وهزت مى رأسها قائلة فى لهجة مستخفة :

— يعنى ..

وعادت أميرة تتأمل الخطوط التى تحدد الأنف والعينين .. قائلة :

— العينان تشبهان عينى ابن خالتك ولكن النصف الأسفل من الوجه لا يعبر عنه ..

وضحكت مى قائلة :

— إنى أحاول أن أجعله يضحك ..

وقالت أميرة :

— ومن أجل هذا تبدو الخطوط غريبة .. إنى لم أضبطه مرة واحدة متلبسا بالضحك ..

— كان هذا سبب معركة مع أبيه لأنه يطفش الزبائن .

— إنه جاد أكثر من اللازم . لقد حاولت بضع مرات أن ألفت نظره .. ولكنه بدا دائما وكأنه لا يرانى .. هل هو يحب أحدا ؟

وهزت مى رأسها وأجابت باسمة :

— لا أظن ..

وصمتت مى برهة ثم أردفت :

— كم تمنيت أن أعرف ماذا يدور فى رأسه .. كم تمنيت أن أجلس إليه وأحدثه .

وتساءلت أميرة فى شىء من الدهشة :

— ولماذا لا تفعلين ؟

ـ لأنه نفور .. يكره الحديث والنقاش .. وهو يحلم بأشياء كثيرة يختزنها فى ذهنه .. ويكره أن يشاركه فيها أحد ..

وقالت أميرة فى استخفاف :

ـ غدا يحب .. ويتزوج .. ويخرج من كل هذه الأوهام ..

وصمتت برهة ثم أردفت باسمة :

ـ هذا مصيرنا جميعا ..

وسألتها مى :

ـ ومتى سنفرح بك ؟

ـ يعنى ؟!

ـ ألم يحدد رءوف موعدا ؟

ـ عندما تنتهى بعثته .

ـ ومتى تنتهى ؟

ـ المفروض فى نهاية العام .

ـ يعنى بعد بضعة أشهر .

ـ أجل .

ـ وسيحضر إلى هنا ؟

ـ المفروض هذا .

ـ وسيتم العقد . وتعودين معه إلى القاهرة ؟

ـ إن شاء الله .

ـ وإذا أمكنك العمل كمعيدة قبل هذا ؟

ـ سأذهب إلى القاهرة بالطبع ..

ـ وهل تعودين معه إلى هنا .. لتكتبا الكتاب ؟

ـ هنا .. أو هناك .. سيان .

ـ كنت أود أن أحضر فرحك .

— طبعا ستحضرينه .
— ولكن إذا تزوجت فى القاهرة ؟
— فسأدعوك إلى هناك .
— يا ريت .. لقد تمنيت أن أرى القاهرة .
— سأدعوك على أية حال .. سواء تزوجت هنا أو هناك .
وضمتها إليها فى رفق وأردفت ضاحكة :
— سأكون فى حاجة إليك لعمل شقتى .. أم تراك نسيت مكتب الديكور الذى تنوين فتحه ؟.
وتنهدت مى قائلة :
— كلام .
وصمتت أميرة برهة وهى ترمق مى .. ثم قالت لها فجأة:
— على فكرة .. يبدو أنك ستسبقيننى إلى الزواج ..
وتساءلت مى فى دهشة :
— لماذا ؟
— لأن كمال يبدو فى عجلة
وشهقت مى قائلة :
— كمال ..
— أجل .. مالك تشهقين هكذا ؟
— أبدا .. ولكن .. ماذا حشر كمال فى الموضوع ؟
— ظننتك أذكى من هذا .
— ماذا تقصدين ؟
— إن كمال يريد أن يتقدم إليك .
وبدا الارتباك على وجه مى وتمتمت قائلة :
— إلى أنا ..

ـ أحقا لم تفهمى .. أم إنك تتخابثين على ؟

وتنهدت مى .. وبدا عليها الشرود ..

وأدهش أميرة ما بدا على وجهها من حيرة وقلق .. وسألتها فى شيء من الاستنكار :

ـ ماذا بك يا مى ؟..

ـ أبدا .

ـ ظننتك .. أدركت من نظرته مدى إعجابه بك ..

ـ إنه إنسان رقيق ولطيف .

ـ ليس بمجرد رقة ولطف .. إنه يميزك أنت بإحساس خاص .. لا أزعم أنه وله .. ولكنه لا شك قدر من الحب والتقدير يجعله يختارك لكى تكونى شريكة حياته ..

واستمر الوجوم يكسو ملامح مى وأردفت أميرة تقول :

ـ ظننتك فهمت كلامه .. عندما قال .. إن رأيه قد استقر على عروسه فعلا ..

وتنهدت مى قائلة :

ـ خلته يمزح ..

ـ أبدا .. لقد كان يتكلم جادا .. كان يحدثنى دائما عن إعجابه بك .. كان يقول عنك إنك مخلوقة رائعة .. وأنه عندما يتخيل لنفسه زوجة .. لا يستطيع أن يضع فى موضعها سواك .. وكان يقول دائما إنه عندما ينتهى من تدعيم مركزه .. والإحساس بالقدرة على أن يكون أسرة وينشئ دارا .. فلن يتردد فى التقدم إليك . ومنذ أيام سألنى .. كيف يتقدم إليك .. وطلب منى أن أمهد له الطريق ..

وصمتت برهة ترقب مى فى وجومها ثم أردفت :

ـ ويبدو أنه قد تعجل فحاول أن يمهد الطريق لنفسه .. فى مشوار اليوم ..

لقد خيل إلى أنك فهمت .

وتمتمت مى قائلة :

ـــ أحسست بما يعنى .. ولكنى ظننته مازحا .

ونظرت أميرة إليها فى شىء من الحيرة وتساءلت :

ـــ والآن وقد عرفت أنه لم يكن يمزح .. فما رأيك ؟

وردت مى قائلة فى حيرة :

ـــ رأيى .. رأيى ..

وصمتت برهة ثم أردفت :

ـــ رأيى .. أن كمال .. مخلوق ممتاز .. ولكنى لم أفكر مطلقا فى الزواج .

ـــ لم تفكرى .. لأنه لم تسنح لك الفرصة الملائمة ولكن الآن .. يمكنك أن تفكرى ..

وهزت مى رأسها قائلة :

ـــ لا أستطيع .

ـــ لماذا ؟

ـــ لا أتصور أنى أستطيع أن أتزوج أحدا ..

ـــ كيف ؟

ـــ إنى أستطيع أن أتصور أخاك كمال .. صديقا .. أو قريبا أو زميلا .. ولكن زوجا .. لا .

ونظرت إليها أميرة نظرة فاحصة وتساءلت هامسة :

ـــ أنت عجيبة يا مى .. هل هناك أحد فى ذهنك ؟..

وصمتت مى .. وبدت الحيرة على أميرة .

ووقع بصرها على الخطوط فوق اللوحة .. وبدا كأن الخطوط تلقى على المشكلة المحيرة شعاعا من ضوء .. وهتفت أميرة متسائلة وهى تنظر إلى اللوحة :

ـــ مى .. هل تحبينه ؟!!

٤

طريق لا بديل له ..

هل تحبينه ؟!!

ألقت أميرة السؤال على مى .. ببساطة .. وانصرفت ..

ودعتها دون أن تنتظر منها ردا عليه .. وكأنها قد سلمت بأن الرد .. نعم .

أو كأن سؤالها لم يكن يحمل معنى السؤال بقدر ما يحمل معنى إثبات حقيقة وإقرار واقع .

لم يكن هل تحبينه ؟.. بل كان .. أنت تحبينه .

وعندما خلت مى لنفسها بدا أن عليها .. أن تواجه نفسها لأول مرة .. فى مسألة لم تشعر قط .. أنها تستحق المواجهة .. أو المناقشة .. بل هى جزء من كيانها .. ومشاعرها .. تسلم بها وتخضع لتأثيراتها .. بغير جدل .. ولا مقاومة .

هل تحبه ؟

هل تحبين عمار يا مى ؟!!

لأول مرة يوجه إليها أحد هذا السؤال ..

ولأول مرة تجد أن عليها أن تناقشه .. وتجيب عليه .. على الأقل فيما بينها وبين نفسها .

إنه لم يعد شيئا باطنيا يمكن أن تطويه .. وتستأثر به .. وتتعامل معه تعاملا ذاتيا .. فى حرية مطلقة .. دون أن تحس أن عليها أن تقدم عنه جوابا لأحد .

جاء الوقت يا مى .. الذى يحتم عليك .. أن تسائلى نفسك عنه .. عن وجوده .. وعن قيمته .. بعد أن بدا عنصرا إيجابيا يمكن أن يؤثر فى تصرفاتك مع الغير .. ويشكل بينهم وجودك .. ومستقبلك .

بات عليك أن ترفضى أشياء بسببه .

وأن تعترف بالتالى أنه موجود .

وأن علامة ما تشدك وإياه .

بات عليك أن تواجهى أشياء قد تحرمك من حق ممارستها بالطريقة الطبيعية التلقائية التى تمارسينها بها .

وأن تدافعى عنه ضد هذه الأشياء التى تهدد بالحرمان منه .

ومن أجل هذا .. ومن قبل هذا ..

بات عليك أن تناقشيه هو ذاته .. وجوده .. وقدره .. وأثره .

هل تحبين عمارا يا مى ؟..

وشعرت مى أن القضية أكبر من أن يجاب عنها ببساطة .. بلا .. أو نعم .. إنها شيء أكبر من نوع من الطعام .. تحبه أو لا تحبه .. أو رداء يعجبها أو لا يعجبها .

إنها تشعر أن كل ما يخدش عمارا .. يخدش شيئا فى باطنها .. يخدش قلبها .. تشعر أنه عزيز .. عزيز .. جميل .. جميل .

هو النموذج .. وغيره .. مهما بلغ من الكمال .. صورة .. بها شيء غير متقن .. شيء يجب أن يعدل .. ويسوى .. لكى يصل إلى مستوى عمار .

حتى تجهمه .. تحبه وتأنس له . وتكره أن يلومه عليه أحد .. حتى ولو كان أبوه .

حاجاته .. أمتعته .. ملابسه .. آراؤه .. أحلامه المختبئة فى رأسه .. كلها ملكها .. هى مسئولة عنها .. وعن حفظها .. ووقايتها ..

وهى تمارس مشاعرها له .. ممارسة علنية صريحة .. لا تجد فيها عيبا ولا خطيئة .. ولا تشعر أن عليها أن تقدم إجابة عنها .. لماذا تفعله .. وبأى حق ؟

حتى أصبح عليها أن تجيب على السؤال ..

هل تحبين عمارا ؟
وأضحى عليها أن تتخذ .. بطريقة .. حاسمة .. أين موقعه من نفسها ..
ولم تعد المناقشة تقتصر على الحساب الداخلى بل أضحى عليها أن تقدم عنها حسابا علنيا ..
بدأ بسؤال أميرة :
هل تحبينه ؟
وانصرفت أميرة .. دون أن تنتظر الجواب ..
ولكن مخلوقا آخر .. بدا وكأنه ينتظر الجواب ..
دون أن يلقى السؤال ..
هذا المخلوق .. هو خالتك .. أم عمار .
أقبلت فاطمة فى خطاها المتثاقلة .. وابتسامتها الرقيقة ونبراتها الهادئة تتساءل ..
— لم تمكث أميرة كثيرا ؟..
وحاولت مى أن تنفض عن رأسها أفكارها وأجابت ببساطة :
— لديها مشاغل .
— لم يبد عليها الرضاء وهى تودعنى .. كأن شيئا يشغلها .
— ربما .
— هل تشاجرتما ؟
وردت مى فى دهشة :
— هل قالت لك هذا ؟
— مطلقا .. ولكنى فقط رأيتها مهمومة .
— ومن منا بلا هموم ؟..
— ماذا رأيتما حتى تتحدثا عن الهموم .. أى عبء تحمله .. هذه الطفلة ؟..
— إن خطيبها سافر ..

— أين ..؟

— إلى تشيكوسلوفاكيا .

— ماذا يفعل ؟

— إنه ضابط فى الجيش المصرى .. فى بعثة مدرعات .

— ربنا يعيده إليها بالسلامة .. هل هذا هو ما يثقل عليها ؟

— يعنى ؟!!

— وأنت .. ماذا بك ؟

— لا شىء .. هل شكوت أنا من شىء ؟

— أراك مهمومة مثلها .

— أبدا .. ليس بى شىء .

واقتربت أم عمار من مى فضمتها إلى صدرها فى حنان وقبلت جبينها قائلة :

— اسمعى يا مى .. لقد سمعت طرفا من حديثكما .. عن غير قصد .

وتنهدت مى ولم تعرف أى طرف من الحديث التقطته خالتها .. وتمنت ألا تكون قد التقطت سؤالها « هل تحبينه » .. ولم تجد خيرا من أن تنتظر حتى تكمل حديثها وتقول ما عرفت .

وأردفت الخالة تقول :

— لقد أسعدنى أن أسمع رغبة أخيها فى خطبتك .. إنه مخلوق ممتاز .. منذ أن رأيته وقد دخل قلبى .. إنه إنسان طيب رقيق .. كريم .. سمعت عنه من كل المعارف أنه طبيب ماهر .. وأنهم يتوقعون له مستقبلا مرموقا .. وهو خير زوج يمكن أن تأمل فيه فتاة !

وصمتت الخالة برهة .. كأنها تنتظر جوابا من مى .

ولم تعرف بماذا تجيب .. ولم تجد ما ترد به غير سؤال نم عن حيرتها .. أطلقته فى كثير من الدهشة :

— هل يتحتم على أن أتزوج ؟

ودهشت الخالة من ردها . وقالت ببساطة وهى تبتسم :
— الفتيات كلهن يتزوجن .. وحلم كل فتاة .. زوج طيب .. وبيت تستقر فيه .
— ولكنى أشعر أنى مستقرة فى بيتى .. وأن كل من حولى طيبون .
— بيت الفتاة .. هو بيت زوجها وأولادها .. هو الذى يدوم لها .. هذا البيت الذى نعيش فيه سيتفرق كل من به .. أنا وعمك .. سنقضى أيامنا ونرحل .. وكل سيذهب إلى حال سبيله .. وغير معقول أن تبقى وحدك فى الحياة ، لا بد أن تختارى لك شريكا .. يمنحك الونس والبيت والأولاد .
وصمتت الخالة وهى ترقب مى فى حنان .. لقد عبرت السيدة عن وجهة نظرها ونظر جيلها فى الأمل المنشود .. فى الشريك الذى يمنح الدفء والحنان والأولاد ..
وتنهدت مى وتمتمت متسائلة :
— إذا كان علينا ألا نبقى وحدنا فى الحياة .. فهل سهل علينا اختيار الشريك ؟
— ولم لا .. الناس الطيبون كثيرون .
— أهو مجرد إنسان طيب ؟..
— طيب وحنون .. و ..
— لا أتصور .. أنى أستطيع أن آلف .. إنسانا غريبا .. لأجعل منه شريكا لحياتى ..
— إن كان إنسان طيب .. وستألفينه بالعشرة والاختلاط .
— لا أستطيع أبدا أن أتصوره زوجا ..
وصمتت الخالة برهة وهى تتأمل مى ثم وجهت سؤالها ببساطة وبراءة :
— من الذى يمكن أن تتصوريه زوجا لك ؟
وصمتت مى .. وبدا لها أن الحديث فى هذا الموضوع لا بد أن يلف ويدور

وينتهى إلى هذا السؤال ..

وإن الإجابة عليه .. يمكن أن يحملها .. الرد على سؤال أميرة .. هل تحبينه ..؟

أجل .. من الذى يمكن أن تتصوره زوجا لها ؟ من الذى يمكن أن تتصوره .. شريك حياة .. وأليف بيت .. وأبا أولاد .. ورب أسرة .. من غير عمار ؟.

من غيره .. يمكن أن يكون النموذج الرائع .. لكل هذا .

ولكن هل تستطيع الإجابة بهذا ..؟

وهل تهدف الخالة من السؤال إلى الحصول على هذا الرد ..؟

وماذا يكون رأيها فيه ..؟

ولكن .. هل الإجابة عليه يمكن أن تطلق بمثل هذه السهولة .. وهل هى مسألتها وحدها ..؟

وهو .. ماذا يمكن أن يكون رده ؟..

وتنهدت مى .. ولم تجد الجرأة على الإجابة .

وأطرقت برأسها .

وضمتها الخالة إليها فى حنان زائد ثم همست بها :

ـــ إنى أمك يا مى .. من هناك يمكن أن تفضى إليه بدخيلة نفسك سواى ؟

ولم تجب مى ..

أشياء كثيرة يمكن أن تستقر واضحة فى نفوسنا .. ولكنها تتعثر عندما تحاول أن تجد طريقها إلى الشفاه .

تمتمت الخالة قائلة :

ـــ هل تظنين أن عمارا .. يمكن أن يكون زوجا طيبا لك ؟

وهمست مى قائلة :

ـــ وماذا يفيد ظنى !..

ـــ هل تظنين أن عمارا يمكن أن يكون زوجا صالحا لأى فتاة ؟

وردت مى فى لهجة قاطعة :

— بالطبع .. إن عمار سيد الناس .

— سيد الناس شيء .. وزوج صالح شيء آخر .. ربما كان سيد الناس فى نظرنا .. ولكنه مع ذلك لا يصلح لأن يكون زوجا ..

— ولماذا ..

— لأنه لا يريد أن يحمل مسئولية .. لأنه شارد .. لأن وجهه كما يقول أبوه .. عكر ..

— لماذا تقولين عنه ذلك يا خالتى ؟

— إنه ابنى يا مى .. وليس هناك من يحبه فى هذه الدنيا .. كما أحبه .. ولكنه لن يكون أبدا زوجا صالحا لك .. بل لن يكون زوجا أبدا .. إنه نفور من الناس ..

— إنكم تظلمونه جميعا .. إنه يحمل هموم جيله الضائع .. جيله اللاجئ .. يا خالتى ..

— ولكنه يعيش حياة مستقرة .. ولقد استطاع أبوه أن يستعيد مركزه من جديد .. وأن يكتسب ثقة التجار والناس .. ومتجره يسير من حسن إلى أحسن .

— ليس مركز أبيه وتجارته هى التى تشغله .. ولكن مركز بلده ومصيبة وطنه هى التى تملأ ذهنه ..

— وهل يمكن أن يقيم لك بيتا ويكون لك أسرة .. بهذا الضياع الذى هو فيه .. بل قبل كل هذا .. هل يريد هو الزواج .. وهل يحبك ؟

سؤال جديد يقفز إليك يا مى .

لم تحاولى من قبل أن تضعيه موضع النقاش ؟..

هل تحبينه يا مى ؟!!

لم يصعب عليك الرد على هذا السؤال .. فقد كان الرد عليه أكثر من أجل .

ولكن هل يحبك ؟!!
كيف تكون الإجابة ..
هل يدرى أحد ؟..
حتى هو نفسه .. لا يستطيع أن يجيب ..
إنه قد لا يعرف .. ما هو الحب .. إنه يأخذ كل ما حوله ومن حوله .. قضية مسلم بها .
هل يريد الزواج ..؟
قطعا لا ..
إنه لا يريد .. أى شىء .. وأبعد ما يمكن أن يكون عن ذهنه .. مسألة الزواج ..
ونظرت إليها خالتها تنتظر الإجابة ..
وردت مى وهى تهز رأسها فى حيرة :
ـــ لست أعرف عنه أكثر مما تعرفين يا خالتى .
وأطلقت الخالة زفرة حارة من صدرها .. وعادت تضم مى إليها وقالت فى حنان :
ـــ أنت ابنتى يا مى .. وعمار ابنى .. ولا أكتمك القول إنى أحسست بالسعادة وأنا أستمع إلى حديث أميرة عن إعجاب الدكتور كمال بك .. ورغبته فى الزواج منك .. فأنا أحس له أحساسا طيبا . وإحساسى للناس لا يخطىء .. وعندما أزنه بكل الموازين أجد كفته ترجح .. إنه كريم وطيب وناجح .. ويستطيع أن يهيىء لك الحياة الطيبة الآمنة .. ويصعب على أن أصده عنك .. وأن أحرمك من فرصة لا يمنحنا القدر إياها كثيرا ..
وصمتت الخالة برهة ثم أردفت تقول :
ـــ وأنا أحب عمارا .. أحبه أكثر مما قد تحبينه .. ولكنى أعرف ما يصلح له وما لا يصلح .. وأنا أعرف جيدا .. العناصر الطيبة المميزة للزوج المريح الصالح

ولا أشعر أنه يمكن أن يكون زوجا مريحا مستقرا .. وأكره أن أضيع منك فرصة العمر .. من أجل وهم .. إن تحقق .. فلن يمنحك ما تتوهمين فيه من سعادة ..

ولم تجب مى .. وبدا عليها الشرود .

وحاولت الخالة أن تستعيدها من شرودها بتساؤلها :

— ما رأيك يا مى ؟

— إنى أصدقك يا خالتى فى كل ما تقولين .. ولكن المشكلة أننا لا نملك أن نقيس الأشياء بمقاييس واحدة .. قد تكون مقاييسك أصدق .. ولكنها بالقطع ليست مقاييسى .. إنى أرى الأمور بطريقة أخرى .. ولا أستطيع أن أحكم عليها إلا بطريقتى ..

— أنت تصرين على رفض كمال إذن ؟

— لست أرفض كمالا .. بالذات .. ولكنى لا أطيق التفكير فى أى إنسان كزوج .

— إلى متى ؟!!

— كيف أعلم .. إنى سعيدة معكم يا خالتى .

— أدام الله سعادتك يا حبيبتى .. وهيأ لك كل ما فيه الخير .

— لست أريد شيئا .. خيرا من أن أكون بينكم .

— وفقك الله يا مى .. وهدى عمارا لكى يكون أهلا لك .

— إنه أهل لمن هو خير منى يا خالتى .

— أبدا .. إننى لا أجد فى الدنيا .. من هو أصلح منك ..

ويكون الله قد رضى عنه .. لو هداه إلى رفقتك فى الحياة .. إنى سأضاعف دعواتى له .. من أجلك .. من أجل أن يكون هدية تستحقك .

وضمتها إليها فى حرارة ولم تستطع أن تمنع عينيها من أن تنديا بعبرات ملؤها الحب والحنان .

وفى المساء عندما أوت الخالة إلى مضجعها ، أسرت إلى الشيخ عبد السلام

بما حدث .

وتمتم الرجل فى كلمات مبهمة :

— إنه لا يستحقها ..

ثم عاد وأردف وهو يغمض عينيه :

— مع ذلك لا خوف عليها .. فهو أبعد ما يكون تفكيرا فى الزواج .

وفى اليوم التالى قبل صلاة الجمعة .. والسوق مزدحم بالناس وصوت القرآن يعلو من المساجد .. كان الشيخ عبد السلام على وشك أن يغلق المحل من أجل الصلاة ، وبدا يحيى مقبلا على الدكان وقد ارتدى ملابس التدريب الكاكية ..

وبعد أن حيا عمارا لقيه الشيخ عبد السلام فى مودة قائلا :

— يحيى كيف حالك .. مضت مدة لم نرك .

— كنت أتدرب فى معسكرات التدريب .

— وماذا فعلت بعملك ؟

— أخذت إجازة .

— وماذا تفعلون فى المعسكر ؟

— نتدرب على استعمال الأسلحة .. وعلى حرب العصابات .

وتنهد الشيخ عبد السلام وهو يقلب البصر بين ابنه ويحيى .. والناس يحتشدون فى السوق .

وعاد يتساءل :

— هل بدأتم العمل ؟

— إلى حد ما ..

وتمتم الشيخ عبد السلام قائلا :

— رعاكم الله .. كان يجب أن يبدأ هذا منذ مدة .. دائما كنت أشعر أن معسكرات التدريب خير لنا من معسكرات اللاجئين ..

وصمت برهة ثم وجه الحديث إلى ابنه قائلا :

ـــ هيا بنا إلى المسجد .. لقد أوشك أن يؤذن للصلاة .

وبدا التردد على عمار فسأله أبوه :

ـــ ألا تنوى الصلاة ؟

وجذبه يحيى من ذراعه قائلا :

ـــ هيا يا عمار ..

وتقدمهما الشيخ عبد السلام .

وسار يحيى يتأبط ذراع عمار وسأله ضاحكا :

ـــ ألا تريد أن تصلى ؟

وقال عمار فى سخرية :

ـــ ولم لا .. هل كل ما أفعله فى حياتى مفيد ؟

ـــ أتعتبر الصلاة ضمن الأشياء غير المفيدة التى تفعلها فى حياتك ؟

ـــ المفروض أن تكون الصلاة وسيلة للجوء إلى الله .. ودعوته .. واستغفاره .. ولكنى أحس أن الصلة بينى وبين الله قد انقطعت .. وأنه ليس ثمة ما يربط بينى وبينه .

ـــ لماذا تقول هذا ؟

ـــ هل تصدق أن الله موجود ؟

ـــ طبعا ..

ـــ وأنه يرعانا ؟..

ـــ هل تشك فى هذا .

ـــ برغم كل ما حدث لنا ؟

ـــ لماذا تريد أن تحمل الله مسئولية ما حدث لنا ؟.

ـــ من المسئول عنه ؟

ـــ نحن .

ـــ مسئولون .. عن تشريد أنفسنا .. وسرقة بيوتنا .

— بل مسئولون عن عجزنا .. واستسلامنا .

— وماذا نستطيع أن نفعل ؟

— نفعل ما بدأنا فعلا صنعه .. لماذا لا تجئ معى حتى تقتنع .. إن أباك كما رأيت قد اغتبط بما نقوم به .. ولن يمانع فى ذهابك .

وهز عمار رأسه فى تشكك وقال متبرما :

— لست أرى فى كل ما حولى شيئا يقنعنى بأننا نسير نحو هدف واضح نحاول أن نحققه .. بل لست أرى حتى أننا مجمعون على هدف .

وكان الاثنان قد اقتربا من المسجد . والناس قد اكتظوا خارجه .. ما بين راكع وساجد .. وجالس فى خشوع ينصت إلى تلاوة القرآن .. وأذن للصلاة فاستقام الناس فى الصفوف وعلا صوت الإمام (الله أكبر) .

وجلس عمار ينصت إلى خطبة الجمعة شاردا ..

كلام .. كلام .

لقد بات يكره حركة لسانه فى شفتيه .. من فرط ما ضاق بالكلام .. الذى لا معنى له .. ولا فائدة منه .

وارتفع صوت الخطيب .. فى لهجة منغمة .

« الله أكبر كبيرا والحمد لله بكرة وأصيلا » .

لماذا ..

على كل ما نحن فيه .. نحمده كثيرا .

وانتهت الصلاة .

ونهض عمار ويحيى من بين المصلين وسارا متجهين إلى الساحة أسفل الربوة .. وقال يحيى ضاحكا :

— إنى أمنحك شرف دعوتى إلى الغداء ..

وابتسم عمار ابتسامة خفيفة ساخرة وأجاب :

— تتكلم بغرور من دحر العدو .. وعاد إلى الوطن . (ابتسامة على شفتيه)

— أنا فى الطريق .

— بماذا ؟

— برصاصتى .

— ماذا ستفعل رصاصتك وسط القذائف والقنابل .

— بإلحاحها .. ستفعل الكثير .

— رصاصتك تزيد الوش فى أذنى .. أنا حائر يا يحيى .. أشعر بالضباب من حولى .. ولا أكاد أعرف طريقا لخطاى .. ليس فى ذهنى سوى الصورة القديمة القاتمة .. وبعدها العجز واليأس .. وأصوات مختلطة متنافرة .. أشبه بصراخات المجانين ..

— تعال نأكل ونتحدث .

— هيا نأكل .. الشىء الوحيد الذى أفعله فى حياتى ذو جدوى .. هو الأكل والنوم .

— وأين سنأكل ؟.

— أوفر مكان هو البيت .

— ألن نضايق أحدا ؟

— ستتظاهر أمى بالمضايقة .. لأن الأكل ليس كما يجب .. ولكنها ستطعمنا جيدا .. إن هوايتها إطعام الناس .

— ولكنى أخجل من الأكل معهم .

— سنأكل وحدنا .. سأعد منضدة فى الحديقة تحت شجرة الليمون .. ما رأيك ؟.

— فكرة رائعة ..

— هيا بنا .

وفى الحديقة الصغيرة تحت شجرة الليمون جلس الصديقان يتناولان الغداء . فرحت بهما الأم .. ونادت على مى لكى تعاونها فى إعداد الطعام للولدين ..

وأخذت مى تمارس المهمة فى جزل وانشراح فقد بدا عمار أحسن حالا .. وكان شبح ابتسامة يلوح على شفتيه بين آونة وأخرى .

كانت تعرف أن صحبة يحيى خير ما يبعث الهدوء إلى نفسه وكانت تأنس له لأن عمارا يحبه ويثق فيه .

وأقبلت مى بإحدى الصحاف لتضعها على المائدة .. ويبدو أن يحيى قد أطلق نكتة فقد لمحت عمارا يبتسم ..

ونظرت إلى يحيى قائلة :

ـــ يبدو أنى سأستأجرك .

ـــ تحت أمرك بغير أجر .. ماذا أستطيع أن أؤديه .

ـــ إنى أرسم صورة .

ـــ ترى هل أنا وسيم إلى حد أن أستأجر كموديل ؟

ـــ ليس بالضبط .

ـــ ماذا إذن أستطيع أن أفعل فى الصورة ؟

ـــ تجلس أمام عمار لتضحكه .

ـــ ما شاء الله .. صرت أراجوز لعمار .. أية صورة هذه التى ترسمينها ..

وهتف عمار بمى زاجرا :

ـــ ألم أقل لك دعك من هذا العبث .. وافعلى شيئا يفيدك .

وقال يحيى ضاحكا :

ـــ دعها ترسمك .. فقد تستشهد غدا .. وتصبح للصورة قيمة ..

وردت مى :

ـــ بعد الشر عنه ..

وعاد يحيى إلى مزاحه قائلا :

ـــ أى شر يا مى .. إنها فخر لا يتطاول إليه .. الشيء الوحيد الذى يمكن أن يخلده .

وغادرت مى المكان .

انتهى الصديقان من تناول الطعام .. وجلسا فى استرخاء تحت شجرة الليمون .

وقال يحيى وهو يعبث بأحد فروع الشجرة .

— بدأنا الجد يا عمار .

— كيف ؟.

— تسللنا عبر الحدود .. وهاجمنا الدوريات الإسرائيلية .. وبدأنا المناوشات مع المستعمرات.لقد خرجت فى بعض هذه العمليات .. وقتلت فى إحداها جنديا إسرائيليا .

والتفت إليه عمار مشدوها وسأله فى حدة :

— أتقول حقا ؟

— أجل ..

— وماذا كان شعورك ؟

— لم يكن هناك شعور معين .. خرجت الطلقة من البندقية .. وأحسست بضربة الدبشك فى كتفي .. ثم سمعت صرخته .. وأبصرته يسقط .. وبالليل لم أستطع النوم .. وحاولت أن أذكر نفسى بالآلاف الذين قتلوهم منا .. وقبيل الفجر .. غلبنى النوم . فلم أستيقظ إلا فى الضحى .

وقال عمار وكأنه يحدث نفسه :

— مريح .. أن يقتل المرء أحدهم .. فما زلت أشعر بلزوجة دم أخى وخالتى الذى جرى على الأرض التى كنت أرقد فوقها .. ولكن هل يحل موت أحدهم القضية .. هل يعيد إلينا وطننا .. إنها أعقد من ذلك يا يحيى .

— لست أفهمك .

— نحن نقتل واحدا .. وهم يقتلون عشرة .. إنهم قادرون بالسلاح .. هل تعلم أنهم بدأوا يهددون بالهجوم على سوريا .. والأردن .. لضرب قواعد

الفدائيين .

— دعهم يفعلوا .

— والنتيجة .

— سترد الصاع صاعين .

— من الذى سيرد ؟

— الجيوش العربية .

— أى جيوش .. هل تعتقد أن لدينا جيوشا جاهزة قادرة على مجابهة الجيش الإسرائيلى ؟

— أجل ..

— أين هى ؟.. لقد قال عبد الناصر أن ليس لديه خطة جاهزة لاستعادة فلسطين .. وأنه لن يقبل الدخول فى حرب .. قبل أن يأخذ لها عدتها .. ويحاول بعض الحكام العرب دفعه إلى الحرب قبل أن يستعد لها .. وبعض الإذاعات العربية تهاجمه لأنه يترك إسرائيل تمر فى شرم الشيخ .. وأنه يقف مستترا وراء قوات الأمم المتحدة .

— ولماذا لا نوحد صفوفنا .. ونجمع قواتنا فى مواجهة إسرائيل .

— المشكلة .. هى كيف نوحد صفوفنا .. إن هناك خلافا جذريا فى الصفوف .. بين القوى التقدمية والثورية .. وبين القوى التقليدية والرجعية .. ولكى نواجه إسرائيل — يجب كما قلت أن نوحد صفوفنا .. ولكى نوحد صفوفنا .. يجب أن نصفى المعركة بين القوتين ، حتى يمكن مجابهة إسرائيل قوة واحدة .. والمسألة الآن .. فيما يبدو .. هى تأجيل المواجهة مع إسرائيل .. حتى تصفى المعركة الداخلية وتوحد الصفوف .

— وهل تظن أن تصفية المعارك الداخلية أمر سهل .. وهل ستنتظر إسرائيل حتى توحد الصفوف ..

— تلك هى المشكلة ..

— أحد منا لا بد أن يتعجل المعركة .. فلعل ضربة إسرائيل توحد صفوفنا .

— أو تقضي علينا ..

— على أية حال يا عمار .. نحن لا نستطيع أن ننتظر حتى يوحد العرب صفوفهم .. إن علينا أن نفعل شيئا .. علينا أن نمسك السلاح ونضرب .. هذا هو حقنا الطبيعي .. هذا هو طريقنا الوحيد .. وهو طريق لا بديل له .. نحن لا نستطيع أن نجابه القوة .. إلا بالقوة .. لا يمكن لنا أن نجلس لنستجدى وطننا وأرضنا .

.. لن نكون مواطنين شرفاء .. إذا ظللنا نعيش على حسنة وكالة الغوث .. لقد فقدنا كل ما نملك .. ولم يعد لدينا ما نخشى عليه .. ليتوحد العرب .. أو يتفرقوا .. إن واجبنا هو أن نمسك السلاح ونضرب .. حتى نموت .. أليس ذلك حق وطننا علينا .

وتمتم عمار فى أسى :

— وحق الذين بقرت بطونهم .. وتقوست ظهورهم وهم يسبحون فى بركة من دمائهم اللزجة الساخنة .

٥

البندقية والقضية

أوى عمار إلى مضجعه .. وبنفسه لهفة على بندقية يحملها على كتفه ورصاصة يطلقها ليسمع من بعيد صرخة .. تريح ذهنه المكدود ..

قتل واحد .. لن يحل القضية .

ولكنه على الأقل سيمنحه إحساسا بالراحة والأمل .. لم يعد قومه .. يمثلون وحدهم .. دور القتلى .. ولكن بعضهم يستطيع أن يقتل ..

ولم يعد العدو .. يقف وحده .. فى موقف الجبار .. ليحتكر .. أدوار .. القتلة .

إن بعضا منه .. يمكن أن .. يصرخ ويسقط .. ويتلوى على الأرض .. ويموت .

فكرة مريحة ..

وقبل أن يقفل عينيه سمع صوت أمه يهتف به :

ـــ عمار .

ـــ نعم .

ونهض من فراشه ليجد أمه تقبل عليه متسائلة :

ـــ أنمت يا عمار ؟

ـــ ليس بعد .

ـــ كنت أريد أن أحدثك .

ـــ خير .

وجلست الأم على طرف الفراش ووضعت يدها على كتفه برفق وأردفت قائلة :

ـــ كنت أريد أن أحدثك فى أمر يقلقنى .

— يقلقك أنت ؟

— أجل ..

— هل لى به دخل ؟

— إنه أمرك أنت يا عمار .

ومرت فترة صمت .. وأنصت خلالها عمار فى غير اكتراث لعله يسمع شيئا عن هذا الأمر الذى يقلق أمه والذى جاءت تسر به إليه والليل قد أوشك على الانتصاف .

وخيل إليه أن الأمر لا يعدو شكوى من أبيه ، فقال محاولا أن ينهى الموضوع :

— هل أشتكى أبى من شىء ؟

وهزت أمه رأسها تنفى ظنونه ثم أردفت مؤكدة :

— إنه أمر لا يعرف أبوك عنه شيئا .

— قولى إذن وخلصينى .

— كنت أريد .. أن أفرح بك .

وتساءل عمار فى دهشة وسخرية :

— تفرحين بى .. كيف .

— إنى أريد أن أزوجك بنت الحلال .

— ما هذا الذى تقولينه ؟ أهذا هو الأمر الذى يقلقك .. والذى لا تستطيعين الانتظار عليه حتى الصباح .. أرجوك يا أمى .. اذهبى واستريحى .

— اصبر علىّ يا عمار .. أنت لم تعد صغيرا .. وأنا قد كبرت .. وإذا عشت اليوم .. فلن أعيش غدا .. كم تمنيت أن أرى لك زوجة ترعاك وأولادا يحيطون بك .

وشرد ذهن عمار برهة ..

زوجة .. وأولاد ..

ومزيد من المشردين .. واللاجئين .. والضائعين فى الأرض .
لماذا ؟!!
ورفع عينيه إلى وجه أمه الطيب ثم تنهد قائلا :
— اذهبى يا أماه ونامى .. لا داعى لهذا الكلام الذى لا فائدة منه ..
ولم يبد على أمه أنها تنصت إليه بل كانت تسبح فى أمانيها الجميلة .. زوجة عمار .. وأولاده يملأون البيت .
وفجأة سألته ببساطة :
— ما رأيك فى مى ؟
وسألها فى دهشة :
— مى ؟
— أجل ..
— وما المناسبة ؟
— إنى لا أجد خيرا منها ..
وعاد عمار يتساءل فى غيظ :
— خيرا منها فى ماذا ؟
— فى الموضوع الذى نتحدث عنه .
ورد عمار فى لهجة متبرمة :
— أرجوك يا أماه .. ابحثى لك عن شيء آخر يشغلك عن هذه المسألة السخيفة .
ولم تأبه الأم لقوله وعادت تقول ملحة :
— والله لا أجد على ظهر الأرض من تصلح أن تكون زوجة لك خيرا منها .
— قلت لك إنى لا أفكر أبدا فى الزواج .. فاذهبى ونامى واستريحى .. ودعى الفتاة وشأنها .
— ولكنها أيضا لا بد أن تتزوج .

— من قال لك .. هل شكت إليك .. لماذا تشغلي نفسك بزواج الناس .

— لقد تقدم إليها من يريد أن يخطبها .

ورفع عمار رأسه متسائلا فى شيء من الدهشة :

— يخطب مي .

— أجل ..

— من هو ؟

— الدكتور كمال .

وازدادت دهشة عمار وتساءل :

— الدكتور كمال خطبها ؟.. متى ؟

— اليوم .

— وماذا قلت له ؟

— لم أقل له شيئا .. لأنه لم يتقدم إلىّ أنا .

— إذن كيف عرفت .

— من أخته .

— وماذا قالت له مي ؟

— قالت إنها لا تفكر فى الزواج .

وصمت عمار برهة ثم تمتم قائلا كأنما يحدث نفسه :

— عاقلة ..

ونظرت إليه الأم فى دهشة وقالت مستنكرة :

— ما هذا الذى تقوله ؟.

— أقول إنها عاقلة .. لأنها لا تفكر فى الزواج .

وعادت الأم تحدق فيه .. كأنه حيوان غريب وقالت له فى غيظ :

— لقد قالت لأميرة هكذا .. حتى تصدها .

— .. أيضا عاقلة ..

واستطردت الأم تقول :

— وأرادت أن تصدها .. لأنها تريد مخلوقا آخر ..

ثم صمتت برهة وأردفت وهى تتنهد :

— تريدك أنت .

والتفت عمار إليها وقد فغر فاه وهتف :

— أنا ؟.. هى قالت لك هذا ؟

— أجل ..

— مجنونة ولا شك !!

— مجنونة لأنها تحبك وتريد أن تتزوجك .

— مجنونة لأنها تقول ذلك .

— هى لم تقل يا غبى .. وإنما أحسست به منها .

وهز عمار رأسه فى ملل وقال محاولا إنهاء المناقشة .

— اسمعى يا أماه .. اذهبى ونامى واستريحى .. ولا تشغلى فكرك بمثل هذه الأمور السخيفة .. إن الزواج آخر شىء يخطر لى ببال .. ولست أظننى أصلح لأن أكون زوجا .. ولا رب أسرة .. ولا أب أولاد .

وتمتمت الأم قائلة :

— لقد قلت لى هذا .. فلم تقتنع ..

واستطرد عمار يتمتم كأنما يحدث نفسه :

— نحن شعب ضائع .. ممزق .. مشرد .. شعب بلا وطن ولا أرض .. إذا كنا لا نجد مكانا على الأرض .. فهل سنجد لأولادنا مكانا ؟ ماذا يمكن أن نمنحهم ؟.. الضياع ؟؟؟

ولم يبد على الأم أنها كانت تنصت إليه .. كانت مى ملء تفكيرها .. إذا كان هذا المخلوق الغريب .. الذى يبدو دائما كالحيوان النفور الشارد .. يأبى أن ينتظم فى العقد الإنسانى الطبيعى .. عقد الأسرة .. وإذا كان يرى فى الزواج

سخافة وفى الحب جنونا .. فما ذنب المسكينة تربط نفسها به وتشد نفسها إليه .. إلى الشرود والنفور والضياع .

وقالت الأم تجيب على أفكارها أكثر مما تجيب على حديث ابنها :

— خير لها أن تضع عقلها فى رأسها .. لقد قلت لها إن هذا الولد لا ينفع زوجا لأحد .. وأن كال .. إنسان طيب وكريم .. وإنه خير من يشاركها الحياة .. ويهيىء لها الأسرة والأولاد .. ولكنها لم تقتنع .. لأنها ترى فيك خير الناس ..

وصمتت برهة تتأمل ابنها ثم أردفت وهى تتنهد قائلة :

— مغفلة !!

ولم يستطع عمار أن يمنع شبح ابتسامة تلوح على شفتيه .. وقال مؤكدا :

— بالضبط .

— سأحاول إقناعها مرة أخرى .

ومد عمار ذراعيه فأحاط أمه برفق وقال لها فى هدوء كأنما يحدث طفلة عنيدة :

— لماذا تشغلين نفسك بكل هذا .. لماذا لا تدعين الناس يفكرون لأنفسهم .. يتزوجون .. أو لا يتزوجون .. هذا شأنهم .. نحن لم نعد صغارا يا أماه ؟

وضمته إليها فى حنان وتمتمت قائلة وهى تغادر الغرفة :

— ستظلون فى نظرى صغارا — وسأظل أشغل نفسى بكم حتى أموت ..

وتركت الأم الغرفة ، وعاد عمار يسترخى فى فراشه .. ومرت مى برأسه مرور الطيف ..

وساءل نفسه فى استخفاف :

لماذا تحبه .. هذه الحمقاء ..

إنه يحاول دائما أن يكون صارما معها ..

وهى أيضا كانت معه جادة .. كان تصرفها معه دائما .. عاقلا فى حدود

العلاقة الطبيعية التي تضمهما .. كأخوات .. .

إن رقتها معه .. رقة طبيعية ..

وحتى هذه الرقة كان يرفضها منها .

لم تبد معه أبدا أى تصرف أحمق مما يمكن أن يفعله أولئك الذين يحبون ..

ومع ذلك يبدو أنها تخفى فى صدرها أشياء حمقاء .. أو لعل هذه الأشياء من تصورات أمه .. لكى تضم كليهما .. فى التبات والنبات .. ليتجبا لها .. صبيانا وبنات .. ويحققا ما فى نفسها من أمانى الأمهات .

ونفض عن رأسه الخواطر السخيفة .. واستسلم للنوم .

وأصبح الصباح .. ليعاود عمار سيرته فى الحياة .. وسط ضباب اليأس الذى يلف نفسه .. ويعتم قلبه .

ووسط طريق الضباب .. كانت تلوح له بارقة تبدو كسنا البرق .. فى انطلاقة رصاصة .. أو انفجار قذيفة .

وعاد من الحانوت يوما قبل الغروب ليجد أخاه خالد .. يقبل عليه من الشرفة باكيا .. وهو يقول :

ـــ مى عاقبتنى اليوم .

ـــ كيف ؟

ـــ أوقفتنى ووجهى للحائط طوال الدرس .

ـــ لا بد أنك فعلت شيئا سخيفا .

ـــ قالت لى ارسم شجرة زيتون فرسمت بندقية .

ـــ ولماذا لم ترسم شجرة الزيتون كما قالت لك ؟..

ـــ لأنى أستطيع أن أرسم البندقية جيدا ..

ـــ ولكن لا بد أن تتعلم أن ترسم أى شىء يكلفونك به .

ـــ وهل تستطيع أن ترسم شجرة الزيتون ؟

ـــ أجل أستطيع .

ـــ وهل تستطيع أن ترسم بندقية ؟
ـــ أجل .
ـــ وهل تستطيع أن تضرب بالبندقية ؟

ولم يعرف عمار إلى أين يريد الصغير أن يقوده . ولكنه لم يملك إلا أن يجيب قائلا :

ـــ أستطيع أن أتعلم ..

ـــ ولماذا لا تتعلم ؟.. إن يحيى قد تعلم ضرب البندقية .. وقد سمعته يقول لك إنه يضرب اليهود ..

واقترب الصغير منه ثم أردف هامسا :

ـــ اسمع يا عمار .. أحضر بندقيتين .. واحدة لى وواحدة لك .. ودعنا نذهب ونضرب اليهود مع يحيى .. ونستعيد بيتنا الذى أخذوه .. وأرضنا التى سرقوها .. والتى لا تفتأ أمي تتحدث عنها كل ساعة ..

وأشار خالد بأصبعه تجاه الشمس التى مالت للمغيب وعاد يقول :

ـــ تقول إنها هناك .. وراء الأسلاك .. بها زيتون .. وبرتقال .. لماذا لا نذهب ببندقيتين نضربهم ونستعيدها ؟.

بندقية .. أو بندقيتان .. نضربهم .. ونستعيد الأرض .

هذا هو تفكير الصبى يا عمار .

وبمثل هذا لا يجب أن يفكر الكبار ..

إنها مسألة أعقد من طلقة بندقية ..

مسألة حشد هائل وتخطيط شامل .. لطاقة الملايين الذين يقطنون الأرض الممتدة ما بين الخليج والمحيط .. والتى غرست إسرائيل فى قلبها .. تمزقها .. وتشلها .. وتستنزف قواها ..

ولكن الحشد أمنية .. والتخطيط حلم من أحلام الدجى .. والبندقية .. هى الشيء الوحيد .. الذى يمكن أن تطبق عليه الكف .. فتخرج منه الرصاصة ..

لتصيب من العدو مقتلا .. قد لا تعيد الأرض .. كما يتصور الصغير .
ولكنها .. تضع الفلسطيني حيث يجب أن يكون ..
مواطن .. يحارب من أجل أرضه .
وليس لاجئا .. يستجدى حسنة ..
تضعه فى موضعه .. ولو جسدا مسجى ..
أنت تعرف هذا يا عمار .. فلا تنكره ..
لا تتهرب من الواقع .. وراء أمل سرابى .. وأمنية .. الله وحده أعلم .. بمن تتحقق .. وكيف تتحقق ..
لقد قال لك يحيى .. ما قاله خالد .
فأمسك البندقية .. وأطلقها ..
وقبل أن يخطو إلى الداخل .. لمح شبحا يقبل نحو البيت .
كان يبدو كيحيى .. ولكنه ثقيل الخطى .. وئيد السير .. وخطى يحيى كانت وثبات .. وسيره عدوا .
وانتظر حتى أقبل ..
فإذا به يحيى نفسه .
كان معفر الوجه .. ممزق الثياب .. شدت يده إلى عنقه برباط .. بدت به بقع حمراء .
واندفع إليه عمار فى لهفة هاتفا :
— يحيى .. ما بك ؟
وحاول يحيى أن يرسم ابتسامة على شفتيه .. وقال مازحا :
— أبدا .. أخذنا علقة طيبة ..
والتقط أنفاسه وهو يصعد الدرج قائلا :
— وقلت لنفسى .. آتى إليك .. أغتسل وأبدل ثيابى فقد كرهت أن أعود هكذا حتى لا أزعج أمى ..

ووثب خالد أمام يحيى صائحا :

— كنت أقول لعمار أن يحضر لنا بندقيتين .. لنذهب معك .. ونضرب اليهود .. ونستعيد بيتنا .

وأطلق يحيى ضحكة قصيرة ساخرة من أنفه وقال :

— بندقيتان ..

وتحسس رأس الصغير بكفه وأردف يقول :

— سأعطيك عشرا يا خالد .. وأرنى شطارتك .

وساق عمار يحيى إلى حجرته وأغلق الباب .

وارتمى يحيى على الفراش مكدودا ..

وساد الصمت برهة ..

وتساءل عمار فى صوت خافت :

— ماذا حدث يا يحيى ؟

ولم يجب يحيى ..

كان يتكئ بمرفقيه على ركبتيه .. ويدفن وجهه فى كفيه .. ورفع رأسه فإذا بعينيه حمرة الدموع ..

وعاد عمار يقول فى إلحاح :

— ماذا حدث ؟

وازدرد يحيى ريقه وابتلع معه عبرات تساقطت إلى الداخل .

وعاد عمار يتساءل فى دهشة واستنكار :

— أتبكى يا يحيى ؟

— أبكى من العجز يا عمار .. ضربونا .. كقطيع من الأغنام ..

— أين ؟

— فى الصلت .. وفى كل القرى المحيطة .. ضرب الناس العزل .. الشيوخ والنساء والأطفال .. معركة غير متكافئة .. بين فلاحين .. لا يملكون غير

الفئوس .. وبين قوات اليهود المسلحة .. دبابات ومدافع .. وقذائف طائرات .. لم يكن بيننا مسلحون سوى مجموعة الفدائيين بالبنادق .. وقنابل اليد .. وبضع هاونات .. أخذ الناس بذنبنا .. إن كان ما نفعل ذنبا .. وقتلوا .. لأنهم آوونا .. وحاولنا أن ندافع عنهم .. ولكننا بدونا هزيلين أمام سيل الدبابات والمدافع والطائرات .. ولم نملك إلا أن نلقى أنفسنا بينهم .. نفعل كل ما نستطيع بطلقاتنا وقنابلنا .. ومات معظمنا .. مع من مات من أهالى البلدة ..

وصمت يحيى .. وعاد الاحمرار إلى عينيه .. وعاد إلى ازدراد ريقه .. وأردف بصوت مختنق :

— كم تمنيت أن أموت يا عمار .. ولكن حتى الموت يستعصى علينا إذا أصبح أمنية ..

وربت عمار كتف يحيى وهتف به :

— ماذا أصابك يا يحيى .. ظننتك أقوى من هذا ؟.

وهز يحيى رأسه وأجاب فى مرارة :

— العجز مرير يا عمار .. لقد ذكرتك فى وسط المعركة .. إذا جاز أن تسميها معركة .. وآمنت بقولك إن طلقة لا تحل المشكلة يجب أن يكون هناك تخطيط شامل للمعركة .. ليس من حقنا .. أن نضرب .. وأن نموت .. ونترك الناس عزلا فى القرى .. ليتلقوا عنا ضربة الجزاء .. ويموتوا كالنعاج .. لماذا لم ننشئ مستعمرات محصنة ونزودهم فيها بالسلاح .. كما يفعل اليهود ؟.

وعاد عمار يربت ظهر يحيى .

— لا تكتئب يا يحيى .. لا بد لنا من التجارب .. إذا كانت التجربة قد علمتك الإيمان بقولى .. فقد علمتنى أنا الإيمان بقولك .. يجب على كل منا أن يمسك بندقيته .. وكل شيء سيأتى بعد ذلك .. إن طريقنا لا تحدده الأمانى فى الهواء أو الخطب على الورق .. وإنما تحدده الدماء فى الأحراش .. والجثث فوق

(ابتسامة على شفتيه)

رمال الصحارى ..

وأمسك بذراعه يجذبه نحو الحمام قائلا :

— قم واغتسل .. وسنأكل لقمة معا .. ثم تذهب إلى داركم ..

وأجاب يحيى وهو يسير فى خطى متثاقلة :

— لا بد أن أعود ..

— استرح ليلتك وسأعود معك غدا .

وتوقف يحيى واستدار إليه قائلا فى مرارة :

— ليس الآن يا عمار .

— لماذا ؟

— سآخذك عندما يندمل جرحنا .

— إنه جرحى أنا يا يحيى .. كان يجب أن أذهب معك من قبل .. كان يجب أن أكون أحد الذين استشهدوا .. أو أحد الذين جرحوا .. لماذا تعتبر الموت أمنيتك وحدك ؟!!

وقبيل الفجر .. استيقظ عمار بعد نوم متقطع ملىء بأحلام مختلطة متناقضة .

حفل عرس .. وزغاريد .. وموسيقى ..

وهو يسأل الناس عرس من هذا ؟..

وأمه تهتف به .. أسرع يا عمار .. الناس كلهم ينتظرونك .. والمأذون قد حضر ..

ومى تلبس الطرحة .. وهو حافى القدمين .. وأصوات بنادق تطلق الرصاص فى الهواء ..

وانفجارات .. شديدة ..

وجو عاصف ملىء بالغبار ..

والناس تتساقط من حوله كالخراف ..

وهو يبحث عن بندقية ..

أين البندقية ..؟!
وصوت يحيى يهتف به .. الحقنى يا عمار .. ودوى ودماء .. وزغاريد .. أشبه بالصراخ .
ومى تهتف به .. وأحد اليهود يجذبها من شعرها .
وأنقذه ضوء الفجر والأذان ..
عندما يستيقظ أبوه سيذهب إليه ويخبره أنه قرر الرحيل مع يحيى ..
لن يعترض أبوه على ذهابه .. فهو قد أبدى من قبل رضاه عن الذين يحملون السلاح .. وهو سيصبح واحدا منهم .. سيمسك البندقية .. ويطلق الرصاص .. سيقتل .. حتى يستشهد ..
تحل المشكلة أو لا تحل .. يعود الوطن أو لا يعود .. هذه مسألة تأتى بعد ذلك ..
هو لا يستطيع .. أن يخطط لها .. ولا يستطيع كذلك أن ينتظر الذين يخططون حتى ينتهوا من تخطيطهم .
كل ما يملكه .. هو أن يمسك البندقية ويضرب حتى يموت ..
وفى صوت طلقته إنذار للعدو .. بأنه موجود .. بأنه فلسطينى .. يحيا ... ويصر على أن يعود .. وأنه سيظل يضرب رصاصته .. حتى يعود .. أو يموت ..
وفى دمائه التى تسيل .. ضوء كاشف للذين يتاجرون بالكلمات .. للقواد أصحاب السيوف الخشبية .. الذين يلقون باليهود فى البحر كل يوم بألسنتهم .
وفى تكبيرة استشهاده فى الأدغال أو فوق الرمال .. دقات أجراس الخطر لأولئك الذين يظنون أنفسهم وأرضهم وأموالهم بمنجاة من الخطر .. خطر الصهيونية التى تحلم .. بالإمبراطورية الكبرى من النيل إلى الفرات ..
لن تحل بندقيته القضية .
ولكن طلقتها لن تضيع سدى ..
إنها بالتأكيد .. ستحدد معالم الطريق ..

سترسمه .. بثمن فادح .. من الدماء العربية الزكية ..

ستخططه .. بأجساد الشهداء ..

لن تحل القضية .. ولن تعيد الوطن السليب .. ولكنها قطعا .. ستزيل هذا الغيم .. والضباب ..

ستجسد شعبا .. ضاعت معالمه ..

ستعيد إليه قدره .. كشعب يناضل من أجل وجوده .. وبقائه وعودته إلى وطنه .. وستطلق سراحه من قضبان معسكرات اللاجئين ..

أجل يا عمار .

رغم كل يقينك بأنك لن تحل القضية .. ورغم كل أحلامك .. بحشد هائل .. وتخطيط شامل .. يضع الأمة العربية فى مواجهة إسرائيل .. لتبتلعها فى يسر ..

رغم كل هذا .. ستذهب مع يحيى وتحمل البندقية .. لتقتل مرة .. وتدمر أخرى .. وتهرب مرة .. وتموت أخرى ..

بعد أن يؤدى أبوك صلاة الفجر ..

ستذهب إليه لتخبره أنك ذاهب ..

سيدهش بالطبع ليقظتك المبكرة ..

وسيدهش أكثر عندما يعلم أنك ذاهب لتحمل البندقية ..

قد لا يرحب بذلك كثيرا .. ولكنه قطعا لن يمنعك .

ولكن أمك .. ماذا ستفعل ؟

— ستحزن بالطبع .. وقد تبكى .. ولكن عليها أن تتحمل .. أو .. لماذا لا يفعل كما فعل يحيى ؟.

لا داعى لأن يخبرها ..

أجل سيتفق مع أبيه على أن ينبئها أنه ذاهب ليحضر صفقة أقمشة فهو لا يخشى إيلامها .. ويكره دموعها .

وأرهف سمعه علَّه يسمع خطى أبيه يذهب للوضوء .

وانتهى الأذان .. ولم يسمع شيئا ..

غير معقول أن يظل أبوه مستغرقا فى النوم بعد الأذان ..

وعاد ينصت .. فسمع لغطا ..

ثم سمع آهة مكتومة ..

وقفز من فراشه .. والآهة تتوالى .. وقد أضحت أكثر وضوحا ...

كان صوت أبيه ..

وتبعت الآهة .. صوت أمه يهتف فى جزع :

— ما بك يا عبد السلام ؟

— ساقى يا فاطمة ..

٦

آه فى الفجر

وقف عمار بباب حجرة أبيه ينظر إليه فى جزع وقد تلاحقت أنفاسه .. ووجد أباه قد انحنى فى الفراش ممسكا ساقه اليسرى بكلتا يديه وقد بدت على وجهه معالم ألم قاس يعتصره وقد وقفت أمه بجواره تتحسسه فى ارتياع وهى مستمرة فى صياحها :

— ماذا بك يا عبد السلام .. أخبرنى ماذا حدث ؟.

وضغط الرجل على ضروسه يحاول كتم الآهة وهو يهتف بصوت خائر :

— ساق يا فاطمة .. أشعر فيها بآلام مبرحة .

وفى لحظة أقبلت مى تطل بوجهها تتساءل فى جزع ووراءها خالد ..

وأمسكت أم عمار ساق زوجها فى رفق وتساءلت :

— لعله برد أصابك .. هل أدلكها لك ؟

وهز الرجل رأسه وهو يحاول أن يكتم آهته .

وقالت مى وقد بدت عليها الحيرة والجزع :

— أسخن ماء تضعها فيه ؟

ولم يجب الرجل وقد أغمض عينيه من الألم .

واشتدت الحيرة والجزع بهم . دون أن يملك أحدهم أن يخفف عن الرجل آلامه .

وهتف عمار وهو يتجه إلى غرفته :

ـــ سأذهب لإحضار الدكتور كمال .

وردت مى :

ـــ أجل .. اذهب وناده .. لا بد أنه سيجد لنا شيئا . لا بد أنه برد ..

وقالت الأم :

ـــ أو لعله عرق النسا .

وبدا أن الألم قد أخذ يهدأ بعض الشيء منذ استرخى عبد السلام واستلقى فى فراشه .

ولم يطل غياب عمار .

لم يغب أكثر من مسافة الطريق .. وعاد وبصحبته كمال .. وما زالت آثار النوم فى عينيه .

وأقبل على فراش الرجل الذى استلقى مغمض العينين وقد بدت عليه علامات الإعياء والضعف .

وأمسك كمال بيده فى رفق يجس النبض قائلا :

ـــ صباح الخير يا حاج .. سلامتك ألف سلامة .

وتمتم الحاج عبد السلام :

ـــ الحمد لله .. الحمد لله .

وأتم كمال الكشف ووضع على شفتيه ابتسامة حاول أن يطمئن بها الأسرة قائلا :

ـــ كل شيء سيصبح على ما يرام .. المهم هو الراحة ..

وأمسك كف الرجل فشد عليها فى ثقة وهو يقول :

ـــ بسيطة بإذن الله يا حاج .. سنجعلك تلازم الفراش بعض الوقت .. فلا تقلق .

وتمتم الرجل متسائلا فى إعياء :

— والألم يا دكتور ؟

— سيزول مع العلاج .. وسنستعمل الحقن من أجل تهدئته .. ولكن أهم شيء عندنا .. هو الرقاد ..

وغادر كال الغرفة .. وهو يحاول جهده أن يشيع بين أفراد الأسرة .. جوا من الطمأنينة .

وخرج عمار فى أعقابه يوصله حتى الباب الخارجي ..

وفى الحديقة توقف الاثنان وقال كال وهو يمد يده مودعا :

— الحالة تحتاج إلى عناية شديدة .. لقد حدثت جلطة فى الساق .. إنى أعتقد أنها لن تحتاج إلى عملية .. ولكنها تحتاج إلى راحة تامة .. وسنحاول كل جهدنا أن نعالجها .. قبل أن تحدث فى الساق أية مضاعفات .

— مضاعفات مثل ماذا ؟

— لا شيء .. لن يحدث شيء بإذن الله .. سنبذل كل جهدنا .. وليرعنا الله .. سأعود لأراه فى الضحى وأحضر معى ما يلزم من أدوية .

وعاد عمار إلى الداخل ، وكانت الشمس قد أخذت تتصاعد فى الأفق متسللة بشعاعها الأحمر من خلال النوافذ .

وكان البيت يسوده صمت موحش إلا من وقع خطوات هنا أو تنهيدة هناك . وأبوه قد رقد مغمض العينين بادى الإعياء وجلست أمه بجواره ممسكة كفه تطبق عليها فى رفق وهى ترفع عينيها إلى سقف الحجرة متوسلة إلى الله أن يرفق بهم ، ومى تتشاغل بترتيب الغرفة .

وأحس الأب بوقع خطوات عمار ففتح عينيه وقال فى صوت خافت :

— كنت على موعد مع الحاج رفاعى من أجل صفقة حرير . وكان على أن

أذهب إلى البنك لتسديد كمبيالات ...و .. وقاطعته الأم قائلة :
— لا ترهق نفسك بشيء يا عبد السلام .. المهم الآن راحتك ..
— هى أشياء لا تحتمل التأجيل ..
ورد عمار :
— سأقوم بها أنا يا أبى .
ورد الأب :
— هناك أشياء لا بد أن أقوم بها بنفسى .
— سأحاول جهدى أن أفعلها ..
وصمت الأب برهة . ثم قال مستسلما :
— أحضر إلى المحفظة من فوق الرف .
وأحضر عمار المحفظة .. فأخرج الرجل منها بعض أوراق سلمها لعمار ، وأخذ يصدر إليه تعليماته قائلا :
— افتح الخزانة وأخرج منها ظرف به الكمبيالات .
واستمر الرجل يصدر التعليمات اللازمة وقد وقف عمار ينصت شارد الذهن .
كان المفروض أن يكون الآن فى طريقه إلى بيت يحيى للذهاب معه إلى المعسكر ليحمل البندقية .. ثم ينطلق ليضرب اليهود ..
ولكن بات عليه الآن أن يحمل بدل البندقية .. الكمبيالات وينطلق بها إلى البنك .
مهمة سخيفة يا عمار .. ولكنها قد أضحت مهمتك ..
من أجل أبيك الراقد فى عجز .. ومن أجل هذا البيت الذى يتحتم أن يبقى مفتوحا .. وأن يقدم المأوى والطعام لأصحابه ..
مرة أخرى بات عليك أن تبقى فى الضباب الذى تعيش فيه بين الحانوت والبيت .. والسوق والجامع ..

والتقى بمى وهو فى طريقه إلى غرفته .

وتوقفت مى وقد بدت عبرات تترقرق فى عينيها ثم همست به متسائلة :

— ماذا قال لك كمال ؟

— قال إنه محتاج إلى العناية والراحة .

— غير هذا ؟

— قال إنه سيعود فى الضحى ومعه الأدوية .

وعادت مى تتساءل فى إلحاح :

— ماذا قال لك عن مرضه ؟

وصمت عمار وقد بدا عليه الحزن والشرود .

واستمرت مى فى تساؤلها :

— قل يا عمار ولا تخف على ..

— قال إن عنده جلطة فى الساق .

— ما هى الجلطة ؟

— انسداد فى الشرايين .

— أهى خطر على حياته ؟

— قال إنه يأمل ألا تحدث أية مضاعفات .

— مثل ماذا ؟

— لم يقل .

وازدردت مى ريقها ثم تساءلت فى صوت مرتجف النبرات :

— هل تظن أن من الخير أن نحضر طبيبا آخر ؟

— لماذا ؟

— قد يطمئننا أكثر .

— إنى أثق به .. ولو احتاج الأمر .. لطبيب آخر .. لكان هو أول من يحضره ..

— ماذا قال لك أيضا ؟

— قال إنه يرجو ألا نحتاج إلى عملية ..

— عملية من أى نوع ؟

— لست أدرى .. ولكن وجهه كان يبعث على الطمأنينة .

وتعالى صوت الأم ينادى مى . وقالت مى وهى تتجه إلى غرفة الأب :

— لا تخرج حتى أعود إليك .

ووجدت مى خالتها تتجه إلى المطبخ فى خطى متثاقلة وهى تقول :

— ابقى مع عمك حتى أعد الشاى والإفطار .

وأمسكت بها مى قائلة فى إصرار :

— بل استريحى أنت وسأعد أنا كل شىء .. لن أذهب اليوم إلى المدرسة .. فليس لدى سوى حصة واحدة .. وسأرسل مع خالد طلب أجازة ..

وأسرعت مى تعد الإفطار ثم اتجهت إلى حجرة عمار فإذا به يهم بالخروج وسألته :

— ألا تتناول الإفطار ؟

— لا أشعر بقابلية له .

— ولو فنجانا من الشاى، إن الوقت ما زال مبكرا على فتح الحانوت .

— لا بد من أن أمر على يحيى قبل الذهاب إلى الحانوت فقد كنت على موعد معه ..

— فى هذا الوقت المبكر ؟!!

وصمت عمار برهة قبل أن يجيب فى مرارة :

— كان المفروض أن أذهب معه إلى المعسكر .

— اليوم ؟

— أجل.. كنت أوشك أن أستأذن أبى فى الذهاب بعد صلاة الفجر.. ولكن سبقتنى آهته التى شقت صمت الليل.. يجب أن أذهب الآن لأعتذر ليحيى .

ورددت مى حديث عمار وقد بدا عليها الشرود :

ـــ كنت توشك أن تذهب إلى المعسكر ؟!!

ـــ اتفقت على هذا مع يحيى ليلة أمس .

وأحست مى بالمشاعر تصطخب فى صدرها .. أى رجل يمكن أن يكون عمارا بالبندقية .. يحملها فى ثقة .. ويصوبها إلى صدر العدو .. ليصرعه .. ويفتح الطريق إلى العودة .

قادر .. ورائع !!

وإذا ارتدت الرصاصة إلى صدره ؟!.

وأحست بشىء يتمزق فى باطنها .

ومدت يدها بلا وعى .. تتحسس ذراعه .

لا .. لا ..

هذا شىء .. أبعد عن التصور .. وأكبر من قدرة الاحتمال .

ليس عمار .. الذى يردى .. أو يسقط .

يجب أن يظل شامخا .. واقفا ..

أتراها تحمد الله على أن لم يمكنه من الذهاب .

على أنه وضع المراقيل فى سبيله .. حتى يحتفظ به لها !!

ولكن أيرضى عمار منها هذا ..

إنها لا تكون أهلا له .. لو تخاذلت .. وضعفت .

وتمتمت مى بصوت خافت متسائلة :

ـــ أضايقك أنك لم تذهب .

وأجابها فى يأس :

ـــ لا أظن رصاصتى ستضيف إليهم كثيرا .. إنهم لن يتوقفوا بدونها .

ـــ وددت لو استطعت الذهاب بذلك إلى الدكان .

ـــ لا فائدة من الأمانى .. سأذهب إلى يحيى .. ثم إلى الحانوت .. إذا احتجتم إلى شىء فأرسلى إلى خالد .

وسار عمار إلى بيت يحيى .. لينبئه باختصار أن أباه متعب وأنه مضطر إلى البقاء فى الحانوت .

ومرت الأيام والأب راقد فى فراشه .. لم تزد حالته سوءا .. ولكن التقدم كان بطيئا .

وواصل الدكتور كمال رعايته إياه كأنه أبوه ..

رفض أن يأخذ أجرا .. وأحضر كل ما يستطيع من الدواء .. ولم تكن أخته أميرة تغادر مى إلا إلى المدرسة أو البيت .

وازداد قربا من الأسرة ..

أصبح الأب يحس بارتياح وطمأنينة فى وجوده .. ورفض أية محاولة .. لإحضار طبيب آخر .. رغم ما أخبره بعض أصدقائه التجار من قدرتهم على إحضار إخصائيين من مصر أو من أى بلد أوربى .. وما أبداه البعض الآخر من استعداد للسفر معه إلى أى بلد فى الخارج .

وازداد كمال قربا من الأم ..

وفى ذات مساء خلت إلى مى وقالت لها تجرها إلى الحديث عنه :

— لا أعرف كيف أفى بصنيع كمال .

وردت مى فى حماس :

— حقيقة يا خالتى .. لم أر مخلوقا أفضل منه .

— رقيق وطيب وحنون .. وآدمى ..

— وطبيب ماهر .. فقد صدق تشخيصه للعلة .. وكان علاجه لها ناجحا ..

— كلما عاشره المرء ازداد قربا منه وتقديرا له .

— وهو على ذكائه ومهارته .. لم يصبه الغرور .

— إنه إنسان يحب .

وهزت مى رأسها ببساطة وأمنت على قولها :

— معك حق .

وصمتت الأم برهة تتأمل مى ثم استطردت تقول :

— وهو يحبك يا مى ..

وبدا لمى أن الحديث قد انحرف عن مساره .. وارتبكت . ولكنها ما لبثت أن تمالكت وأجابت ببساطة :

— أنا أيضا أحبته كأخى .

ووضعت الأم يدها على كتفها .. وبدت مصرة على أن تدفع بالحديث حيث تريد إذ قالت فى حذر :

— لم أقصد هذا .. إنه يحبك يا مى .. وهو إنسان يحب .. فلماذا تتركين فرصة العمر تضيع من يدك .

وتنهدت مى قائلة :

— ظننت أننا قد انتهينا من هذا الأمر .

— ماذا تعنين بقولك انتهينا منه .

— قلت إنى لا أفكر فى الزواج .

— هذا كلام صبيانى يا مى .. لماذا لا تواجهين الواقع .. إنك لا بد ستتزوجين .. وهذا الولد عمار لن يتزوج .. وعندما يقرر الزواج .. فليكن الله فى عون من سيوقعها القدر فى طريقه فلماذا تتمسكين به .

— وهل أستطيع التمسك به يا خالتى .. أنت تعرفين أن هذا قدر .. أو كما يقولون .. قسمة ونصيب .. الإنسان لا يستطيع أن يختار ما يريد .. ولكنه يستطيع على الأقل .. أن يرفض ما لا يريد .

— ولماذا لا تريدين كمال .. بعد كل ما قلته عنه من كل ما يرجح كفته ..

— نحن لا نختار بالمقاييس .. وإنما نختار بالأحاسيس .. أنت امرأة .. يا خالتى .. وتعرفين ماذا يعنى الزواج بالنسبة للمرأة ...

— نحن نعتاد أزواجنا بالعشرة .

— ولكن يجب أولا أن يكون لدينا إحساس لقبول هذه العشرة .. التى ستعودنا عليهم ..

وتنهدت الأم فى أسى قائلة :

— خسارة ..

وفى الصباح أقبل كمال .

ابتسامة رقيقة .. ووجه باش .. غير متكلف ولا مرسوم .. ولقيته مى فى ترحاب :

— أهلا دكتور كمال .

— صباح الخير يا مى .

— صباح النور .

— كيف حال عمى .

— أحسن كثيرا .

— سأحاول اليوم أن أجعله يجلس على المقعد وخلال أسبوع سأجعله يسير فى البيت .

— هذه أشياء ستشيع الفرحة فى الدار .. لسنا ندرى .. كيف نفى بجمائلك يا دكتور .

— أية جمائل يا مى .. إنى أشعر أنكم أهلى ..

— وإننا لكذلك ..

— أنا سعيد بأن أسمعه منك .. إن قدرك يزداد فى نفسى .. كلما ازددت قربا منك وارتباطا بك .. وهذا شىء نادر فى البشر يا مى .. فعشرة الناس .. ترفع عنهم حجب النفاق .. وتكشف حقيقتهم .. ولكن عشرتك كشفت جوهرك الطيب ..

أنت إنسانة رقيقة .. أصيلة .

— أشكرك يا دكتور .. أنا لا أستحق شيئا من هذا كله .

— لماذا تصرين على كلمة دكتور .. يسعدنى أن أسمع من شفتيك « كمال » إن لها رنينا آخر فى مسمعى .

وأحست مى أن الحديث يتحول إلى طريق شائك ومجرى خطر .. ولم تعرف كيف تتخلص من الانزلاق فيه .

وكانت تشعر .. على كل ما تكنه لكمال من تقدير وإحساس بالمودة .. بنفور من هذا الجو الذى بدأ يحيطها به ..

ولم ينقذها سوى إقبال خالتها ترحب بكمال قائلة :

— أهلا وسهلا .. تفضل يا دكتور .

واتجه كمال إلى حجرة الأب وبعد فحص بسيط . قال بلهجة ملؤها التفاؤل :

— الحمد لله .. أفضل كثيرا .. نجونا من المرحلة الحرجة .

وتمتم الأب فى لهجة شاكرة :

— الحمد لله .. ولك يا دكتور .. كلمات الشكر تتضاءل أمام ما فعلت لى .

— أستغفر الله .. أنت لى فى مقام الوالد ..

— تفضل يا دكتور .. اجلس .. اشرب معى فنجانا من الشاى ..

— يسعدنى أن أكون أول من يشاركك الجلوس على المائدة.يمكنك أن تغادر الفراش وتجلس على المقعد .

ومد يده يساعده على النزول من الفراش وأمسك الرجل يده بشدة وهو يقول :

— أحس أنى أوشك أن أسقط .

— اجلس على المقعد .. رويدا رويدا ستتعود الوقوف والسير .. غدا يمكنك أن تبدأ السير فى الدار وفى الأسبوع القادم .. تستطيع الخروج إلى الحديقة .

وتساءل الأب :

— ومتى أستطيع أن أذهب إلى الدكان .

— لا داعى لأن تتعجل ..

— إنى أستطيع أن أجلس فى الدكان كما أجلس هنا .. لقد ضقت يا بنى برقدة البيت .

وربت كمال ذراع عبد السلام فى رقة قائلا :

— بعد أيام سأحملك بسيارتى إلى المحل .. بشرط ألا ترهق نفسك بالعمل .

— أعدك بهذا !.

وانتهى كمال من تناول الشاى .. وفى طريقه إلى الخارج تلفت حوله عله يجد مى .. لم يجد سوى الأم .

وتلكأ فى السير يتبادل الحديث معها حتى تحضر مى وأعادت الأم كلمات الشكر وأعاد هو ردها فى تواضع وإنكار للذات .

وفجأة تساءلت فاطمة :

— متى سنفرح بك يا دكتور ؟

وابتسم كمال وأجاب متمنيا :

— أنتم الذين ستقررون ذلك .

وأحست فاطمة أنه يتحدث فى أمل .. ولم تعرف لم ؟. رغم أن مى قد أفقدتها كل أمل ..

وتساءلت باسمة :

— نحن ؟! ليت الأمر فى يدى يا بنى .

— قالت لى أميرة إنها فاتحت مى .

— وماذا كان ردها ؟

— قالت إنها لا تفكر فى الزواج .. ولم يوصد هذا الرد باب الأمل فى وجهى فالذى لا يفكر فى الزواج اليوم .. قد يفكر فيه غدا .. ولقد أحسست خلال الأيام الماضية .. أن روابط الود تتوثق بيننا .. وأننا بتنا قريبين أكثر وأكثر .. لقد بت ألمس بوضوح مشاعرها الطيبة نحوى .

وأحست فاطمة أن الرجل قد ضلل .. أو هو قد ضلل نفسه .. وكرهت له أن يفاجأ بالخذلان .. وقالت تحاول أن توضح له الموقف أكثر :

ـــ إنها فعلا لا تكن لك إلا كل مودة .. وهى تقدرك كثيرا .. ولكن يبدو أن هذا لم يعد كافيا لدى جيلكم لكى يقدم على الارتباط بالزواج ..

ـــ أفهم يا خالتى .. وإنى أحاول أن أنفذ إلى قلبها .. فأنا أكره أن أفرض نفسى عليها .

وتمتمت فاطمة وهى تحس بالمشكلة تتعثر .. وتراه يحاول أن ينفذ إلى طريق .. تعرف هى تماما .. أنه مغلق .

وقالت تحاول أن تمهد للخذلان :

ـــ على أية حال .. أنت رجل فاضل .. وعشرات الفتيات ممن يفضلن مى .. يتمنينك زوجا .

ـــ ليس هناك من يفضل مى يا خالتى ..

ـــ ولكن تفكيرها فى الزواج لا يعجبنى .. وأخشى أن تخذلك .. وأنا أستطيع أن أختار لك خيرا منها .

ـــ أنا لم أفكر فى الزواج من أجل الزواج .. ولكنى فكرت فيه من أجلها .. وليس هناك من يمكن أن يشغل مكانها فى قلبى .. إنى على استعداد .. لأن أنتظرها .. أبدا .

وأحست فاطمة .. أن المشكلة قد باتت بلا حل ..

ولم يكنْ من اليسير عليها أن تخبره أن الفتاة الحمقاء .. تحب عمارا .. وأن عمارا لا يأبه لها .. ولا يفكر فى الزواج .. وأنها رغم ذلك .. قد قررت أن تنتظره .. أبدا .

وأن على كليهما .. أن ينتظر .. بلا أمل ..

حماقة منه .. وحماقة منها .

ولكن من يملك أن يفرض عليهما .. غير ذلك .

هذا قدرها .. فلينتظرا .. أبدا .. حتى يقول القدر .. قوله .

ولم تملك إلا أن تقول فى حنان :

— ليوفقك الله يا بنى إلى ما فيه الخير .. فأنت لا تستحق إلا كل خير .

وأحست أنه يتلكأ ليودع مى فنادتها قائلة :

— مى .. تعالى لتوصلى كمال ..

وقال كمال :

— لا داعى لأن تتعب نفسها .. إنى فقط أريد أن أسلم عليها .. وأخبرها بنوع العلاج الذى ستسير عليه فى هذه المرحلة ..

وأقبلت مى تجفف يديها فى منشفة وهى تعتذر قائلة :

— آسفة لأنى كنت مشغولة فى المطبخ .

وقالت فاطمة تتمم حديثها :

— زاد عبء العمل علينا .. بعد أن وضعت أم محمود .. وبات علينا أن نقوم بكل شيء بأنفسنا .. النظافة والغسيل .. والطبيخ ..

وضحك كمال وهو ينظر إلى مى فى إعجاب :

— لم أكن أظن أن أنامل الرسام تجيد الطهى والغسيل .

وقالت مى ضاحكة :

— الطهى والغسيل أسهل ما يمكن أن تمارسه الأنامل .. فالمفروض أن نتعامل مع زناد البندقية .

— يبدو أن لدينا الكثير من أنامل الرجل .. من أجل التعامل مع زناد البندقية .. ولعل أناملكن .. أقدر على تضميد الجراح ..

— سنفعل أى شيء ..

— إذن فعلى أن أعطيك دروسا فى التمريض ..

وأحست الأم أنه يحاول أن يمنح نفسه فرصة المزيد من الطرق على الباب المغلق .. وبدا لها أن تساعده فقالت لمى :

— أجل يا مى .. لماذا لا تنتهزين الفرصة .. وتتعلمين التمريض .. على الأقل لكى توفرى علينا أجر الممرض الذى يعطينا الإبر ..

وانسحبت الأم مودعة حتى تترك لكمال فرصة خلوه بمى .. يحدثها بما يريد .

وأدركت مى بإحساس المرأة .. أنها محاولة .. لجر رجلها .. وقالت معتذرة :

— سأخبرك يا دكتور عندما أجد لدى فسحة من الوقت .. فنحن مقبلون الآن على موسم امتحانات .. وأنت تعرف مشاغلها ..

وقال كمال :

— إن الوقت متروك لك .. فأنا يسعدنى دائما أن أراك .

— متشكرة يا دكتور كمال .

— قوليها كمال .. بلا تكليف يا مى .. أم تريدين أن أناديك .. يا آنسة مى .. أو يا أستاذة مى .. لماذا تضعين بيننا حجابا من الكلفة ؟

وضحكت مى قائلة :

— أبدا يا دكتور .. أقصد .. يا كمال .. لست أضع بيننا حجابا .. إنما جرى لسانى بكلمة دكتور .

— إذن اتفقنا على دروس التمريض .

— إن شاء الله عندما ينتهى موسم الامتحانات .. وتحل الإجازة الصيفية .

وبعد أيام بدأ الحاج عبد السلام الذهاب إلى الحانوت .. لقيه الناس فى السوق بترحاب وحرارة ..

واستقر على باب الحانوت يمارس عمله فى مقعده .. ومن ورائه عمار يرتب أثواب الأقمشة على الأرفف .

وأحس عمار وهو يقف وراء البنك .. كأن الحانوت قد بات قفصا .. تطبق عليه قضبانه .. وعندما خلا الحانوت اقترب من أبيه قائلا فى رجاء :

— كنت أود أن أستأذنك فى مشوار .

— إلى أين ؟

وصمت عمار برهة ثم تمتم قائلا :

— إلى معسكرات التدريب .

والتفت إليه أبوه فى دهشة مرددا كلماته .

— معسكرات التدريب ؟!.

— أجل ..

— هذا ليس مجرد مشوار .. ولكنه رحيل .

— سأعود إليكم بين آونة وأخرى .

— منذ متى قررت هذا ؟

— قبل أن تمرض .. كنت أوشك أن أقبل عليك .. بعد أذان الفجر .. وانتظرت حتى تنتهى صلاتك .. ولكن فوجئت بآهتك .. ولم تكن هناك سبيل للذهاب بعد ذلك فقد كان على أن أمكث هنا .

وضمه الأب بنظرة ملؤها الحب ثم أطلق تنهيدة قصيرة وتمتم قائلا :

— لم أكن فى حاجة إليك حاجتى فى هذه الأيام .. لقد كسرت يا عمار .. وكسر مثلى فى هذا العمر لا يسهل جبره .. وأنا أشعر أنى أجلس فى الحانوت أشبه بالضيف .. ولقد بات عليك أنت أن تتحمل عبئه .. ولقد حملته عنى فعلا .. كأفضل ما أتمنى خلال مرضى .. لم أكن أتوقع منك أن تقوم بكل ما قمت به .. ولكن رفاقى كلهم قالوا عنك إنك رجل .. ولا تدرى كم شعرت بالفرحة .. وأنا أسمع ذلك منهم .. لقد ملأنى إحساس بالأمن والطمأنينة .. وشعرت أنى أستطيع أن أغادر الحياة .. بغير قلق على أمك وأخيك .. وعلى مى .. أحسست بالراحة .. وأن أجدك تحمل العبء عنى .. وعندما عدت إلى الحانوت .. لم أفكر أبدا .. أنى أعود .. كما كنت .. بل عدت .. لمجرد الإحساس بأنى ما زلت أحيا .. هل فهمت يا عمار ..

وتمتم عمار فى أسى :
— لا يا أبى .. أنت ما زلت قادرا على كل شيء .
— أبدا يا عمار .. ومع ذلك ..
وصمت الأب برهة وقد بدت نظراته شاردة فى أفق بعيد لا يرى ..
واستطرد يقول :
— ومع ذلك .. لا أملك أبدا أن أمنعك من الذهاب .. فهناك مكانك .. وأنت ضريبتى أدفعها لبلدنا .. فخورا .. سعيدا .. وأنا يا عمار ما زال فى نفس .. أستطيع أن أواصل به حمل العبء الذى حاولت أن ألقيه عليك .. إذ يبدو أنه لم يحن الأوان بعد لأن أحيل نفسى إلى المعاش .. فقد ظننت أن الراحة باتت من حقى .. ولكن ليس بعد .
وصمت عمار برهة والأفكار تصطخب فى نفسه .. ونظر إلى أبيه وقد بدا فى هزاله .. وفى ضعفه .. وفى أساه .. شيئا آخر عن الرجل القوى المرح الضحوك .. الذى كان ينهره لأنه لا يبتسم ..
وقال عمار فى لهجة حزينة :
— إنى على استعداد لأن أبقى ..
وهز أبوه رأسه فى شدة قائلا :
— أبدا يا عمار .. اذهب ..
— لا أود أن أرهقك بالعمل ..
— أنت ستريحنى بذهابك .. اذهب واحمل البندقية عنى .. فلقد كان على أن أكون هناك منذ سنوات .. ولكن الوقت مر بنا .. ونحن نحلم .. كان وطننا مجرد أمنية .. ولكن بات عليكم أن تجعلوه بالسلاح حقيقة .. إن عليكم يا عمار ..
وقبل أن يتم كلماته أقبل الحاج إبراهيم يصيح من الحانوت المجاور قائلا :
— هل سمعتم .. إن إسرائيل تهدد بضرب سوريا .. ولقد حرك عبد الناصر جيوشه إلى الحدود ؟.

وهتف عمار وأبوه فى نفس واحد :

— ماذا تقول ؟

— الجيوش المصرية تحركت نحو الحدود .. وطلبت مصر من الأمم المتحدة سحب قواتها .

وتمتم الأب قائلا :

— هذا حدث جلل !!

٧

حوار على المائدة

أقبل خالد من المدرسة ليجد أخته الكبرى عايدة قد حضرت وابنتها ليلى من عمان .

وبعث وجودهما إحساسا بالفرحة فى نفسه .. فقد ضمن إعفاءه من الاستذكار هذه الليلة احتفاء بحضورهما .. بل ربما تعدى هذا إلى عطلة فى الغد إذا ما أجدت وساطة عايدة فى حجزه فى البيت لأنه « أوحشها » وحتى يتسلى باللعب مع ليلى ..

وقذف خالد بحقيبته على طول ذراعه وأقبل يعانق أخته .

وضمته أخته فى شوق وأسرع يسألها ليطمئن إلى متى سيطول بقاؤهما .

— متى سترجعون ؟

ونهرته أمه قائلة :

— لماذا تتعجل عودتهم ؟

وضحكت عايدة وردت عنه :

— إنه يريد أن يطمئن إلى متى سنبقى .. حتى يضمن عدم المذاكرة والعطلة .

وصاحت به أمه :

— ادخل اغسل وجهك .. وأنت تبدو كالطين .. واذهب لتستذكر دروسك .. حتى تستطيع أن تجلس معنا .

ولم يبد على خالد أنه قد استمع إلى حديث أمه فقد عاد يسأل ليلى :

— قولى .. متى سترجعون .

— الليلة .

— الليلة !!.. ولماذا حضرتم ؟

ــــ ألا تريدنا أن نحضر ؟

ــــ بل أريدكم ألا تذهبوا الليلة .. لماذا لا تبيتون معنا .

ــــ لأن عمك عبد الكريم سيأتى لأخذنا .

ــــ ولماذا يأخذكم ولا يبقى معكم ؟

ــــ لأنه لا بد أن ينام فى المعسكر .. لأن هناك طوارئ .

وفجأة سأل خالد :

ــــ هل سنحارب ؟

وهزت عايدة رأسها قائلة :

ــــ من يدرى ..

ــــ التلاميذ فى المدرسة يقولون إننا سنضرب اليهود .. والجيش المصرى تقدم إلى الحدود .

رفعت الأم كفها إلى السماء قائلة :

ــــ إلهى ينصركم .. إلهى ينصر العرب على من يعاديهم .

وسمع وقع خطوات مى على الدرج وما لبث أن ظهرت بالباب هاتفة :

ــــ عايدة .. أهلا ..

وترك خالد أخته وابنة عمه تتعانقان .. وسحب الصغيرة ليلى من ذراعها متجها إلى الشرفة وهو يتساءل :

ــــ لماذا تعودون اليوم ؟.

ــــ لأن ماما تقول هذا .

ــــ اسمعى .. قولى إنك لا تريدين الذهاب .. وعندما يحاولون أخذك .. ابكى .

ــــ وهل يتركوننى إذا بكيت ؟

وفكر خالد برهة ثم أجاب مترددا :

ــــ ربما .. الآباء .. لا يستقرون على حال .. فى بعض الأحيان يوافقوننا إذا

بكينا .. وفى الأحيان الأخرى .. يضربوننا ..

وصمت برهة ثم أردف :

ـــ على أية حال .. جرلى .

وهبط بها من الشرفة إلى الحديقة قائلا :

ـــ تعالى .. سأريك شيئا .. لا يخطر ببالك .

وفى آخر الحديقة ووراء كوم من الخشب والزكائب مد يده .. فأخرج ماسورة طويلة .. أمسكها وقال هامسا :

ـــ أترين هذا ؟

وهزت ليلى رأسها متسائلة فى غير اكتراث :

ـــ ماذا يكون ؟

ـــ وازداد صوته همسا وهو يقول :

ـــ بندقية .

ـــ أهذه بندقية ؟

ـــ اخفضى صوتك يا غبية حتى لا يسمعك أحد .

وأعادت ليلى السؤال هامسة :

ـــ أهذه بندقية ؟

ـــ أجل .

ـــ وهل تستطيع أن تضرب بها ؟

ـــ ليس الآن ..

ـــ لماذا ؟

ـــ لأن بقيتها غير موجودة .. إن هذه هى الماسورة .. وجدتها فى كوم خردة كانوا ينقلونه باللورى .

ـــ ومن أدراك أنها ماسورة بندقية ؟

ـــ وماذا يمكن أن تكون غير ذلك ..

— وكيف ستحضر بقيتها ؟

— سأنتظر حتى يحضر يحيى .

— يحيى من ؟

— صديق عمار الذى يعمل مع الفدائيين . سأريها له وأطلب منه أن يحضر لها البقية .

وأمسك خالد الماسورة يصوبها إلى أعلى وأردف فى إعجاب :

— ستصبح بندقية مدهشة ..

ولم يبد على ليلى الاقتناع بأن هذه الماسورة يمكن أن تتحول إلى بندقية وتساءلت قائلة :

— ولماذا لا تحضر بندقية كاملة ؟

— ومن يحضرها لى ؟..

— خالى عمار .

— ولكن عمار لا يعمل مع الفدائيين .

— ولماذا لا يعمل ؟

— لأنه يعمل فى الحانوت .

— ولماذا لا يبقى جدى فى الحانوت ويذهب هو ؟

— جدك كان مريضا .

— ألم يشف ؟.

— إنه يذهب إلى الحانوت .. ولكنه يعرج .. ولم يعد يصيح ولا يضحك كما كان .

وأعاد خالد الماسورة إلى مكانها بين كوم الخشب والركائب وقال متسائلا :

— هل تظنين أننا سنحارب ؟

وهزت الصغيرة كتفها ولم تجب .

وعاد خالد يقول فى إصرار :

ـــ سأصلح البندقية وسأذهب معهم .. هل تظنينهم يأخذوننى ..

ونظرت إليه ليلى نظرة فاحصة وأجابت :

ـــ أنت صغير .. وهذا الشيء الذى تضعه فى كوم الخشب ليس بندقية .

ـــ ستصبح بندقية .. وأنا أستطيع أن أضرب بها ..

وأمسك بذراعها يهزها فى عنف :

ـــ لا بد أن أقتلهم كما قتلوا أخى الأكبر .. رأيت أبى يبكى وهو يتحدث عنه .. وقال عمار ليحيى إن دمه كان لزجا ساخنا تحت كفه .. هل تصدقين هذا ؟

خلصت ليلى ذراعها منه صائحة فى خوف :

ـــ لا تقل هذا يا خالد .. إنى أخاف .

وسمع خالد صوت أمه يصيح به من الداخل :

ـــ خالد .. قلت لك تعال واغتسل وغير ملابسك .

ودخل الصغيران إلى البيت .. وكانت عايدة قد أقبلت على حجرة مى وأبصرت الصورة التى تحاول أن ترسمها لعمار وتوقفت أمامها برهة تتأملها ثم قالت وهى تهز رأسها :

ـــ شيء ما .. ينقص الصورة ..

وأجابت مى وهى تبدل ملابسها :

ـــ أجل .

ـــ ما هو ؟

ـــ تجهمه .. لقد حاولت أن أضع على شفتيه ابتسامة .. فبدت كأنها شيء غريب معلق فى الصورة ..

ـــ وبعدين ؟

ـــ محوتها .. وبقى الوجه كما ترينه . لا هو ضاحك .. ولا هو متجهم .

وهزت عايدة رأسها قائلة ..

— إنه يشبه عمارا .. ولكنه قطعا ليس بعمار .

— على أية حال إنه ما زال مشروعا .. لم يتم .. وهو يرفض أن يستقر أمامى ولو للحظات .

— عندما يأتى من الحانوت سأمسك به وأوثقه .. ولا أتركه حتى تتمى رسمه .

وضحكت مى متسائلة :

— هل تقدرين عليه ؟

— ألا تذكرين عندما كان صغيرا .. كيف كنت أضربه .. عندما كنا نتعارك كان يشوح بيديه .. وكان أبى يشتمنى .. خوفا على من أن تصيب أصبعه عينى فى إحدى تشويحاته الطائشة .. ولكنى كنت أقبض عليه بكلتا يدى ثم أضع قدمى خلفه وأدفعه فيسقط على الأرض . وأبرك فوقه . وهات يا ضرب .

واستغرقت عايدة فى الضحك وهى تستطرد قائلة :

— تصورى لو أمسك به الآن وأطرحه أرضا وأبرك فوقه حتى تصوريه ؟.. ما رأيك فى هذه الفكرة ؟.. ألن تكون صورة مدهشة ؟

وعادت عايدة تنظر إلى الصورة ثم أردفت :

— ولكن .. ماذا يعجبك فيه .. لماذا لا ترسمين شيئا أفضل .. ارسمى سبت زهور .. أو منظر غروب . خيرا من هذا الوجه الكشر ..

وأقبلت الأم عليهما تؤكد حديث ابنتها قائلة :

— قولى لها .. ماذا يعجبها فيه .. تضيع وقتها فى رسمه ؟

ثم تمتمت كأنها تحدث نفسها :

— وتضيع عمرها فى انتظاره .

وعادت تقول بصوت مرتفع :

— قال إنه سيتعشى الليلة مع يحيى .. وطلب أن نحضر لهما عشاء فى حجرته .

وردت عايدة :

— ولماذا لا يتعشيان معنا .. لقد وحشني عمار .. وسيحضر عبد الكريم ليتعشى معنا ثم يأخذنا معه . فدعونا نتعش كلنا . معا ..

وقالت مي :

— عمار يحب أن يتعشى وحده مع يحيى .. حتى يتحدثا في حرية ..

وردت الأم :

— ليتحدثا بعد العشاء كما يريدان . إنه لم ير أخته منذ مدة ..

ثم وجهت الحديث إلى عايدة قائلة :

— لست أدري لماذا هذه العجلة في العودة ؟

— لأن عبد الكريم لا يستطيع المبيت هنا .. إن الحالة متوترة .. بعد تهديد إسرائيل لسوريا وحشد الجيش المصري على الحدود .

— إذن امكثي معنا ويعود هو لأخذك غدا أو بعد غد .

— لا يعلم أحد ما يحدث غدا أو بعد غد .

— الدنيا لن تطير .

— من يدري .

ووجهت الأم الحديث إلى مي قائلة :

— إذن ليأكل عمار وصاحبه معنا .

— سيتضايق يا خالتي .. أنا أعرف طبعه .. سأحضر لهما الطعام وحدهما في الشرفة ..

— افعلوا ما يحلو لكم .. لقد ضقت بأحوالكم .

وغادرت الأم الغرفة . ولم تكد عايدة تخلو بمي ثانية حتى قالت ببساطة .. وهي تستعيد في ذهنها تمتمة أمها التي همست بها « وتضيع عمرها في انتظاره » .

— ما هي أخبار الدكتور كمال ؟

— من حيث ؟

— أما زال ينتظرك ؟

— الله أعلم .

— ماذا لا يعجبك فيه ؟

— من قال إنه لا يعجبني ؟

— إذن لماذا رفضته ؟

ولم يبد على مى أن الحديث ذو جاذبية لها .. ولكن كان عليها أن تجيب . فردت ببساطة :

— لأنى لا أريد أن أتزوج .

— هذا كلام تقولينه لأمى يا مى وليس لى .. نحن نفهم بعضنا أكثر .

— حقيقة يا عايدة .. إنى لا أطمع فى حياة أفضل من هذه .

— عجيبة !

— لماذا ؟

— لا تطمعين فى أن يكون لك بيتك . إنه شىء آخر يا مى شىء تشعرين فيه بسيادتك .

— ولكنى لا أشعر أبدا أن هناك ما ينقص من سيادتى فى هذا البيت .

— سيادتك على من ؟ على عمار .. أو أبى ؟.. أو أمى ؟.. حتى خالد الصغير .. لا تملكين من أمره شيئا !

— لست أفهم .. هل هناك ضرورة لأن نتحكم فى أحد ؟

— ليس تحكما .. ولكنه إحساس بمسئوليتك المطلقة عنهم .. إحساس بأنك ربة بيت .. ترعين أهله ..

— ولكن هنا أفعل هذا .

— ألا تشعرين بحاجتك إلى رجل ؟

— أى رجل ؟!!

وترددت عايدة قبل أن تقول :

— أقصد رجلا معينا .

— ولكنه ليس هذا الرجل المعين .

وتنهدت عايدة وهى تقول :

— هذه هى المشكلة .. هل دائما يمنحنا القدر الرجل المعين ؟.. بل هل يكون الرجل المعين .. هو الأصلح لنا .. وهل يحقق أملنا . لو منحناه ؟

ومدت عايدة ذراعيها فضمت إليها مى قائلة :

— ليوفقك الله يا مى .. يقولون نم على الجانب الذى يريحك .. ولكن المصيبة أننا لا نعرف أى جانب أكثر راحة من غيره .. هل يتحتم علينا أن نجرب كل الجوانب حتى نستقر على الأكثر راحة ؟.. هيا نعد العشاء ..

ودلفت الفتاتان إلى المطبخ .. يشرد ذهن كل منهما فيما يعنيه ..

وبعد برهة سمعت خطوات الأب المتثاقلة ..

وبدت عليه الفرحة للقاء ابنته وحفيدته .. وجلس على مقعده الكبير الذى تعود أن يسترخى فيه وجلست الطفلة على ركبتيه تضمه بذراعيها الصغيرتين قائلة . . .

— هل تصدق يا جدى ؟

— ماذا ؟

— خالد سيحارب .

— من قال هذا ؟

— هو .

— فشار .. ابن فشار .

— لقد أرانى البندقية .

— كان ؟!!

— هو يقول إنها بندقية . ولكنها مجرد ماسورة .

— ألم أقل لك إنه فشار .

— ولكن متى سيحارب ؟
— عندما يكبر .
— ولماذا لا تحارب أنت ؟
— لأنى كبرت أكثر مما يجب ..
وتنهد الرجل وأردف قائلا :
— فات زماننا .
— وعمار؟
— ماله ؟
— هل فات زمانه ؟
— ليس بعد .
— إذن لماذا لا يحارب ؟
— عندما ستأتى الحرب سيحارب .
— وهل الحرب تأتى ؟
— أعنى عندما يحين أوانها .
— ألم يحن أوانها ؟
— ليس بعد .
— ولكن يقولون إن الجيش المصرى سيضرب اليهود ..
وأقبل خالد يقول مصححا :
— إذا ضربوا سوريا .
وقال الجد :
— إذا .
ورد خالد :
— لكن إذا لم يضربوا .. فلن نضربهم ؟..
— أجل ..

— ولكن لماذا لا نضربهم نحن .. لقد سبق أن ضربونا .

— عندما نستعد .

— ومتى نستعد ؟

وفى تلك اللحظة أقبل عمار من ناحية الشرفة بعد أن أجلس فيها يحيى ووجد الجد فيه منقذا من أسئلة الصغيرين فقال لخالد :

— اسأل أخاك .

وتساءل عمار :

— عن ماذا ؟

— عن متى نستعد .

— لأى شيء ؟

وقال خالد :

— لكى نضرب اليهود .

وتمتم عمار قائلا :

— يبدو أننا نهم بضربهم .

وقال الجد :

— هل تظن ذلك ؟

— أشم فى الجو ريح خطر .. أخطر مما تعودناه .. المسألة ليست سهلة .

وأقبلت مى تضع على جسمها فوطة مطبخ ولم تكد ترى عمارا حتى تهللت أساريرها وهتفت به :

— أعد لكما الطعام فى الشرفة .

وقال الأب :

— ولماذا لا نأكل جميعا معا ؟

وأردفت الأم تقول من أقصى الصالة :

— قلت هذا قالوا اطلعوا من البلد .

وأجاب عمار فى شىء من الاستنكار :

— ولماذا لا آكل فى الشرفة ؟

— أختك هنا .. وزوجها سيأتى بين آونة وأخرى .. وسيذهبان بعد العشاء فليس أقل من أن تأكل معهما .

وبدت الحيرة على وجه عمار وقال مترددا :

— ولكن يحيى ..

وقاطعه الأب :

— يا أخى .. يحيى منا وعلينا .. دعه يأكل معنا .

— ولكنه قد يخجل .

— يحيى ابن حلال .. ناده وسأعزم عليه بنفسى .

ثم رفع عقيرته صائحا :

— يحيى .. يا يحيى ..

وأقبل يحيى مهرولا وهو يقول مجيبا :

— مساء الخير يا عمى .

— ما رأيك فى أن نأكل كلنا معا .

— ولكنى لا أريد أن أضايقكم .

— أبدا .. عبد الكريم زوج ابنتى سيحضر للعشاء معنا فلنجلس كلنا معا .

— أمرك يا عمى .

وبعد برهة .. أقبل عبد الكريم يرتدى ملابسه العسكرية .. وعلى مائدة العشاء تجمعت الأسرة وبينهم يحيى ..

وبدأ عبد الكريم الحديث قائلا :

— وصل الملك إلى القاهرة .

وبدت الدهشة على الجميع وهتف يحيى :

— الملك ذهب إلى القاهرة !

وتساءل يحيى :

ـــ وماذا فعل به عبد الناصر ؟

ـــ أمضى معه معاهدة دفاع مشترك .

وهتفت عايدة :

ـــ هائل :

وعاد عبد الكريم يقول :

ـــ وقد أعلن أن العراق سيمضى معهما هذه المعاهدة ..

وقال الشيخ عبد السلام :

ـــ حوصرت إسرائيل إذن .

وكان عمار قد وجم وهو يستمع إلى هذا الحوار وبدا عليه شرود لم يخرج منه حتى ساقه عبد الكريم قائلا :

ـــ ما رأيك يا عمار .. لماذا لا تتحدث .. إن القوات العراقية فى طريقها إلى الجبهة لتأخذ مكانها بجوارنا .

وغمغم عمار قائلا :

ـــ كان يجب أن يحدث هذا منذ مدة ..

ـــ على أية حال لقد حدث الآن .

ـــ هل ستقف إسرائيل ساكتة ؟

ـــ وماذا تملك أن تفعل ؟

ـــ تضرب .

ـــ إذا ضربت فستأخذها على رأسها .

وبدأ الحوار متشابكا ومتداخلا .. صوت من هنا .. وصوت من هناك لا يكاد يدرى أحد من قال هذا .. ولا من رد على من .

ـــ ظنت إسرائيل أنها تستطيع أن تختال وتستعرض عضلاتها أمام سوريا حتى توقف عمل الفدائيين .

— وهل الفدائيون يعملون من سوريا وحدها ؟

— أغلب الظن أنها تريد أن تسقط النظام فى سوريا .

— إنها لعبة أمريكا .

— ظنت أن القوات المصرية مشغولة فى اليمن .

— وأن الملوك سيقفون بمعزل عن المسألة .

— وتدفق السلاح الأمريكى على إسرائيل .. سيجعل لها اليد العليا .. وسيوقف أية محاولة للتدخل .

— والأسطول السادس يتهادى فى البحر الأبيض . تعلن أمريكا بصراحة أنه مسئول عن حماية إسرائيل .

— ولكن الجيش المصرى تحرك فى سرعة وأزاح الستار الذى كان يحول بينه وبين إسرائيل والمكون من قوات الأمم المتحدة .

— وقبل يوثانت طلب عبد الناصر بسرعة مذهلة .

— والغريب أن يعلن جونسون عن ضيق أمريكا قائلا إنهم يفزعهم الانسحاب العاجل لقوات الطوارئ من قطاع غزة وسيناء بعد أكثر من عشر سنوات من الخدمة الفعالة فى صون السلام .

— ولم تفزع أمريكا من حشود إسرائيل على الحدود وتهديد حكامها لدمشق ولا أحست بضرورة وجود قوات طوارئ هناك .

— وأعجب من هذا أن جونسون أعلن أن إغلاق خليج العقبة فى وجه السفن الإسرائيلية قد أضاف بعدا جديدا .. وخطيرا للأزمة وأنها تعد هذا الخليج ممرا مائيا ودوليا وتشعر بأن فرض حصار على سفن إسرائيل أمر غير مشروع وأنه قد يؤدى إلى كارثة تحل بقضية السلام .

— لقد رد عليه عبد الناصر فى مؤتمره الصحفى بأن مصر صاحبة السيادة على مضيق تيران حسب اتفاقية لندن ١٨٢٤ والتى تمنح أصحاب المياه الإقليمية حق الـ Notice to mariners

— يعنى إيه ؟

— يعنى حق معرفة السفينة وعلمها وحمولتها واتجاهها والتصرف فى منح حق الملاحة فى المياه الإقليمية على هذه المعلومات . وهو حق مسلم به دوليا . لا يحتاج إلى ممارسته بالقوة المسلحة .

— ولماذا إذن هذه الضجة .. ألا يقع المضيق فى المياه الإقليمية المصرية ؟

— لا يمكن أن تمر به سفينة إلا على بعد ميل واحد من المياه المصرية وبكل المقاييس تنطبق عليه حقوق المياه الإقليمية . سواء كانت ثلاثة أميال أو ستة أو اثنى عشر ميلا .

— ولكن إغلاقه يخنق إسرائيل .. إنه منفذها الوحيد إلى إفريقيا .. سوقها البكر .

— ولماذا انسحبت قوات الطوارئ بمثل هذه السرعة ومن الجبهة كلها ؟

— لأنها جاءت بموافقة مصر .. ومن حق مصر سحبها .. ولقد استجاب يوثانت لطلب مصر لأن من سلطته سحب القوة .

— ولكن مصر لم تطلب سحب القوات من كل جبهة .

— قال يوثانت إنها إذا سحبت .. فستسحب كلها .

— ووافقت مصر بالطبع فهى فرصة تستطيع أن تعاود سيطرتها على مضايقها .

— هذه ضربة لإسرائيل .. لقد تعودت دائما أن تخرق قرارات الأمم المتحدة .. لقد احتلت إيلات بعد شهرين من اتفاقية الهدنة الأولى .. سلمها لهم جلوب .

— واحتلت العوجة التى كانت مقرا للجنة الهدنة عام ١٩٥٦ وطردت رجال الأمم المتحدة منها وأعلن بن جوريون وقتذاك أن إسرائيل لم تعد تعترف باتفاقية الهدنة .

— حان الوقت لكى نلقن إسرائيل درسا قاسيا .

— من الذى سيعطيها درسا قاسيا ؟

— لقد أخذته الآن .

— كيف ؟..

— القوات العربية أخذت زمام المبادرة .

— بماذا ؟.

— بقواتها التى تقف على أهبة الاستعداد حول إسرائيل .

— ولكن هل تملك القدرة على العمل والحركة ؟

— ولم لا ؟

— هل لديها القدرة ؟

— أعتقد هذا .

— وهل سيتركونها تفعل ؟

— من تقصد ؟

— أمريكا .. إنها تقف وراء إسرائيل .

— نحن أيضا لا نقف وحدنا .. لقد أعلن قائد الأسطول السادس ويليام مارتن أن دعم الأسطول السوفيتى فى البحر الأبيض يشكل تهديدا للأسطول السادس وأنه رغم عدم معرفته بمهمته فإنه من المعقول الافتراض أن الأسطول السادس هو الهدف الأول له وأن تزايد قطع الأسطول السوفيتى فى البحر الأبيض يرغم الأسطول السادس على التحول بقدر ما من مهمته الأولى المتعلقة بعمليات الضرب لكي يكون على حذر من أى هجوم .

— يعنى أن الأسطول السادس أضحى عليه أولا أن يوفر الحماية لنفسه قبل أن يوفرها لإسرائيل .. ولم يعد يملك حرية الحركة يبرطع فى البحر كما يشاء .

— وأعلن قادة الاتحاد السوفيتى أن كل من يغامر بشن عدوان فى الشرق الأوسط لن يواجه القوى العربية فحسب بل سيواجه كذلك مقاومة صلبة من جانب الاتحاد السوفيتى والدول المحبة للسلام .

— وأعلنت الصين أيضا أن ٧٠٠ مليون صينى يؤيدون بصلابة الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والدول العربية ضد إسرائيل التى تعتبرها عميلة العدوان الأمريكى .

— والهند أعلنت أنها تقدر تماما الأسباب التى اتخذت مصر من أجلها تلك الإجراءات الاحتياطية لردع إسرائيل من تنفيذ مخططاتها العدوانية ضد سوريا وأنها تؤيد حقها فى إغلاق خليج العقبة وتتمسك برأيها فى أن خليج العقبة بحر داخلى يقع فى المياه الإقليمية لمصر وللسعودية .

— وباكستان وأفغانستان وماليزيا وسنغافورة تقف معنا .

— وإفريقيا أيضا .. غينيا وتانزانيا .. وزامبيا .. ومالى والكونجو برازافيل .. إننا لا نقف وحدنا .

وساد الصمت برهة .. بدأ كل منهما يمضغ لقمة فى فمه .. وفكره فى رأسه .

وكان أول من تحدث عمار .. قال فى صوت خافت :

— المهم .. هل نحن قادرون على ضرب إسرائيل ..

.. أم أننا نغامر .. أم ننساق إلى شرك ؟

وهزت الأم رأسها وهتفت بعمار :

— دائما كالشريك المخالف .. دعونا نتكلم فى شىء آخر .

ونهض عبد الكريم قائلا :

— لم يعد هناك وقت .. لا بد أن نرحل .

٨

هل حاربت ؟

خلا عمار بيحيى فى الشرفة بعد العشاء وبعد أن ودع أخته وابنتها وزوجها .. وجلس عمار مادا ساقيه كما تعود أن يجلس .. وأطلق تنهيدة حارة بدا كأنه يحاول أن يطلق بها بعض همومه .

وتساءل يحيى :

ــ ماذا بك .. إننا أفضل حالا .

ــ أنحن كذلك ؟

ــ ألم نتحد لنقف جبهة واحدة فى مواجهة إسرائيل ؟

ــ هل تحركنا إلى ذلك بتخطيطنا وإرادتنا أم دفعنا إلى ذلك دفعا .

ــ إن الشدائد قد جمعتنا .

ــ ومن الذى صنع الشدائد ؟

ــ ماذا تقصد ؟

ــ أعنى من الذى جهز الشدائد ورتب سيرها لتجمعنا ؟

ــ تقصد إسرائيل ؟

ــ ألم تبدأ العملية بتهديدها بالعدوان على سوريا .

ــ ولكنها قطعا لم تكن تتوقع أن تتسلسل الأمور إلى مثل ما جرت به .

ــ توقعت أم لم تتوقع .. وأرادت أم لم ترد .. المهم حتى التى دفعتنا إلى مواجهة المعركة .

فنحن إذن لم نخطط للدخول فى معركة .. وبالتالى لم نستعد لها .

ــ لم نخطط جائز .. ولكن لم نستعد لها .. لا أعتقد .

— إننا بالقطع لم نكن مستعدين لمعركة مع إسرائيل .. فالجيش المصرى يحارب فى اليمن وبقية القوات العربية إما مشغولة بمواجهة الجيش المصرى .. أو بحماية نظم الحكم فيها ..

— ربما لم نكن مستعدين .. ولكننا بتنا الآن مستعدين .

— بين يوم وليلة .

— لم لا ؟

— مستعدون لماذا .. لضرب إسرائيل ؟

— أجل ..

— تعنى للهجوم عليها ؟

— ليس بالضبط فلا أظننا ستبدأ بالهجوم حتى لا نواجه سخط العالم علينا ..

— إذن سنقوم بالضربة الثانية ؟.

— بالضبط .

— هل تضمن أن تكون الأولى من إسرائيل .. ليست القاضية ؟

— غير معقول .. إننا نستطيع تلقيها ثم ردها مضاعفة .. ونكون بذلك أمام العالم .. لم نبدأ العدوان .

— فى أى موقف نقف إذن ؟

— ماذا تعنى ؟

— فى الدفاع .. أم الهجوم ؟

— الدفاع .. من أجل الهجوم .

وهز عمار رأسه كأن الأمر يستعصى عليه فهمه وأجاب :

— لا أفهم .. فالقوات العربية تقف محتشدة من أجل الهجوم ولو وجهت إليها الضربة .. فسيصعب عليها تلقيها .. ثم تحويلها إلى هجوم مضاد .

— لماذا .. إن هذه هى الحرب .. وهى تحتاج إلى قدرة على المناورة .. ومرونة فى العمل .

وبدا الشرود على وجه عمار .

واستطرد يحيى يقول :

ـــ أنت عجيب يا عمار .. على رأى المثل .. لا يعجبك العجب ولا الصيام فى رجب .. ماذا تريد أكثر من أن يحتشد العرب ويتحدوا لمواجهة إسرائيل وردعها .

ـــ أخشى أن نكون مساقين إلى معركة لم نستعد لها .

ـــ إذن فلنستعد .. إن الجيش المصرى كله قد تحرك إلى سيناء .. والجيش العراقى سيتحرك إلى الأردن .. ولعل هذا يكون نهاية الخلافات بين العرب وبداية العمل الموحد ضد إسرائيل .. إننا نستطيع أن نطبق عليها من كل جهة .

ـــ وهل ستتركنا أمريكا ؟.

ـــ سنضعها أمام الأمر الواقع .

ـــ هل ستنتظر أمريكا حتى توضع أمام الأمر الواقع .. إن أمريكا تتحين الفرص لكسر شوكة العرب .. لقد واجهنا أمريكا .. وكسرنا حلقة نفوذها فى الشرق الأوسط .. وكشفنا عملاءها .. ومخابراتها .. وهى لن تغفر لنا هذا .

ـــ أنت متشائم يا عمار .. ألم تكن تتوق دائما إلى الحرب ؟

ـــ بالحس أتوق إليها .. ولكن بالعقل .. ليست بهذه الطريقة .. وليست الآن .. لو استطعنا أن نفلت منها هذه المرة .. ونقذنا بشرم الشيخ .. لكنا الرابحين .

ونظر يحيى إليه فى دهشة وقال مستنكرا :

ـــ ما هذا الذى تقوله يا عمار .. لماذا تحاول أن تدفع فى نفسى الشك .. بأنك تجبن عن القتال عندما يحين أوانه .

ورفع عمار عينيه إلى يحيى قائلا :

ـــ ليس أسهل على يا يحيى من أن أحمل بندقية وأذهب إلى المعركة ، وليس أبعث على الراحة فى نفسى من أن أطلقها فى صدر واحد من أولئك الذين بقروا

بطن خالتى وقتلوا أخى .. ولكن المشكلة يا يحيى أكبر من هذا .. إنها ليست مشكلة إراحة نفسى .. بالبطولة أو الاستشهاد .. ولكنها مشكلة شعبنا كله .. مشكلة العمل الكبير لاستعادة وطننا .. إن المشكلة كما قالها الرئيس عبد الناصر فى المؤتمر الصحفى ليست مشكلة مضايق تيران ولا قوات الطوارئ .. التى تحاول أن تثير بها أمريكا ضجيجا مفتعلا .. ولكنها مشكلة العدوان الذى وقع ولم ينته بعد .. وما زال وقوعه المتواصل يشكل تهديدا دائما لمصير العرب كلهم .

ــ ومن أجل هذا يا عمار يجب أن نضرب دائما .. نضرب فى كل مكان وفى كل زمان .. إنهم يحاولون أن يلووا أعناقنا بالقوة .. فيجب أن نقاومهم بالقوة .. إن تهديدهم لسوريا دفعنا إلى التجمع .. وسيدفعنا إلى العمل الموحد .. ورب ضارة نافعة يا عمار ..

وعاد يحيى إلى معسكره فى تلك الليلة .

ولم يره عمار حتى وقعت الواقعة .

فى ذات صباح بدأ الدوى .. والأزيز .. والفرقعة .. والقصف .

وعلا صوت الراديو .. ليعلن أن هجوم إسرائيل قد بدأ فى كل مكان ..

وفى الساعات الأولى .. توالت الأنباء .. المبهجة .

الطائرات الإسرائيلية تتساقط فى سماء مصر عشرة .. عشرين .. ثلاثين .. أربعين .. ستين .. ثمانين .

هكذا تتهاوى كالذباب .

والجيش الأردنى يتقدم .

والجيش السورى يضرب ..

والإذاعة تنطلق محمومة بالأناشيد .. اضرب .. اقتل .. والمذيع .. يهدد بالويل والثبور .. وعظائم الأمور .

والأنباء تتواتر بأن أفواج الطائرات المصرية .. تئز فوق إسرائيل ..

ومع ذلك .. فالضرب يتوالى .. والدوى يزداد .. والانفجارات تصم

الآذان ..

وبدأت حدة الحماس من الإذاعة تخف .

ولم تعد تعرف أنباء محددة عن القوات العربية .. أين هى .. وماذا تفعل .

وأذيعت الأنباء عن تدخل أمريكا بطيرانها .

وبدأت الإذاعات المحمومة تنقشع عن أناشيد وطنية .. تثير المواجع وتنكأ الجراح .

وضاعت الجولان .. والضفة الغربية .. وسيناء .

وضاعت معها القوات العربية .. وانحسر ما تبقى منها غرب القنال .. وشرق النهر .. ووراء الهضبة .

وبعد أيام سوداء كأنها الكابوس .. أو الحلم الثقيل .

أيام من الضجيج والدوى والصراخ والسهر والحيرة والجزع والتوتر .

وجد الشيخ عبد السلام نفسه يقف بباب داره .. وقد بدا كل ما حوله كأنه خرائب وأطلال .

وصوت جنازير الدبابات الإسرائيلية يقطع الطرقات .. وصيحات الجنود الإسرائيليين تتعالى هنا وهناك .

وجثث تترامى على الأرصفة .. وبقايا دبابات محترقة فى جوانب الطرقات ..

ارتدت قوات العرب .. تحت حمم الطائرات والمدافع والدبابات .

من أين أتوا بكل هذه النيران ..

كان كل شيء يبدو وكأنه قطعة من الجحيم .

واختفى ابنه عمار فلم يلقه منذ بدأ الضرب .

قد تكون جثته إحدى هذه الجثث الملقاة على الطريق .

وأحس العجوز بشيء يعتصر قلبه ..

العجز مرير .. يا عبد السلام ..

أمر .. من الموت ذاته .

ذهب الصبي ولم يعد ..

كان يعرف أنها معركة خاسرة .. وكان يدرك أن شيئا أفضل يجب أن يفعل .. كان يقول إن الأهداف يجب أن توضح .. وتحشد لها الإمكانيات ويحدد الزمن .

كان يقول دائما .. رائع أن يصبح الإنسان شهيدا .. ولكن أروع من ذلك أن نفكر ونعمل وأن نحشد كل ما نملك من قدرة تبلغنا ما نستطيع من هدفنا وأن نواصل العمل والحشد فى دأب وإصرار حتى نبلغه .

خرج الصبي لكي يفعل شيئا .. أى شيء .. فقد كان يعرف أن الوقت لا يحتمل التفكير .. وأن عليه أن يشارك فى المعركة الخاسرة .. يطلق رصاصة .. أو يقذف قنبلة .. أو يستشهد .

كم يحس الآن أنه يحبه .. رغم كثرة تأنيبه له .. على تجهمه وشروده .

وخرجت مى تنطلق هائمة .. تضمد جرحا .. أو تجبر كسرا .. أو تعطى جرعة ماء لهالك .. يتوق إلى أن يطفيء قبل الموت ظمأه ..

وكاد الطفل الصغير أن يخرج هو الآخر .. لولا أن نهرته أمه وشخط فيه هو قائلا :

— ماذا تظنها .. لعبة ؟

— بل حرب .

— وماذا تريد أن تفعل أنت فى الحرب ؟

— أحارب .

— هل تجد هناك أحدا فى مثل سنك يحارب ؟

— وهل عندهم أحد مثلى يريد أن يحارب ومنعوه ؟

— وبماذا ستحارب ؟

— سأخرج البندقية من وراء الصناديق .

— هذه ليست بندقية .

— سأطلب من أى جندى أن يمنحنى بندقية .

— وبم يحارب هو ؟

— إن لديهم مدافع ..

— ادخل يا خالد .. ولا تتعبنى فى المناقشة .

— ولكنى ..

— لو قلت كلمة أخرى فسأضربك .. فاهم .

ودمعت عينا الطفل وهو يتمتم قائلا :

— والله يا أبى أستطيع أن أحارب .. أستطيع أن أضربهم بحجر .. أو حتى أعضهم .

وضمه الرجل قائلا :

— سيأتى يوم يا بنى .. ولعلكم تستطيعون ما لم نستطعه نحن .. اصبر .

ومرت الأيام السود ..

لم يعرف كيف مرت ..

لم يعرف ماذا حدث لعمار .. ولا ماذا حدث لابنته وزوجها عبد الكريم ..

ويهدأ كل شىء .. وتبقى الحقيقة المرة .. فى تلك الجنازير التى تطوى الأرض .. لتعلن أن إسرائيل هنا .

وأن الأرض .. القدس .. العزيزة بمسجدها الطاهر قد احتلها الأنذال .. الطغاة .

وسمع صوت امرأته تصيح به من الداخل :

— ادخل يا عبد السلام .. ماذا تفعل عندك ؟

— أرقب عمارا .. لعله قادم .

— ادخل فقد يصيبك شىء فى وقفتك .. إنك لا تحتمل الوقفة .

يصيبه شىء ..

يا ريت ..

ماذا بقى منه يخشى عليه .

أليس الموت أفضل من هذا الذى هو فيه ..

ودخل إلى البيت ليجد امرأته تجلس مطرقة واجمة .. وقد أصابها الهزال حتى بدت كالشبح .

وتساءلت فى صوت حزين :

— لماذا لم يعد عمار ؟

وهتف خالد :

— أأذهب لأبحث عنه ؟

ونهرته أمه قائلة :

— قلت لك لن تخرج .

— ولكن ألم تنته الحرب .. ألم يعلن العرب قبول وقف القتال ؟

ورد أبوه فى أسى :

— أجل ..

وعاد الطفل يتساءل :

— ولكن لماذا فعلوا هذا .. لماذا يوقفون القتال ؟

— لأنهم لم يعودوا قادرين عليه .

— لماذا ؟.

— لأنهم .. لأنهم لم يعد لديهم أسلحة .

— وأين ذهبت أسلحتهم ؟

ونظر الرجل إليه فى غيظ وقال :

— ألا تكف عن أسئلتك السخيفة ؟

— أتعنى أن اليهود غلبونا ؟

— أجل ..

وتنهد الطفل وقال فى أسى :

— قلت لك أخرج لأضربهم .. فقلت لى لا .

ونظرت إليه أمه فى حزن ومصمصت بشفتيها :

— لم يكن ينقص العرب سواك .

وهز الصبى رأسه فى ضيق وعاد يقول :

— خسارة ..

وصمت برهة ثم استطرد :

— ولكن ألا نستطيع أن نعاود ضربهم ثانية ؟

— جائز .

وسمعت صوت خطوات تقترب .

كانت خطوات مى .

بدت معفرة الثياب مشوشة الشعر .

ورفع الرجل رأسه إليها منتظرا أن تقول شيئا وتساءلت الأم فى لهفة :

— أوجدت عمارا ؟

— أجل ..

— أين ؟

— فى بيت يحيى .

وأخرج الرجل زفرة ارتياح وغمغم قائلا :

— كيف وجدتيه ؟

— بخير .. وجدت فى ساقه جرحا فأخذته إلى الدكتور كال فضمده له .

وتساءلت الأم :

— ولماذا لم يأت ؟

— ذهب هو ويحيى فى مشوار ..

— أم أن جرحه خطير ؟!

(ابتسامة على شفتيه)

ـ أبدا .. لقد غادر عيادة كمال سائرا على قدميه .

وبعد لحظة وصل عمار .. أشعث الشعر أغبر الوجه .. معتمه .

دخل البيت دون أن ينبس بكلمة .. ولم يجسر أحد أن يوجه له كلمة .. دخل إلى حجرته ورقد على فراشه بملابسه .

وبدا كأنه استغرق فى النوم .

واقترب منه خالد فى خوف .. ووقف بجوار رأسه وهمس :

ـ عمار ..

ولم يجبه عمار .. فعاد يهمس بصوت أعلى :

ـ عمار ..

ـ ماذا تريد ؟

ـ هل حاربت ؟

ـ اذهب ودعنى .

ـ لماذا ؟

واقترب منه الصبى وتحسس رأسه فى حنان متسائلا :

ـ هل أنت متعب ؟

ـ أجل .

ـ لا بد أنك حاربت كثيرا .. ليتنى كنت معك ..

وصمت الصبى وهو ينظر إلى عمار بإعجاب :

ـ صف لى .. كيف حاربت .. ببندقية أم بمدفع .. لا بد أن تكون الحرب شيئا هائلا .

وأطلق عمار من أنفه زفرة ساخرة وتمتم :

ـ لم تكن حربا .

ـ كيف ؟

وأقبل خالد يجلس على طرف الفراش منصتا فى لهفة .

وتمتم عمار كأنما يحدث نفسه :

— كانت شيئا فظيعا ..

— كنت أسمع الدوى من هنا .. والانفجار والصراخ .. ألم تضربوهم أنتم أيضا ؟ ..

— كان كل شيء مضطربا مختلطا متشابكا .. ولم أكن اعرف أين هم وأين نحن .. كنت أجرى أنا ويحيى والرفاق .. كان معنا بنادق وقنابل يدوية .. وحاولنا الاشتراك فى القتال .. وقتل بعضنا وجرح البعض الآخر .. وأخذنا بعض جنودنا الجرحى وخبأناهم .. ثم ذهبنا بهم إلى كال .. ونزل معنا فلم الجرحى من الطرقات .. قبل أن يدهسوهم بالدبابات .

وصمت عمار يبتلع ريقه .. وعاد خالد يتساءل فى أسى :

— ولماذا غلبونا يا عمار ؟ ..

— كانوا كثيرين .. طائراتهم كانت تملأ السماء .. تذهب وتجيء .

— كنت أسمعها .. وظننتها طائراتنا .

— ودباباتهم كانت تتدفق علينا من كل ناحية .

وتنهد عمار وهو يغمض عينيه كأنما يحاول أن يتجنب منظرا كريها .

— لقد صمد جنودنا . فعلوا كل ما يمكنهم .. ولكننا كنا ضئيلين ..

وأقبل الشيخ عبد السلام على ولده وهو فى رقدته اليائسة وتحسس رأسه فى حنان قائلا :

— قم يا عمار .. قم لتغتسل وتغير ثيابك .

واستمر عمار فى رقدته .. واقتربت مى ووقفت ترمقه فى حب وجزع وودت لو تضم رأسه إلى صدرها وسألته :

— أجهز لك الطعام يا عمار ؟

ودون أن يفتح عمار عينيه هتف بهم :

— دعونى برهة .

وقال الأب لمى وخالد :

— اذهبا الآن . أتركاه وحده .

وغادرت مى وخالد الغرفة وبقى الأب . وجر مقعدا وجلس يرمق ولده فى صمت .

وأحس عمار أن أباه يجلس قبالته . ففتح عينيه وتساءل فجأة :

— ماذا فعل المصريون ؟

— انسحبوا وراء القناة .

— مصيبة .

— وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر تنحيه بالأمس .

ووثب عمار كمن لدغته عقرب وصاح بأبيه :

— ماذا تقول ؟

— خطب الرئيس عبد الناصر فى الإذاعة .. وأعلن تنحيه عن السلطة .

وأمسك عمار بذراع أبيه صائحا :

— لماذا .. نحن جميعا مسئولون عما حدث .. كل منا يحمل نصيبه من العبء .. فلماذا يتنحى هو .. وعم يتنحى .. إنه ليس صاحب منصب .. إنه جزء منا .. ومعركتنا يا أبى طويلة .. طويلة .. لقد وقعنا فى الشرك .. وكلنا مسئولون .

وعاد عمار يهز ذراع أبيه وهو يهتف متشنجا وقد اغرورقت عيناه :

— لماذا .. لماذا ؟

— اهدأ يا بنى .. اهدأ .. لا فائدة من كل هذا الآن .. لقد كنت تقول دائما .. إن علينا أن نفكر وأن نعمل .. ولكى نفكر يجب ألا نفقد وعينا .

وعاد عمار يتمتم :

— مصيبة .. يجب ألا يتنحى .. يجب أن يبقى ليواصل المعركة .. إننا لم ننته يا أبى ..

— أعرف يا عمار أعرف .. نحن أمة كبيرة .. كبيرة .. لن تنهينا معركة

أبدا .

— أجل يا أبى .. قل لى هذا .. قل إننا لم ننته .. ولن تنحى الهزيمة عبد الناصر .. ليست إسرائيل هى التى تفعل بنا هذا .. أبدا .

واندفع خالد يعدو من الغرفة المجاورة وهو يصيح ..

— أعلنت إذاعة صوت العرب عودة عبد الناصر ..

وأقبلت مى تؤكد النبأ قائلة :

— قالوا إن المظاهرات عمت كل البلاد العربية .. وإن الحياة توقفت فى مصر تماما .. حتى عاد عبد الناصر .

وتنفس عمار الصعداء كأنما ألقى من فوق كاهله عبئا أنقض ظهره وتمتم قائلا :

— كان أمرا غير معقول . إننا نحتاج إليه أكثر من أى وقت مضى .. لا يجب أبدا أن نركع أمام إسرائيل .

ومرت أيام بالقدس .. وبدأت الحياة تدب فى المدينة فى رهبة وحذر ..

وبدا كأن الإسرائيليين يحاولون اجتذاب أهل المدينة إليهم .

وفى ذات مساء أقبل الشيخ جعفر الجواهرجى جار الشيخ عبد السلام مستأذنا فى الزيارة .

ورحب به عبد السلام قائلا :

— تفضل يا شيخ جعفر تفضل ..

وكان الجو ساكنا والنسمة لا تكاد تقوى على هز أطراف شجرة الليمون .

وجلس الاثنان فى الشرفة وسأله عبد السلام قائلا :

— تشرب شايا .. أم شيئا باردا ؟

— أشرب معك أى شيء تريد .

— نشرب شايا إذن .

وصفق بيديه فأقبلت الشغالة فأمرها بعمل فنجانين من الشاى .

وبدأ الرجل حديثه بالسؤال عن السوق .

ورد عبد السلام فى تبرم قائلا :

— لا أحد يشترى ولا أحد يبيع .

— لماذا ؟

— ألا تعرف لماذا يا شيخ جعفر .. من الذى يغادر داره .. فى هذا الجو البغيض .. إلا للضرورة الماسة .. هل حالك أنت على ما يرام ؟

— لقد كان حالى على غير ما يرام قبل العدوان .. واستمر بعده على غير ما يرام .. فلست أظن العدوان قد فعل بى شيئا .

— إنه كابوس يكتم أنفاسنا .

— لماذا يا شيخ عبد السلام .. إن الحال ليس سيئا كما تقول .. وهم يحاولون أن يفعلوا من أجلنا كل شىء .

— ما هذا الذى يفعلونه من أجلنا ؟

— إنهم يحاولون التلطف معنا .. وهم يجيبوننا إلى كل ما نريد .

— إذن فليذهبوا عنا .. فإن هذا هو كل ما نريد .

— يا أخى إنهم سينعشون أسواقنا .. وسيجعلون البلد شيئا آخر .. ماذا أخذنا من العرب غير المصائب ؟..

— ما هذا الذى تقوله يا شيخ جعفر .. أجرى لعقلك شىء ؟.. لماذا تتساءل عما أخذناه من العرب .. كأننا لسنا عربا .

— العرب قد تركونا فى الملاجئ عشرين عاما .. ولم يسمحوا لنا بأن نكون مواطنين فى بلادهم .

— لو حدث هذا .. لذابت فلسطين ..

— ومن أجل هذا تركونا فى الملاجئ ؟

ونظر عبد السلام إلى الرجل فى ريبة وقال :

— كلامك غريب يا شيخ جعفر !

— كلامى هو الحقيقة يا عبد السلام .. إن العرب هم المسئولون عن كل

ما حدث لنا .. وإسرائيل على استعداد لأن تتفاهم معنا .. وتعيد كياننا وتجعل منا دولة فى اتحاد معها .

— من قال لك هذا ؟

— قاله لى أحد ضباطهم الكبار .

— هكذا ..

— لم يقله لى وحدى . إن قادتهم قد عرضوه على كل من له قيمة بيننا .

— إنهم مجانين إذا ظنوا أن هناك من يقبل هذا الهراء .

— لماذا .. إننا سنستعيد كياننا .. وسنستفيد من الاتحاد معهم .

— أجننت يا شيخ جعفر .. كيف تقول هذا الكلام .. لو أعرف أنك جئت من أجل هذا .. لما قبلت الجلوس معك .

— يا شيخ عبد السلام.. إن علينا أن نفكر بعقل.. كفانا ما عانينا من بؤس .. كفانا تشريد .

— ومن أجل هذا تريدنا أن نقبل الخضوع لهم ؟..

— إننا سنصبح بلدا مستقلا .. سنعيد فلسطين مرة أخرى .

— بل سنستعبد بإرادتنا .. إن الكلام فى هذا جريمة .

— يبدو أنى لا أعرف كيف أقنعك .. ما رأيك لو لقيت الرجل ..؟ إنه يود أن يلقاك .

— أنا لا أحب أن ألقى أحدا ..

— حتى ولو طلب أن يأتى لزيارتك ؟

— حتى لو طلب هذا .. أنا حر فى بيتى .. ألقى من أشاء .. وأرفض لقاء من أشاء .

— أنت عنيد يا عبد السلام . إن لقاء الرجل لن يخسرك شيئا .

— إنى أعرف ماذا فعلوا بنا .. وماذا يريدون منا .. إنى أعرفهم جيدا يا شيخ جعفر .. فقل لهم أن يبعدوا عنى .. لم يعد لى من مطمع فى شىء إلا فى أن أفعل شيئا لهذا البلد الذى خذلناه طويلا .

٩

لا يشربُ القهوة ..

قبيل الظهر .. والأذان يوشك أن يؤذن .

الشيخ عبد السلام جالس فى حانوته وقد بدا عليه الهزال والأسى وإحدى عربات الجيش الإسرائيلى تتوقف أمام الحانوت .. وينزل منها رجلان .

يسأل أحدهما بالعربية :

ـــ الشيخ عبد السلام ؟

ـــ أجل .

وينقل الرجل كلاما بالعبرية إلى الرجل الآخر الذى يرد عليه بالعبرية فينقل حديثه بالعربية إلى الشيخ عبد السلام .

ورغم ما حاول أن يحيط به المترجم الرجل الآخر من مهابة فقد استمر الشيخ عبد السلام جالسا فى مقعده .

لم تكن قدمه تساعده على الوقوف بسهولة وكان يحس بنفسه عزوفا عن الحديث مع الرجل .

كانت بنفسه من المرارة والأسى واليأس والعجز ما يجعله مغلوبا على أمره . وكان كل ما يبغيه هو أن يترك فى حاله .

ولم يكن يبدو على الإسرائيليين مظاهر التهجم أو التحدى .. أو الرغبة فى الإيذاء . كان المتحدث يبتسم والمترجم ينقل الحديث بابتسامة .

قال المترجم بابتسامته المنقولة :

ـــ الكولونيل يود أن يشرب فنجانا من القهوة .

ولم يكن الكولونيل الإسرائيلى يرتدى ثيابا عسكرية .. وكان يبدو أسود

الشعر شرق الملامح .

ورفع الشيخ عبد السلام بصره إلى الرجل يتأمله فى صمت ثم قال فى نبرات هادئة :

— هنا متجر أقمشة .. قل له أن يذهب ليشرب فنجان القهوة فى أحد المقاهى .

وبدا التردد على وجه المترجم كأنما استكثر على نفسه ترجمة مثل هذا القول .. ولكن نظرة الرجل المستفسرة جعلته ينقل الحديث إلى العبرية .

ورد الرجل بابتسامة ونقل المترجم حديثه قائلا :

— يقول الكولونيل إنه يرغب فى أن يشرب القهوة معك .

وبنفس النبرات الهادئة وهو مستمر فى الجلوس فى مقعده قال الشيخ عبد السلام :

— قل له إنى لا أشرب القهوة .

واستمر الحوار المترجم .. قال الكولونيل دون أن يفقد صبره أو ابتسامته :

— إذن فلندخل فى الحديث .. بلا قهوة ..

— أى حديث ؟!!

— حول الحالة فى البلد .

— ليس الحديث من شأنى .. أنا أعمل تاجر أقمشة .

— إذن أريد قطعة قماش ..

وزفر الشيخ عبد السلام فى ضيق وقال محاولا إنهاء الحديث وهو ينهض متثاقلا :

— ليس لدى وقت للبيع .. سأغلق الحانوت وأذهب للصلاة .

— ولماذا تغلق الحانوت .. أليس هناك من يساعدك ؟

وباقتضاب شديد أجاب عبد السلام :

— لا ..

— وابنك ؟!!

ونظر إليه عبد السلام فى خشية قبل أن يجيب متسائلا :

— ماله ابنى ؟

— ألا يعاونك فى الحانوت ؟

— أجل ..

— إذن فأين هو ؟

وعاد عبد السلام يزفر زفرته الضائقة وتساءل فى غيظ :

— أهو تحقيق ؟

— أبدا .. أبدا .. لقد أتينا كأصدقاء .

— أصدقاء ؟!! أنتم ؟!!

— نحن نبسط إليكم يدنا .

وجذب عبد السلام باب الحانوت فأغلقه ثم أعطاهم ظهره وسار تجاه المسجد دون أن يرد بكلمة .

وعاد الإسرائيليان إلى العربة وقد بدت على الكولونيل مظاهر الضيق والغيظ وتمتم الرجل الآخر قائلا وهو يحاول تهدئته :

— المسألة تحتاج إلى وقت .

وفى المساء جلست الأسرة حول مائدة العشاء وتساءل عبد السلام فى قلق قبل أن يبدأ الطعام :

— ألم يعد عمار ؟

وردت الأم فى دهشة :

— ألم يكن معك طيلة اليوم ؟

وهز عبد السلام رأسه وتمتم قائلا :

— لقد فتح الحانوت واستأذن وانصرف .

— ألم يعد بعد ذلك ؟

— لم أره طيلة اليوم .

— ألم يقل لك إلى أين هو ذاهب ؟

— ليست هذه المرة الأولى التى يستأذن ويظل غائبا طوال اليوم ..

— ألا يخبرك عن مكانه حتى نطمئن عليه ؟

— أنا لا أريد أن أشده بجوارى .. ولا أريد أن أثقل حركته بسؤالى .. والعمل فى الحانوت لا يحتاج إلى جهد .. وأنا قادر على حمل عبئه .

وقال خالد :

— أنا أعرف أين يذهب .

وزجرته مى قائلة :

— كل يا خالد ولا تتدخل فيما لا يعنيك .

ورد خالد فى دهشة :

— ولكنى لن أقول لأحد ..

— كل .. كل .. وانهض حتى تستذكر .

— أستذكر ماذا .. نحن لا نأخذ دروسا .

— ذاكر ما أخذته من قبل .

— ولكن متى سنحارب اليهود ؟

وزفر الشيخ عبد السلام زفرة حارة وتمتم قائلا :

— يوما ما .. ولكن عندما يأتى .. لن نحتمل كبوة أخرى .

وسمعت وقع خطوات ولم يلبث عمار حتى بدا بالباب ؟

ونادته أمه وهى تجده يتجه رأسا إلى حجرته :

— كل لك لقمة قبل أن تنام .

— أكلت .

وقبل أن يصل إلى باب غرفته قال الأب فى لهجة بها شىء من السخرية .

— سأل الكولونيل عنك اليوم .

وتوقف عمار برهة مأخوذا وبعد أن تمالك سأل أباه فى صمت هادئ :

— أى كولونيل ؟

— لم أحاول أن أسأل عن اسمه .. أتى ومعه مترجم وقال لى إنه يريد أن يشرب القهوة وطلبت منه أن يذهب إلى مقهى . المهم لم أدع له فرصة الحديث وعندما هممت بإغلاق الحانوت لكى أذهب إلى الصلاة سأل عنك قائلا ألا يساعدك ابنك ؟.

— وماذا قلت له ؟

— قلت له أجل .. فلما سأل أين أنت .. ضقت به ذرعا فاعتذر وقال إنهم أتوا كأصدقاء .

وبدا عمار وهو يحاول أن يكبت انفعاله ثم قال لأبيه :

— لا تلقهم يا أبى .. إنهم يلعبون لعبة قذرة .

— أعرفها .

— كيف ؟

— سردها لى الشيخ جعفر محاولا أن يقنعنى بها .

— إن علينا أن نقاوم كل ألاعيبهم ومناوراتهم .. وأن نصد كل محاولتهم للتغرير بالضعفاء منا .

— لقد رفضت كل محاولة للمناقشة معهم .

— لا يكفى هذا .. إننا سننظم عملية إضراب شامل .. كما سننظم توزيع المنشورات .. وسنردع كل من تسول له نفسه للخضوع لمناوراتهم أو محاولة التفاهم معهم .. إننا ندبر ...

وقبل أن يتم حديثه سمع صوت عربة تقف بالباب وصوت أقدام تسرع الخطا على الدرج .

وطرق الباب فى شىء من العنف .. وأصاب الأسرة إحساس بالجزع .. واتجه عمار إلى الباب ليفتحه .. وحاول الأب أن يسبقه إليه صائحا :

— لا تفتح أنت يا عمار .

ولكن عمار كان قد فتح الباب ليواجه المترجم الإسرائيلى الذى زار الحانوت فى الصباح يقول بالعربية :

ـــ مساء الخير ..

وميز الأب وجهه وصوته .

ولم يجب أحد تحيته .. واستطرد هو يقول :

ـــ الكولونيل يريد أن يزور الشيخ عبد السلام .

وصاح عبد السلام :

ـــ قلت إنى لا أريد أن أحدث أحدا ..

وقبل أن يرد المترجم أفسح الطريق لجندى يحمل مدفعا رشاشا وتبعه الكولونيل يخطو إلى الداخل فى خطا ثابتة .. ملقيا التحية بالعبرية ونقلها المترجم قائلا :

ـــ الكولونيل يقول لكم مساء الخير وهو يعتذر إذا كان الوقت غير مناسب للزيارة .

وبدأ الكولونيل حديثه عبر المترجم قائلا :

ـــ آسف يا شيخ عبد السلام .. ولكن يبدو أن الصباح لم يكن ملائما لك .. وأن الحانوت لم يكن المكان المناسب للزيارة ولذلك فضلت أن أحضر إلى البيت فى المساء فأرجو ألا أكون قد أزعجتكم .

وكانت الأم قد هرولت إلى الداخل وبقيت مى ووراءها خالد يتطلع فى دهشة إلى ما يدور أمامه .

وبدا عمار متحفزا للمقاومة ولكن الشيخ عبد السلام تقدم وأزاحه جانبا وهو يقول متحديا :

ـــ ما دمت تصر على الكلام .. فسأتكلم .. ادخلوا .

وأشار إلى مى قائلا :

ـــ ادخلى بخالد يا مى .

ثم قال لعمار :

— دعنا يا عمار برهة .

ولكن عمار ظل واقفا فى مكانه فى إصرار وتمتم قائلا :

— ألا أستطيع أن أحضر المقابلة ؟

وسار عبد السلام إلى الشرفة وتبعه الرجل وهو يشير إلى الجندى قائلا :

— انتظر فى العربة .

وتردد الجندى برهة ولكن الرجل قال باسما :

— لقد أقبلنا كأصدقاء .. وأرجو أن نعامل كأصدقاء .

وترجم المترجم قوله وهو يتبعه إلى الشرفة .

واستقر الأربعة وساد الصمت برهة والشيخ عبد السلام يتطلع إلى وجه الرجل فى قلق ينتظر أن يبدأه الحديث .

ولم يطل صمت الرجل .. قال بابتسامته المعلقة على شفتيه فى لهجة كساها ما استطاع من مودة .

— كيف حال السوق عندكم ؟

وقبل أن يجيب الشيخ عبد السلام وقبل أن ينقل المترجم كلماته استطرد يقول :

— يبدو أن الحالة كاسدة .

وترجم المترجم قوله ولكن عبد السلام لم يرد واستمر الرجل فى حديثه :

— سنفتح لكم باب الاستيراد وستتدفق البضائع عليكم وسينتعش السوق .

وصمت الرجل برهة منتظرا رد عبد السلام .

وعندما طال انتظاره قال الشيخ عبد السلام فى لهجة مقتضبة :

— لماذا لا ندخل فى الحديث الذى أتى من أجله .. هل أتى ليتحدث عن السوق ؟

ورد الرجل بلهجته الرقيقة :

— أرجو أن نتحدث كأصدقاء .

وقال الشيخ عبد السلام فى حدة :

— ولكننا لسنا أصدقاء .

— ولماذا لا نكون ؟

— كيف ؟

— تتركوننا نعيش معكم فى سلام ونتعامل معكم كأصدقاء .

— ولكنكم لم تتركونا نعيش فى سلام .. ونحن لم نعد شيئا حتى نستطيع أن نتعامل معكم فى سلام أو غير سلام .. لقد سلبتمونا وطننا ..

— بل لقد عدنا نحن إلى وطننا .

— بأى حق ؟

— بحق التاريخ .. لقد وعدنا بالأرض المقدسة .

— ممن .؟

وقال عمار فى سخرية :

— من بلفور .

— بل من الله .

— الله وعدكم بأرض تطردون أهلها من دورهم وتشردونهم من أوطانهم .. وتذبحونهم وتبقرون بطون نسائهم .. أى إله هذا الذى وعدكم بهذا ؟

— لقد كانت أرضنا المقدسة .

— إنها مقدسة عند كل الناس .. وهى مفتوحة لكل الأديان حكمها فى ذلك حكم كل مكان مقدس . وحقكم فى الوطن الذى تدعونه منذ آلاف السنين ليس أكثر من حق الهنود الحمر فى أمريكا . وهو وطن بلا معالم ولا حدود .. أنتم أنفسكم لا تعرفون حدودا .. هل هى أرض داود .. أم كل أرض وطئتها قدم جندى إسرائيلى .. أو هى الأرض التى تتيح لرأس المال اليهودى فى أمريكا أكبر حد من الاستغلال ؟

— لقد استقررنا فى أرضنا بطريقة أو بأخرى .. وعجلة الزمن لا يمكن أن تعود القهقرى .. والواقع هو الواقع . فلماذا لا تدعوننا فى أمان ؟

— إنكم .. وأنتم مستقرون فى بيوتنا وفى أرضنا . لا تتركوننا نعيش فى أمان .. فكيف تريدنا أن نفعل .. ونحن سجناء معسكرات اللاجئين .. بلا بيت .. ولا عمل .. ولا هوية .

— إن البلاد العربية يمكن أن تتسع لكم .. إنها مليئة بالأراضى الواسعة وبفرص العمل .

— ويضيع وطننا ببساطة .. يذوب كما تذوب قطعة الجليد فى وهج الشمس .. إذا كنتم أنتم تحاولون استعادة وطنكم بعد آلاف السنين .. بعد أن ذبتم فعلا بين شعوب العالم وأصبحتم جزءا منها .. فكيف تريدون منا أن نلغى وطننا .. ولم يمر علينا سوى عشرين عاما من التشريد .. ودوى رصاصكم ما زال فى آذاننا وجراح خناجركم ما زالت تدمى قلوبنا .

— نحن أيضا قاسينا آلاما لم يقاسها أحد .. ساقونا بالملايين إلى معسكرات التعذيب .. لتحرق فى أفرانها كأكوام القمامة .. وسلخت جلودنا لكى يعمل منها ضباط النازى دفوفا وأباجورات .

— وورثتم أنتم لعبتهم .. أليس عجيبا أن يرث القتيل .. مواهب القاتل .. لماذا تحملوننا عبء ذنب النازية .. لماذا نحن من دون العالم نتحمل وزرهم .. وتوقعون بنا ما أوقعوه بكم .

— نحن لم نقصدكم بالذات . ولكن كنتم فى طريقنا إلى هدفنا .. ولا بد من أن نفسح الطريق ..

— فدهستمونا !! أزحتمونا من الطريق .. كما يزيح البلدوزر أكوام التراب والحجارة .. بلا إنسانية .. اقتلعتمونا من أرضنا حتى تسووها لأنفسكم ..

— لقد زرعنا الأرض وخضرناها .

— بدمائنا .. وبأشلائنا .

— لماذا تتكلم عن الماضى ؟

— هل الحاضر أفضل من الماضى .. أنتم تطلبون الأمان بالقوة .. تريدون العيش فى سلام بقتل من حولكم .. وتلغون طبيعة الإنسان .. والتاريخ .. والمنطق .. كيف يمكن أن يستقر شعبكم .. وفى كل مكان يبذر من حوله بذور الكراهية والحقد .. فى كل يوم .. عدوان جديد .. رؤوس تتهاوى ودماء تراق .. وأرض تنزع .. وبهذه الوسيلة .. تسألون الأمان .. وتبحثون عن السلام .. وكل نقطة دم تراق .. هى وقود لإشعال نار الكراهية لكم .. والأمان لا يرجى بالكراهية .. إن القوة قد تكسب الأرض .. وقد تخضع الجيوش .. ولكن ما تطلبونه من أمان واستقرار .. وسط جيران أصدقاء .. تمارسون معهم علاقة جيرة طبيعية .. لا يمكن أن يكتسب بالقوة .. فميزان القوى متغير .. ومقياسها غير ثابت .. وأنتم أنفسكم بلا قوة ذاتية .. إنها قوة غيركم .. أنتم تعيشون على دم صناعى .. وبقاؤكم على المدى الطويل .. لا يكون إلا بوجود أمن طبيعى .. وهذا لا يمكن أن يفرض بالعدوان .. وبالإرهاب .. أنتم بلا قلب .. وبلا عقل ..

— ولكننا على استعداد للتفاهم معكم ..

— التفاهم على أى شىء ؟

— إننا نستطيع أن نحقق لكم كيانكم .. وأن نعيد إليكم وطنكم ..

— كيف ؟

— تمارسون نوعا من الحكم الذاتى فى الضفة الغربية .. على أن تكونوا معنا اتحادا ..

— ونكون بغير جيش ؟

— ولماذا تحتاجون إلى جيش ؟ إن جيشنا سيحميكم .

— جيشكم سيخضعنا .. سنكون إحدى مقاطعاتكم وتمارسون فينا كل أنواع التمييز العنصرى .

(ابتسامة على شفتيه)

— إنكم ستكونون معنا أفضل حالا مما أنتم مع العرب .. سنحقق لكم ما لم يحققه العرب .. إن العرب لم يفعلوا لكم سوى التشريد .

— إننا عرب ونحن نحمل مسئولية كل ما حدث كجزء من الأمة العربية .. ونحن لا نقبل أن نكون ولاية إسرائيلية .

— ولكننا سنحقق لكم مزايا لا تحلمون بها . انظروا كيف أصبحت الأرض كالبساط الأخضر .

— نحن قادرون على هذا .

— سنحقق المساواة لكم .

— إذا كان الأمر كذلك .. فلماذا لا تقبلون عودتنا إلى أرضنا . ونعيش كلنا فى بلد واحد تتساوى فيه جميع الأديان .

وفكر الرجل برهة :

— ولكن ستكون لكم الأغلبية .. وستمحى الدولة اليهودية .

— أنتم إذن تصرون على دولة عنصرية .. تجمعون فيها كل يهود العالم .. لكى تتضخموا .. وتتمددوا .. وتبتلعوا الوطن العربى قطعة قطعة .. وتحققوا حلمكم القديم وإمبراطوريتكم ، الممتدة من النيل إلى الفرات .. أهذا هو العيش الآمن الذى تريدونه معنا ؟.

ونظر الرجل إلى الشيخ عبد السلام فى ضيق وقال :

— أنت غير قابل للمناقشة .

وفجأة نطق بالعربية فى غضب :

— رأسك كالحجر .. لا ينفع معه غير الدق .. أنتم عرب ..

وسمع من الداخل صوت فاطمة التى كانت ترهف السمع إلى الحديث الدائر فى الشرفة فهتفت قائلة :

— تعبتنا الله يتعب قلبك .. لما بتعرف عربى لماذا لم تنطق من الأول ؟.

ورفع الشيخ عبد السلام رأسه وقال للرجل دون أن تبدو عليه أية دهشة لأنه

يتكلم العربية :

ـــ أنت أيضا عربى .. أنت أقرب لنا من أولئك النازحين من كل بقاع العالم .. من أستراليا ورومانيا وكندا .. أنت تطرب للأغنية العربية كما أطرب لها .. وأنت مستعمر مثلى .. إن فلسطين بلدنا معا .. وهم يحتلون أرضنا .. هؤلاء الغزاة القادمون من كل القارات ليكونوا بلدا .. بلا لغة تجمعه .. ولا أصل يلم شمله .. لا شىء إلا العنصرية الدينية .. وغدا سيأتى عليكم الدور .. فى التمييز العنصرى .. إنكم .. ستبقون دائما .. جنسا آخر .. جنسا أدنى .. أنت تعرف كم أكرمكم العرب وأنتم بينهم .. كعرب .. كنتم فى كل بلد عربى تعيشون كأهل بلا تفرقة ولا تمييز .. حتى عدوتم على العرب .. وسمتموهم العذاب والتشريد .

ونهض الرجل وقد كست وجهه علامات التجهم قائلا بالعبرية :

ـــ انتهينا .. لا فائدة منك .

ـــ ولن تجد هناك فائدة من أحد ..

ـــ بل هناك من يفهموننا .

وهتف عمار :

ـــ خونة .. سيلقون مصيرهم .

ـــ الذين سيلقون مصيرهم .. هم الذين سيقاوموننا .. إننا بسطنا لكم يدنا .. فإذا لم تقبلوها .. فلعل وسائل أخرى تقنعكم .

وغادر الرجل البيت .. وخلف وراءه صمتا ثقيلا .

وتمتم الشيخ عبد السلام :

ـــ لعله لا يحاول بعد هذا أن يشرب معى فنجانا من القهوة .

وقالت فاطمة :

ـــ يشرب سم لما يهرى جوفه .. إنه يهددنا .. هل تراه سيفعل معنا شيئا ؟

وسار عبد السلام فى خطواته الثقيلة وهو يتمتم :

ـــ الله يلطف بنا .

ثم التفت إلى عمار قائلا :

ــ خذ بالك من نفسك يا عمار .. إنهم لن يرحمونا .

وقال عمار فى تحد :

ــ ونحن لن نرحمهم ..

وبعد بضعة أيام بدأت المنشورات تغمر البلد .. تفضح المناورة الخبيثة التى يحاول العدو أن يحيك أطرافها . وينصب حبائلها .

وبدأت حركة الإضراب والمقاومة السلبية . لتقطع كل السبل على محاولات المحتل .. لتثبيت دعائم احتلاله وإشاعة روح الاستسلام بين المواطنين .

وفى ذات صباح استيقظ عمار مبكرا .. وأحست به مى وهو يرتدى ملابسه وسألته قائلة :

ــ مالك قد استيقظت مبكرا ؟

ــ عندى مشوار .

ــ إلى أين ؟

ــ خارج البلد .

ــ ومن سيفتح الحانوت ؟

ــ يفتحه أبى على مهله .

ــ هل يعرف أنك ذاهب ؟

ــ قلت له بالأمس إن عندى مشوارا .

ــ وماذا قال ؟

ــ لم يقل شيئا .

ــ لعله لم يسمع .

ــ إذن فقولى له .

ــ هل ستتأخر ؟

ــ قد أبيت فى الخارج .

وصمتت مى وهى تنظر إليه فى قلق ثم تساءلت لتطيل فترة البقاء معه :

ــ أعد لك الفطار ؟

ــ ليس لى شهية للأكل .

ــ أجهز لك ساندوتش ؟

ــ لا ضرورة ..

ــ سأعده بسرعة .. انتظر لحظة .

وفى دقائق أعدت رغيفا ملأته بالجبن ولفته فى ورقة ثم أعطته إليه قائلة وقد بدا عليها مزيد من القلق :

ــ خذ بالك من نفسك يا عمار .

ــ ربنا يستر .

ــ وددت لو أذهب معك .. وددت أن أفعل شيئا مفيدا .

ــ يوما ما ستفعلين .. إذا تأخرت فقولى لأمى ألا تقلق .

وأمسكت بذراعه برفق وهتفت :

ــ كيف لا تقلق ؟..

ثم هتفت فى حنان :

ــ أنت لا تعرف قدرك عندنا يا عمار .

وهم عمار بالخروج ولكن كف مى ظلت ممسكة بذراعه .. وهمست قائلة :

ــ ابتسم يا عمار .. أحب أن أذكرك وأنت مبتسم .. حتى أستطيع أن أرسم فى الصورة بسمتك .

وبدل أن يضع عمار ابتسامة على شفتيه كسا وجهه مزيدا من الصرامة وقال لى وكأنه يحدث طفلة صغيرة :

ــ أهذا وقته .. أية صورة هذه التى ترسمينها .. قلت لك افعلى شيئا أفيد .. نحن فى معركة .

وبدا الخجل على وجه مى .. وهى تتطلع إليه فى شغف وهتفت قائلة :

— أنا آسفة .. لن أذكرها لك بعد ذلك ..

وصمتت برهة ثم أردفت :

— ولكن قل لى .. ماذا أستطيع أن أفعل .. أى شىء مفيد يمكن أن أؤديه ؟

— ذات يوم سأخبرك ..

وجذب ذراعه من كفها قائلا :

— دعينى الآن فقد تأخرت .

وفى رفق عادت تقول فى صوت خافت :

— خذ بالك من نفسك .. ربنا يحميك .

وانطلق عمار .. وضوء الصبح ينشره شعاع أحمر رقيق .. يترامى من الأفق الشرق .

١٠

ضرورات الحياة

أقبلت أميرة على بيت الشيخ عبد السلام والشمس توشك على المغيب .. طرقت الباب ففتح لها خالد ومن ورائه أقبلت مى ، تهتف مرحبة :

— أهلا أميرة .. مساء الخير .

— مساء النور .. خير إن شاء الله .. مضى يومان دون أن نراك فى المدرسة ..

— خالتى متوعكة .. وعمار مشغول .. وعمى الحاج لم تعد صحته تحتمل عبء الحانوت . وكان على أن أذهب هنا وهناك .. لأنهى بعض الأعمال التى لا تحتمل الإرجاء .

— لقد أصابنى القلق لغيبتك فحضرت لأطمئن عليكم .. كيف حال خالتى فاطمة الآن ؟

— أفضل .. لقد كانت نزلة برد .

— ولماذا لم تطلبوا كمال ؟

— لم نشأ أن نقلقه .. اتخذنا الاحتياطات اللازمة .. ولقد خفت النزلة والحمد لله .

— كان يجب أن ترسلى فى استدعائه .. أنت تعرفين كم يحبكم .

— نحن أيضا نعزه كثيرا .. إنه عند خالتى بمنزلة عمار .. وكيف حال المدرسة ؟

— كحال أى شىء .. يمنحك الإحساس بأننا نجلس على فوهة بركان .. لقد حضر اليوم مندوب عن سلطة الاحتلال وأخطرونا بتغيير البرامج الدراسية وتغيير الكتب .

— لماذا ؟

— قالوا إنها تهدف إلى إشاعة العنصرية .. وغرس الكراهية لليهود .

— هكذا !! كأنهم لا يمارسون التفرقة العنصرية .. وكأن كراهيتهم تحتاج إلى كتب .

— من حسن حظك أنك لم تحضرى هذين اليومين إلى المدرسة .

وردت مى فى تحد :

— سأحضر غدا وسأعرف كيف يمكنهم أن يغيروا البرنامج الذى أدرسه .

وأقبل خالد يتساءل :

— هل سنأخذ كتبا جديدة ؟

وردت أميرة :

— أجل .

— هل ستعلمنا كيف نضرب البندقية ؟

— وهل تريد أن تتعلم ضرب البندقية ؟

— طبعا ..

— ولماذا لا يعلمك عمار ؟

— عمار مشغول دائما .

— عندما يحضر رؤوف سأجعله يعلمك ضرب البندقية .

— رؤوف من ؟

— رؤوف خطيبى .

— وأين هو ؟

— فى القاهرة .

— وهل يعرف كيف يضرب البندقية ؟

— إنه يعرف كيف يضرب المدفع ويسوق الدبابة .

— وكيف تعلمها ؟

— إنه ضابط فى الجيش المصرى .

— ولكن الجيش المصرى غلب .. لقد ضربه اليهود ..

وصمتت أميرة برهة وقد بدا عليها الشرود ثم قالت وهى تتحسس شعر خالد فى حنان :

— هناك أشياء كثيرة لم تعرفها يا خالد .. والجيش المصرى قد ظلمته ظروف المعركة .. كل العرب مسئولون عن هزيمة جيوشهم .. فيجب ألا نحمل الجيوش وحدها مسئولية الهزيمة ..

— يعنى هل يعرف خطيبك الضابط كيف يعلمنى ضرب البندقية ؟

— طبعا .

— متى ؟

— عندما يأتى .

— هل سيأتى إلى هنا ؟

— بالطبع لا .

— لماذا ؟

— لن يسمح له اليهود .

— إذن كيف سنراه ؟

— سيأتى إلى عمان .

وتساءلت مى فى دهشة بعد أن كانت تنصت إلى الحوار فى غير أكتراث :

— أتتكلمين حقا ؟

— أجل ..

— هل سيأتى رءوف إلى عمان ؟

وهزت أميرة رأسها بالإيجاب .

وتساءلت مى :

— كيف عرفت ؟

— كتب لى .
— متى ؟
— وصلتنى رسالته بالأمس .. حملها إلى أحد أصدقاء كمال الذى كان فى القاهرة .
— أهى أول مرة يكتب لك ؟
— كتب إلىّ قبل هذا بضعة سطور ليطمئن علىّ ويطمئننى على نفسه .
— وكيف حاله ؟
وقلبت أميرة شفتيها ثم تمتمت :
— يعنى ..
وربتت مى ظهر خالد قائلة :
— اذهب يا خالد .. لعل أمك تريد شيئا .
— ولكنها لم تنادلى .
— اذهب وذاكر .
— ألم تقولوا إن الكتب ستتغير ؟
— اذهب وافعل أى شىء .. لقد قلت لك مائة مرة لا تجلس هكذا محشورا وسط الكبار .
وانصرف خالد بخطى متثاقلة وقد بدا عليه الامتعاض . والتفتت مى إلى أميرة متسائلة :
— يعنى ماذا .. هل أخبرك شيئا عن حالهم فى مصر ؟
وتمتمت أميرة وقد بدا الأسى على وجهها :
— قال لى إنهم أخذوا ضربة قاصمة .
— ثم ماذا ؟
— أحسست المرارة تقطر من كلماته .. قال لى إن هواية الناس قد أضحت التنكيت على الجيش المصرى .. وإن إحدى الأغنيات الشعبية قد تحولت لتصبح

على ألسنتهم «قولوا لعين الشمس ما تحماشي.. أحسن الجيش المصري راجع ماشي».

وببساطة تساءلت مي قائلة :

— وماذا يعنون ؟

— يعنون أنه عاد سائرا من سيناء بعد الهزيمة .

وهزت مي رأسها وردت بغير اكتراث :

— سخافة .

— وقال إن أحد سائقي الأتوبيس عندما سأله ذات مرة أن يقف في المحطة سبه وسب الضباط والجيش الذى مرغ أنوفهم فى التراب .

— قلة أدب .

— وقال إن إحدى الفتيات بصقت فى وجهه وهو يسير فى إحدى طرقات مصر الجديدة .

ورفعت مي رأسها وتساءلت مأخوذة :

— غير معقول ..

— إن حديثه يقطر أسى ومرارة وضيقا بالناس .

— كأنما هذا الجيش ليس منهم .

— يقول إنه يحيا بأمل الثأر .. الثأر لكرامته وكرامة جيشه وكرامة أمته .. ما أحسست قط أن نفسه الرقيقة يمكن أن تمتلئ بالحقد كما امتلأت الآن .. لقد كنت دائما أشعر أنه يتحمس للقضية من أجلى .. كانت تدفعه مشاعر حبه لى .. ولكنى الآن أشعر أنه مدفوع بحقد يغلى فى أعماقه .. حقد يملك عليه مشاعره .. لم تعد القضية بالنسبة له قضية إنسانية أو قومية .. أو وطنية .. وإنما هى قضية شخصية .

وهزت مي رأسها وتمتمت تتساءل فى دهشة .

— ولكن كيف وقع ما وقع ؟

— إنه هو نفسه فى دهشة .. لقد قال إنهم لم يهزموا فى معركة .. لم يواجهوا

اليهود فى قتال .. ودحروهم فيه .

— إذن كيف وقعت الهزيمة ؟

— لم يصف لى شيئا بالتفصيل أو التحديد .. وإنما كان حديثه كأنه زفرات ألم متقطعة .. قال إنهم صدوا قوات إسرائيل عندما هجمت عليهم .. وأن بعض قواتهم تقدمت حتى كادت تصل إلى حدودنا وتقطع الطريق على القوات الإسرائيلية .

— إذن فماذا حدث ؟

— صدرت إليهم الأوامر بالانسحاب ..

— لماذا ؟

— يقول إنه لا يعرف .. وإنهم أصيبوا بدهشة شديدة عندما تلقوا أوامر الانسحاب .. ولكن كان عليهم أن يخضعوا لها .. وبدا كل شيء مختلطا متداخلا .. حتى لكأن الصلة قد انقطعت بينهم وبين القيادات وأن الأوامر تعطى من جانب العدو .. ثم كانت الكارثة الكبرى فى الانسحاب .

— كانت مصيبة .

— لم تكن المصيبة فى مجرد الانسحاب .. ولكن فى الهلاك الذى وضعتهم فيه .. كانت شركا كبيرا سحقت فيه قواتهم .. كانت تعدو بغير غطاء جوى لتتصيدها طائرات إسرائيل من الجو .. ودباباتهم من الأرض .

وساد الصمت الثقيل برهة .. وقطعته مى فى زفرة مريرة قائلة :

— وبعد ؟!! ما آخرة كل هذا .. ما آخرة الظلمة التى تحيط بنا من كل جانب .. أيكفينا الحقد والمرارة .. والآهات والزفرات .. أليس هناك بصيص من أمل .

— أحسست بشعاع منه يتسلل من حلكة المرارة التى تشع فى خطابه .

— كيف ؟

— قال إنهم يعملون بجنون من أجل إعادة بناء قواتهم المسلحة .. إنها تبنى من

جديد .. بعد أن سحقتها المعركة .

ـــ الطريق شاق طويل .. ومشكلتنا يا أميرة .. قد باتت الصبر .. إن علينا أن نخوض مع إسرائيل معركة صبر طويلة .. حتى نقف على أقدامنا .. ونرد الضربة .

وسمع صوت بوق عربة فى الخارج وقالت أميرة وهى تمسك بحقيبتها وتهم بالوقوف :

ـــ كمال قد أتى ليأخذنى .

ـــ دعيه يتفضل .

ـــ لعل الوقت غير مناسب .. أو لعله متعجل .

وقبل أن تجيب مى سمعت طرقات كمال على الباب .. وأسرع خالد يفتح الباب .

ونهضت مى تلقى كمال مرحبة :

ـــ أهلا وسهلا دكتور كمال .. تفضل .

وقالت أميرة مقاطعة :

ـــ فرصة .. لترى خالتك .

وتساءل كمال :

ـــ خير .. ماذا بها ؟

وردت مى :

ـــ ألمت بها وعكة برد .

وقال خالد :

ـــ كانت متعبة جدا .. وخشينا عليها أن تموت .

وضحك كمال قائلا وهو يربت ظهر الصبى :

ـــ بعد الشر عنها .. أنت طبيب مخيف يا خالد .. الأطباء يطمئنون المرضى .

ـــ هى قالت إنها ستموت .

وهتفت به مى :

ـ كف عن هذه الكلمة السخيفة .. واذهب من هنا .

ونظر كمال إلى مى نظرة فاحصة ثم تمتم متسائلا :

ـ كيف حالك يا مى ؟

ـ الحمد لله .

ـ لقد فقدت الكثير من وزنك .. وتبدين شاحبة .

ـ ومن الذى لا يبدو شاحبا هذه الأيام .. إن الدنيا كلها شاحبة .

ـ تحتاجين إلى مزيد من العناية بنفسك .. هل تشكين من شيء ؟

ـ أشكو مما يشكو منه الناس .

ـ أزال الله غمتك .. هل أستطيع فحصك ؟

ـ ليس بى شيء خاص يا دكتور .

ـ إذن سأعطيك زجاجة أقراص فيتامين .

ـ لا تحمل همى يا دكتور .. أنا بخير .. وليس بى شيء أكثر مما بالعرب كلهم .

وقبل أن يجيب كمال .. استطردت تقول :

ـ هل تحب أن ترى خالتى ؟

ـ طبعا .. إننى خجل لأنى لم أرها من قبل .

ـ تفضل .. تعالى يا أميرة نطل على خالتى .

وردت أميرة :

ـ أخشى أن نقلقها .

ـ مطلقا .. إنها تحب أن تراكما دائما .. تفضلا .

وسبقتهما إلى حجرة فاطمة وهى تهتف بصوت مرتفع :

ـ أميرة والدكتور كمال يودان أن يطلا عليك يا خالتى .

وعلا صوت فاطمة من حجرتها مرحبة :

— أهلا وسهلا ..

ودخل الدكتور كمال وأميرة حجرة فاطمة تسبقهما مى تحاول أن ترتب الغرفة بسرعة .

وتبودلت التحيات وأجرى كمال كشفا سريعا .. جس النبض والحرارة . ثم قال :

— بخير والحمد لله .

وتمتمت فاطمة فى ضيق :

— أشعر بهبوط وضيق يا دكتور .

— سأعطيك دواء يريحك ويقويك .

وتنهدت فاطمة ثم عادت تتساءل :

— وكيف حالك أنت يا دكتور ؟

— مرت بنا أيام سود قاسية .

وتمتمت أميرة قائلة :

— أحس فى بعض الأوقات أن الله قد تخلى عنا .

— ونعم بالله يا أميرة يا ابنتى .. إن الله يبلونا ليختبرنا .

وتمتمت مى قائلة :

— يبدو أن الاختبار قد طال .

وردت أميرة ساخرة :

— أو لعلنا فشلنا فيه .

وقال كمال :

— كان لا بد لنا من التجربة .

وتساءلت أميرة :

— ألم تكف تجربة عشرين عاما .

— لم تعلمنا كثيرا .. لقد كنا فى حاجة إلى ما يشبه الصدمة الكهربائية .. كنا

فى حاجة إلى ضربة تهز كياننا لنفيق . ونعرف ماذا نفعل وإلى أين نسير .

وتساءلت مى :

— وهل أفقنا ؟

— أرجو هذا .. إنى أحس أننا بدأنا نتحول من لاجئين إلى مكافحين .. والعرب قد كفوا عن الكلام الذى لا فائدة منه .. وبدأوا يعرفون مدى حاجتهم إلى الجهد البناء .. والعمل الموحد .

وقالت مى :

— أنت متفائل .

ورد كمال :

— أبدا .. إن شيئا جديدا ينبت فينا .. نابع من أعماق الضمير .

وقالت أميرة وهى تتنهد :

— أجل .. إنى أحس أن ألم الصدمة قد أعادنا إلى وعينا .

واستطرد كمال يقول :

— لا تتصورى كيف باءت محاولة إسرائيل النفاذ إلى صفوفنا بالفشل .. ولقد بت أشعر أن فترة محاولة استرضائنا قد أوشكت على الانتهاء .. وأنهم سيجربون معنا أسلوبا آخر فى المعاملة .

وقالت مى فى أسى :

— ولكن بعضا منا .. قد اقتنع بخدعتهم .. إن الشيخ جعفر أتى إلى هنا .. و ..

وقاطعها كمال قائلا فى حزم :

— هؤلاء خونة .. أو جبناء .. وسيلقون جزاءهم .. إن هم حاولوا أن يقدموا على أى عمل يمكن أن يحقق أهداف إسرائيل .

وتمتمت فاطمة تقول :

— ليهدهم الله .. ولينصرنا على أعدائنا .

ثم نظرت إلى أميرة .. وكأنما أرادت أن تغير مجرى الحديث فتساءلت باسمة :

— كيف حال خطيبك المصرى ؟

وردت أميرة :

— بخير ..

وأردفت مى تقول باسمة :

— وصلتها منه رسالة بالأمس .

وقال كمال :

— وستراه قريبا .

وتساءلت فاطمة فى دهشة :

— هل سيحضر إلينا ؟

— بل سنذهب إلى لقائه فى عمان .. إنه سيحضر إلى هناك مع بعثة عسكرية مصرية .. تقوم بزيارة قيادة الجيش الأردنى .

وتساءلت فاطمة :

— ومتى ستتزوجان ؟

وردت أميرة :

— عندما تسمح الظروف ..

— كشف الله عنا الغمة .. وألهمنا الصبر والصواب .

وعادت فاطمة تنظر إلى كمال فى حنان ثم تساءلت :

— وأنت يا كمال ؟

وقال كمال ضاحكا :

— أنا ماذا ؟

— متى يهدى الله سرك ؟

وعاد كمال يرد ضاحكا مقلدا ما قالته أميرة :

— عندما تسمح الظروف .

وهزت فاطمة رأسها مستنكرة :

— أى ظروف .. هل تظنون أن هؤلاء الكلاب سيمنعوننا من ممارسة ضرورات الحياة .. إن حياتنا يجب أن تسير .. يجب أن نأكل ونشرب .. ونعمل .. وإذا كنتم تظنون أن الزواج نوع من الترف يجب أن نستغنى عنه فى هذا الوقت الكئيب .. فأنتم مخطئون ... لأن الزواج مسئولية يجب أن نمارسها .. يجب أن نواصل وجودنا .. فالوطن الفلسطينى .. قوامه الأسرة الفلسطينية .. من الذى سيواصل الكفاح من بعدنا .. إذا لم نتزوج وننجب جيلا .. أقدر على القتال .. وأقدر على استعادة الوطن .

وهز كمال رأسه وقال باسما :

— كلام معقول .

ونظر إلى مى ثم استطرد يقول ضاحكا :

— وسأخرج من هنا لأبحث عن الزوجة المناسبة .. التى تقبل المعاونة من أجل خلق جيل جديد يحمل رسالة الكفاح .

وتجاهلت مى نظرته ووجهت فاطمة الحديث إلى أميرة متسائلة :

— وأنت يا أميرة .. متى تتزوجين ؟

— إن مشكلتى أكثر تعقيدا يا خالتى .

— كيف ؟

— إننا لا نعرف كيف نلتقى .

— ألن تذهبى إليه فى عمان ؟

— من يدرى كيف سألقاه ..

— اذهبى إلى عايدة ابنتى .

— ليس تدبير المكان هو المشكلة .. ولكن المشكلة هى أنى لا أعلم كيف ستكون ظروفه .. إنه ذاهب إلى هناك فى عمل .. ولا أعلم إلى متى سيبقى .. وإنى أحاول أن أحصل على تصريح بالذهاب إلى عمان أنا وكمال .

— كل هذا يمكن أن يحدث .

— وفى كل مرة ألقاه .. أحتاج إلى كل هذا الجهد .. ويحتاج هو إلى فرصة عمل للحضور إلى عمان .

— ولماذا لا تذهبين إلى القاهرة ؟

— أذهب وأترك البلد فى هذه الظروف .. أترك أهلى فى هذا البلاء .. وهو أيضا لا يعرف ظروفه .. إنه لا يكاد يستقر فى القاهرة .. إلا بضعة أيام عطلة كل شهر أو شهرين .

وقال كمال وهو يهز رأسه فى حيرة :

— إنها حقيقة مشكلة .. ومع ذلك فأنا أستطيع أن أسهل لك أمر السفر إلى القاهرة والاستقرار بجواره هناك .

وهزت أميرة رأسها فى إصرار وقالت :

— كلام غير معقول .. إنى سأبقى هنا حتى النهاية .

وقالت مى متمتمة :

— نهاية من ؟

— نهايتهم .

— أو نهايتنا .

وقالت فاطمة وهى ترفع يديها إلى السماء :

— بل نهايتهم بإذن الله .. إنه لا يقبل الظلم أبدا .. وهم قد ظلمونا .. إننا لم نسئ إليهم أبدا .. كانت لنا جارة يهودية .. كنا نعاملها كواحدة منا .. ومع ذلك فقد ذبحونا بلا رحمة .. وشردونا وأخذوا كل مالنا .. الله لن يتركهم أبدا بلا عقاب .. إنه يمهل ولا يهمل .

وقالت مى وهى تزفر :

— ننتظر من الله كل شىء ؟!! إن علينا نحن أن نعاقبهم .. أو على الأقل نحمى أنفسنا من عقابهم .. يجب أن نهيئ لأنفسنا القدرة على ذلك .. كان عمار يقول

دائما .. إن المسألة تحتاج إلى جهد بناء .. وتنظيم دقيق .. وليست إلى مجرد حماس .

ولم تلق فاطمة بالا إلى حديث مى واستطردت تقول داعية :

— إن الله لن يخذلنا أبدا .. إنه رحيم بنا .. يا رب الطف بنا .. يا رب انصرنا .

ونهض كمال يمد يده محييا وهو يقول :

— أنت مباركة يا خالتى .. وسيستجيب الله دعاءك .

واتجه إلى الخارج تتبعه مى .

واستبقت فاطمة أميرة وهى تمسك بيدها قائلة :

— وأنت يا حبيبتى .. لا تتضايقى .

— أبدا يا خالتى .. لست متضايقة .

وخرج كمال ومى .. واستمرت أميرة فى الحجرة مع فاطمة .

وفى الصالة .. قرب الباب الخارجى وقف كمال ونظر إلى مى نظرة ملؤها الحب وأمسك بيديها مودعا :

وقالت مى :

— مع السلامة .

ولم يترك كمال يدها بل استبقاها فى كفه .

وأحست مى بالحرج وحاولت أن تخلص يدها من كفه بهدوء ولكن لم تفلح فقد كانت كفه تطبق على يدها جيدا .

وقال كمال فى صوت رقيق خفيض :

— لم أجد حتى الآن فرصة أستطيع أن أحدثك فيها .

وقالت مى متجاهلة قصده :

— كيف ؟

— أعنى كان الحديث بيننا دائما .. غير مباشر .

— حديث عن ماذا ؟

— عن أنفسنا .. قالت لك أميرة .. ثم نقلت إلى .. وقلت لخالتك .. وقالت لى عنك .

وازدردت مى ريقها وهى تحس بثقل الموقف .

واستطرد كمال يقول :

— المرة الوحيدة التى تحدثنا فيها .. كانت أشبه بالتقديم لموضوع .. أو بالدوران حوله .. كنت أنا نفسى أشعر .. بالرهبة من المواجهة .

— الموضوع أبسط من ذلك ..

— أبدا .. ليس بسيطا كما تتصورين .

— ولكننى كنت دائما صريحة ..

— ولم أخش أبدا صراحتك .. ولكن المشكلة أنى أحس أن الأمر يحتاج إلى مناقشة .. وتبادل وجهات النظر .

— لست أشعر من حالتى بشىء يحتاج إلى توضيح .

— لماذا ترفضين الزواج ؟

— لم أرفضه لشىء خاص بك .

— أعرف هذا .. وكان خليقا بى .. أن أنهى الموضوع بالنسبة لى .. لأنى أدخل فى نطاق الرفض .. وإن لم أقصد به .. ومع ذلك فقد أحسست أن بابك لم يغلق فى وجهى .. لست أدرى لم ؟ ربما لأنى أضعك فى مرتبة الأمانى .. والإنسان لا يفقد الأمل فى أمنية .. لمجرد أنها مستعصية .. بل هو قد لا ييأس منها أبدا .. بل يعيش بها كما قال الشاعر : « زمنا رغدا » حتى وإن لم يكن هناك سبيل إليها .

وقالت مى .. وقد ملأها شعور بالحياء والحرج :

— أنت تضعنى فى مرتبة .. أقرب إلى الخيال .. أنا لست كذلك أبدا ..

— أنا أضعك حيث أحس بك .. إنى أضعك فى مرتبة الأمانى .. ومن أجل

هذا .. لم أشعر أن رفضك لمبدأ الزواج .. يمكن أن يجعلنى .. أعرض عنك .. وأتخذ طريقا آخر .. لقد أحسست أن المسألة تحتاج إلى مناقشة معك .

— نناقش ماذا ؟

— نناقش مبدأ رفضك للزواج .

— هل تظن هذا أمرا يناقش ؟

— لا شيء هناك لا يقبل المناقشة .. إلا التوحيد بالله .

— والإحساس ؟

— هل رفضك الزواج .. مجرد إحساس ؟

— وهل يمكن أن يكون شيئا غير هذا ؟

— بل يجب أن يكون غير هذا .. يجب أن يكون .. أمرا مسببا بالعقل .. وبالمنطق .

— هل الزواج .. صفقة ؟

— لا .

— إذن لماذا يناقش بالعقل ؟

— لأنه شركة .

— أنا لا أحس به كذلك .

— ولكنه كذلك .. إنها شركة .. يجب أن يتوافر فيها التوافق والتآلف والفهم والقدرة على تحمل المسئولية .

— ولكنه ينبع من الإحساس .

— الإحساس يمكن أن يخلق فيه .. أو يولد منه .

— لم أصل بعد إلى هذا الفهم .. إن الإدراك المسيطر على تجاهه .. هو أنه شيء يقبل بالإحساس . ويرفض بالإحساس .

— وأنت ترفضين بالإحساس ؟

— بالضبط .

— ليس بالنسبة لشخص معين ؟

— أبدا .

— لا سلبا ولا إيجابا ؟

وترددت مى برهة قبل أن تجيب :

— ماذا تقصد ؟

— أعنى هل ترفضينه لأنك لا تريدين شخصا بذاته .. أو لأنك تريدين شخصا بعينه .. مستعصيا عليك ؟

وتنهدت مى ثم صمتت :

وقال كمال :

— لا أظن من حقى .. الوصول إلى هذا الحد من المناقشة .

وقالت مى :

— لكى أكون واضحة .. لم يبد لى من الزواج حتى الآن .. ما يجعلنى أقبل مبدأه ..

— أرجو ألا يكون هذا لأن الظروف كما قلنا لخالتك لا تسمح .. لأنها هى ردت على ذلك .. بأن الزواج .. لا تحول دونه ظروف .. لأنه واجب وليس مجرد متعة ..

— كل شىء من حولى لا يجعلنى أفكر فى الزواج .. أو أقبل مبدأه ..

وصمت كمال برهة ثم عاد يتساءل :

— وهل يمكن أن تتغير وجهة نظرك ؟

وفكرت مى برهة وقالت :

— لا شىء لا يتغير .. إلا إيماننا بالله .

— وكيف أعرف إذا تغير رأيك .. هل أظل أطرق بابك .... حتى أعرف ؟

— لا ضرورة لذلك أبدا .. سأخبرك أنا إذا تغير رأيى ..

— من ناحية قبول المبدأ أو الشخص ؟

— كلاهما معا .

— هل ستكون لديك الشجاعة الكافية ؟

— أجل .

— لكى تأتى إلى ولتقولى إنى قبلت الزواج منك ؟

— أجل .

— يكفينى هذا القول .. إنى سأعيش بأمله .

وأقبلت أميرة من حجرة فاطمة فسلمت على مى واتجه كلاهما نحو الباب .

وقبل أن يبلغا باب الحديقة سمعا صوت ضجة بالطريق وصرخات تتعالى .

وصاح رجل يعدو فى فزع :

— الشيخ جعفر قتل .. أصابته رصاصة وهو يعود إلى بيته ..

وهتف كمال بلا إرادة :

— أين هو ؟

— هناك .. أمام باب البيت مضرجا بدمه ..

واندفع كمال فى الطريق وفى أعقابه أميرة تهتف به :

— احذر يا كمال ..

وهتف صوت من الطريق :

— لا تخشى عليه .. إن من أصاب جعفرا لن يصيبه أبدا ..

١١

درسٌ فى الرسم

هدأ الضجيج فى الطريق .

وبعد برهة سمعت مى وقع خطوات تصعد الدرج متثاقلة ..

أنصتت إليها علها تدرك من الطارق قبل أن تفتح . وتمنت أن يكون العائد عمارا، فقد طالت غيبته بعض الشيء.. بات ليلته خارج البيت.. ولم يعد طوال النهار :

ولكن الخطوات لم تكن خطواته .. كانت بطيئة متثاقلة .. ولو لم يكن الشيخ عبد السلام فى البيت لظنته الطارق .

وقبل أن تفتح الباب تساءلت « من » ؟ وأجابها صوت عمار ، ففتحت الباب .

وبدا عمار شاحبا مكدودا كسير النظرات ، كأنما هو عائد من هزيمة أخرى .. وهتفت به مى :

— عمار .. ما بالك ؟

— لا شيء .

— أمريض أنت ؟

— كلا .

— وجهك شاحب وجسدك مرهق .. وكأنك محموم .

وأمسكت بكفه تجسها فى جزع .

وسحب عمار كفه من يدها وقال فى ضيق :

— قلت لك ليس بى شيء .

وصاحت الأم تتساءل من الداخل :

— من يا مى ؟

— إنه عمار يا خالتى .

— لماذا تغيب هكذا .. سيقضى على يوما فى انتظار أوبتك .

وقال الشيخ عبد السلام يزجرها :

— اعقلى يا فاطمة .. لماذا تريدين أن تحمليه هنا فوق ما يحمل من هموم .. نمضى أو نبقى ماذا يهم ؟ قيمة حياتنا قد باتت معلقة بما نستطيع أن نقدمه لهذا الوطن التعس .. فلا تجعلى من حياتنا عبئا عليه ..

وتنهدت الأم وتمتمت فى أسى :

— باتت الحياة عذابا يا عبد السلام .. فى كل مرة يخرج لا أعرف متى يعود .. ولا كيف .. اللهم اجعل يومى قبل يومه ..

ودخل عمار بخطواته المتثاقلة إلى حجرته تتبعه مى وارتمى على أحد المقاعد ووضع رأسه بين كفيه .

ومضت برهة صمت ، واهتز جسد عمار كأنه يبكى ..

واندفعت إليه مى تضمه إليها متسائلة فى جزع :

— ما بالك يا عمار .. قل لى .

ودفعها عمار برفق ، ورفع إليها عينين محمرتين بالدموع .

وهتفت مى :

— أتبكى يا عمار ؟..

وهز عمار رأسه كأن شيئا يعذبه ، ثم قال :

— هل كان يتحتم علينا أن نقتلهم ؟

— من هم ؟

— الشيخ جعفر .. وعبد الرازق ..

— ولماذا تقتلونهم ؟

— لأنهم خونة ..

وأخذت مى تحملق فى وجه عمار وقد زاغ بصره وهو يهز رأسه فى حيرة وضياع ومدت ذراعيها تحاول أن تمسك كتفيه لتهدئ روعه . وقالت فى صوت خافت :

— ألم تؤد واجبك ؟

— هذا هو المفروض .

— لماذا تجزع إذن ؟

— لأنى .. لأنى .. أكره أن أكون جلادا .. لم أشعر أن هذا هو العمل الذى أستطيعه .

— إذن لماذا قبلت القيام به ؟

— لم أكن أستطيع الرفض ..

وصمتت مى برهة وقد أحست هى نفسها بالضياع والحيرة .. وعادت تربت على كتف عمار وهى تهمس :

— اهدأ يا عمار واسترح .. أنت شجاع يا عمار .

— لم يكن العمل يحتاج إلى شجاعة .. كان الرجل بلا حول ولا قوة .

وصمت برهة ثم استطرد قائلا وكأنه يحاول أن يدفع العزم فى نفسه :

— ولكن كان ممكنا أن يضيعونا يا مى .. كانوا ضعفاء متخاذلين أمام عدونا .. كانوا يحاولون اختيار الطريق الأسهل .

وعاود الصمت حتى يلتقط أنفاسه .

وقالت مى فى لهجة رجاء :

— استرح يا عمار .. قم واغتسل .. وحاول أن تنام .. سأعد لك طعاما ساخنا ..

— لا .. لا أريد أن آكل .. ولا أحس أنى سأستطيع أن أنام .. أنت تذكرين ما قال الرجل لأبى هنا .. وكيف صده أبى وحاول أن يردعه .. ولكنه استمر فى

طريق التآمر .. كان يضيق بكفاحنا ..

— كان يريد الراحة .. ولعله الآن .. أكثر راحة .. ليرحمنا الله جميعا يا عمار ..

وعادت تتحسس رأسه فى حنان قائلة :

— نم يا عمار .. نم واغتسل وغير ثيابك ..

وقبل أن تغادر الغرفة لتجهز له العشاء هتف بها :

— لا تقولى لهما شيئا .. أكره أن يعرفا أنى قاتل .

— إنك لست قاتلا يا عمار .. أنت مناضل .

— لم تكن معركة .. لم أشعر أنى أواجه الموت وأنا أطلق رصاصتى .. كنت مجرد جلاد يا مى .

— أبدا يا عمار .. أنت بطل .. ولم تفعل إلا ما يفعله الأبطال .

.. ولم ينم عمار ليلته .

ظل يتقلب فى فراشه حتى الفجر ..

وعندما أحس بأبيه قد نهض للوضوء . غادر فراشه واغتسل . وعندما وقف أبوه لصلاة الفجر أحس بعمار يتسلل إلى الحجرة وهو يقول :

— أصلى وراءك يا أبى ..؟

— أجل يا عمار .

وكبر الأب وركع وسجد .. والابن يتبعه .

وبعد أن انتهى من التحيات وسلم أقبل على أبيه فجلس بجواره وهو مطرق صامت .

وسأله الأب :

— مالك يا عمار ؟

— هل يغفر لى الله أن قتلت بعضا منا ؟

— الشيخ جعفر ؟!

— أجل .

وتنهد الشيخ عبد السلام ثم تمتم قائلا :

— الحرب عملية سخيفة يا عمار .. والقتل انحدار بشع حقير يفقد الإنسان قيمته كإنسان .. لا تظن أبدا أنى أسعد لقتل إسرائيلى .. إنه قبل كل شىء إنسان .. وإذا دفعته الأطماع والغرور إلى الإقدام على العدوان .. ففى النهاية لن يبقى منه غير الإنسان بكل مشاعره .. ولكن عندما يواجهك إنسان بسخافة محاولة قتلك .. فستكون أكثر منه سخافة إذا لم تحاول درء الضربة وردعه .. ونحن لا نفعل يا بنى سوى محاولة درء ضربة عدونا .. أما ردعه .. فليهيىء الله لنا القدرة عليه .. افعل واجبك يا بنى .. ولا تقلق .. وليرحم الله الشيخ جعفر .. وليجزك عن فضل إراحته .. لقد أراح واستراح ..

وضم عمار أباه إليه قائلا وهو يزفر زفرة راحة :

— أرحتنى يا أبى ..

ونهض وهو يقول :

— عن إذنك يا أبى .

— هكذا مبكرا ؟

— كان المفروض أن أبيت هناك .. ولكنى أحسست أنى أود أن أراك .. أنا أعرف أنى أهمل الحانوت ..

— لا عليك يا بنى .. السوق كاسد .. ولا من يبيع ولا من يشترى .. لا تغب علينا .. إن أمك يقتلها غيابك .. سلم عليها قبل أن تذهب ..

— أخشى أن أقلقها .

— اذهب واجلس معها قليلا .. فإنها لم تنم .

وذهب عمار إلى أمه .. فضمته إليها فى لهفة . وقالت وهى تمسك بيده :

— خذ بالك من نفسك يا عمار .. لا تقض الليل فى الخارج حتى أطمئن عليك .

— حاضر .. سأحاول أن أحضر .

وخرج عمار إلى الحديقة .. وشعاع الشمس لم يتصاعد بعد فى الأفق ..»

وودعته مى حتى الباب . وهى تشد على يده باسمة :

— لا تحزن يا عمار .. اذكر دائما أنك لا تخطئ .

— من الذى لا يخطئ يا مى ؟

— أنت !! إن ثقتى فيك لا حد لها .. فقط لو أنك تبتسم .

وتساءل عمار فى شيء من السخرية :

— من أجل الصورة ؟

— يعنى !!

— ظننت أن المعركة علمتك أشياء أهم ..

— علمتنى المعركة أشياء هامة .. ولكنها لم تلغ أشياء هامة أخرى فى حياتى .

وانطلق عمار ومى ترمقه حتى اختفى .

وفى نفس الصباح ذهبت مى إلى المدرسة .

وأحست فى المدرسة جوا غريبا مشحونا بالقلق .

كانت الكتب قد جمعت من التلاميذ ومن المخازن .. وتعليمات البرامج الجديدة قد وزعت .

وكانت حالة الطوارئ قد أعلنت بعد عملية قتل الخونة التى اعتبرتها السلطات الإسرائيلية بمثابة إعلان التحدى لها ولكل من يتجاوب معها .

وانتشر جنود الاحتلال فى شوارع المدينة وأخذت دباباتهم تتجول فى طرقاتها .

وأقبلت أميرة على زميلاتها تقطع عليهن صمتا ثقيلا يخيم على رؤوسهن انتظارا لناقوس المدرسة ، وتبادلت وإياهن كلمات تحية قصارا .

وسألت أميرة مى :

— كيف حال خالتك ؟

ـــ أحسن والحمد لله ..

ـــ وعمار ؟..

وأرهفت الأسماع عندما ذكر اسم عمار وتطلعت الأبصار إليها . ولم تعرف مى ما إذا كان هذا التطلع عن معرفة بما حدث أم هو مجرد اهتمام بعمار .

وازدردت ريقها ثم قالت :

ـــ الحمد لله .

وردت إحداهن فى لهجة إعجاب :

ـــ عمار رجل ..

وقالت أخرى :

ـــ إن الإسرائيليين فى حالة توتر .

ـــ وهم يحاولون التحرش بالناس .

ـــ هل تعتقدن أنهم سيسكتون على ما حدث ؟

ـــ لقد حدثت بعض حوادث انفجارات ..

ـــ وبدأت عمليات المقاومة الإيجابية فى نابلس .

ـــ بالقطع لن يسكتوا ..

ـــ ماذا تظنينهم سيفعلون ؟

ـــ وماذا يمكن أن يفعلوا شرا مما فعلوا .

ودق الناقوس ، وتحرك التلاميذ إلى الفصول .. ولم يكن يبدو منهم فى الفناء غير عدد قليل ، وبقى بعضهم فى دورهم توجسا مما يوشك أن يحدث .

وسارت الزميلات تجاه الفصول .. وقالت أميرة :

ـــ خير للمدرسة أن تغلق أبوابها .. أنا لا أعرف ماذا أقول للأولاد .

وردت مى :

ـــ درسى لهم ما تعودت أن تدرسيه .

ـــ والتعليمات الجديدة ؟

— لا تأبهى لها .
— والمراقبون ؟
— ملعون أبوهم .
— لا مبرر لتحد غير مجد .. إنى أكتفى بالصمت وأترك الأولاد يفعلون ما يريدون .
— ولكننى أنا سأفعل ما أريد .
— ليس فى هذا الوقت يا مى .. والنفوس متوترة .
— النفوس لن تهدأ أبدا يا أميرة ..
وقبل أن تتجه إلى فصلها سألتها وهى تحاول أن تغير الحديث :
— ما هى أخبار رءوف ؟
— سيصل هذا الأسبوع إلى عمان .
— وأنت ؟
— سأذهب بمجرد الحصول على التصريح .
— لعلهم لا يعرقلونه فى هذه الظروف .
— ربنا يستر .. إن رءوف يبذل أقصى جهده .
— عندما ترينه بلغيه سلامى ..
— يصل إن شاء الله .
— وقولى له ألا يحزن .. وألا ييأس .. وألا يأبه بسخرية الناس ونكاتهم .. إنهم يحاولون أن يجدوا شيئا يفرغون فيه سخطهم ، ويلقون عليه بهمهم .. قولى له إننا نثق فيهم .. ونعتمد عليهم .. كما كنا نعتمد دائما .. وإنى أمسح بصقة الفتاة القذرة .. بقبلة اعتذار ..
— ستكون له خير عزاء .
— وأقدم له قبلة أخرى .. لـ ..
وقاطعتها أميرة ضاحكة :

— تكفي قبلة واحدة .. دعي القبلة الثانية لى .. حتى لا يستحل قبلاتك .. هيا .. اذهبى إلى تلاميذك ..

— سأراك بعد الناقوس .

— إن شاء الله .

وأقبلت مى على الفصل .. وكان هناك بضعة تلاميذ يقبعون فى مقاعدهم متطلعين إليها فى نظرات قلقة حيرى .

وكان بينهم خالد .

ونظرت مى إليه فى دهشة وسألته :

— ماذا أحضرك يا خالد ؟

وببراءة رد عليها :

— كرهت أن تفوتني الدروس .. وأنت تعرفين ..

وقاطعته مى قائلة :

— ألم تطلب أمك منك البقاء بجوارها ؟

— لقد قامت من الفراش .. ولم تعد فى حاجة إلى أحد .

— ولكنى رجوتك أن تبقى لتأخذ بالك منها .

— فضلت أن أحضر لآخذ بالى منك .

— منى أنا ؟

— أجل ..

وردت مى منذرة :

— لا بأس .. عندما نعود إلى البيت لى معك حساب نصفيه معا .

وهز خالد رأسه كأنما يقول .. يحلها ربنا عندما نعود إلى البيت ..

وفجأة سمع صوت جسم صلب يرتطم بالأرض ..

وأخذت مى بالصوت المفاجئ ولكنها اكتشفت أنها ماسورة خالد التى ينوى أن يحولها إلى بندقية ، وقد سقطت أمامه بعد أن أفلتت من بين ركبتيه ..

(ابتسامة على شفتيه)

وصاحت مى فى دهشة :

ـــ ما هذا ؟

وأجاب خالد ببساطة :

ـــ بندقيتى .

ـــ ولماذا أحضرتها ؟

ـــ أنت تعرفين الجنود الإسرائيليين يملأون الطرقات .. وهم يحملون سلاحهم .. وقلت لنفسى إنهم قد يتحرشون بى .. وقد أحتاج إليها .

وسرت موجة إعجاب بين الصغار ونهض أحدهم ليرفع الماسورة من الأرض فنهرته مى وأعادته إلى مقعده قائلة :

ـــ دع الماسورة فى مكانها .. ولنبدأ الدرس .

وهمس الصغير لخالد متسائلا :

ـــ هل تفرقع ؟

ـــ يعنى !!

ـــ يعنى ماذا .. هل بها رصاص ؟

ـــ لا .

ـــ إذن ما الفائدة منها ؟

ـــ للتهويش ..

ـــ ومتى تفرقع ؟

ـــ قريبا .

ـــ هل تعيرها لى ؟

ـــ طبعا ..

وكانت مى قد استدارت إلى السبورة وكتبت التاريخ وموضوع الدرس ، وقرأ الصغار :

« ارسم فدائيا يهاجم دورية إسرائيلية »

وهتف خالد فى إعجاب :

— هائل ..

وغمغم جاره فى حيرة :

— موضوع صعب .. هل تعرف كيف ترسمه ؟

— طبعا .

— وهل تتركنى أنقله منك ؟

— ولم لا ؟

وقالت منى :

— هيا يا أولاد .. ابدأوا الرسم .

وتساءل أحدهم :

— ما شكل الدورية الإسرائيلية ؟

وردت منى شارحة :

— مثل هذه العربات المحملة بالجنود التى ترونها تقطع الطرقات .

ورد أحدهم :

— صعبة ..

وقال آخر :

— لا أستطيع رسم العربة .

ورد آخر :

— ولا الإسرائيلى .

— أنا أعرف فقط أن أرسم فدائيا .

وقال خالد وهو منهمك فى الرسم :

— هذا يكفى .. ارسم الفدائى وقد ألقى القنبلة .. وأمامه دخان ..

— والدورية الإسرائيلية ؟

— تحولت إلى شظايا وراء الدخان .

— لا .. لا غير معقول .
وتعالت الأصوات قائلة :
— الموضوع صعب .
وردت مى :
— سأريكم كيف ترسمونه ..
وبدأت مى ترسم على السبورة الخطوط الأولية للرسم .
رسمت الفدائى وأمامه مقدمة عربة وضعت عليها نجمة إسرائيل وقد بدت مهشمة .
وسمعت وقع خطوات تقترب من باب الفصل .
وظهرت الناظرة ومعها رجل غريب .
ووضع الرجل ابتسامة على شفتيه وقال بالعربية : صباح الخير .
ولم يكن قد أبصر السبورة بعد .
ولكن الناظرة لمحتها وعلا الشحوب وجهها وتساءل الرجل :
— درس رسم ؟
وتمتمت الناظرة :
— أجل ..
وحول الرجل نظره إلى السبورة وأبصر الرسم .
وبدا الغضب فى عينيه وضغط على أسنانه .. وبدأ عظم فكيه يتلاعب .
وحول نظرته إلى مى وأخذ يفحصها من أسفل إلى أعلى .
وتساءل وهو يحاول أن يتمالك .
— ما هذا ؟
ولم تجب مى .
وصرخ الرجل متسائلا :
— ما هذا الذى ترسمينه على السبورة ؟

وكان صدر مى يعلو ويهبط بطريقة ملحوظة .. ولكنها ردت بهدوء :

ـــ فدائى يهاجم دورية إسرائيلية .

وانفجر الرجل قائلا :

ـــ كلاب ..

ورد خالد من بين الطلبة صائحا :

ـــ أنتم كلاب .. وأولاد كلاب ..

وصرخ فيه الرجل :

ـــ اخرس ..

ثم نظر إلى مى قائلا وهو يحاول أن يهدئ صوته :

ـــ هل قرأت التعليمات يا آنسة ؟

وبهدوء ردت عليه مى :

ـــ أية تعليمات ؟

ـــ إذن فأنت لم تقرئيها .

وحول بصره إلى الناظرة مهددا .

ولكن مى أسرعت تقول :

ـــ إنى أعرف كل ما بها .

ـــ ورغم ذلك تعلمين الصغار أعمال الإرهاب .

وأطلقت مى زفرة قصيرة وردت بهدوء :

ـــ هذا ليس إرهابا ..

ـــ إذن ماذا تعتبرينه ؟

ـــ حق الدفاع عن أنفسنا .. حق تحرير أوطاننا .

ـــ إنكم تغرسون فى صغاركم كراهيتنا .

ـــ إنها موجودة فى أعماقنا جميعا .. أنتم الذين غرستموها .

ـــ وتعلمونهم الوحشية .. والبربرية .

— الوحشية .. والبربرية .. هى ما تفعلونه أنتم .. بالآمنين فى دورهم .. الذين لا يطلبون أكثر من مجرد الحياة الآمنة على أرضهم .

— أنت مزعجة .

— الحق مزعج للذين اعتادوا ترويج الباطل .. حتى صدقوه .

وصرخ الرجل منفجرا :

— المناقشة لا تجدى معك .. أمثالك يحتاجون إلى أسلوب آخر ..

(ثم أمسك بمرفقها ودفعها أمامه)

وقفز خالد وهجم على الرجل بالماسورة صائحا :

— اتركها .. وإلا قتلتك .

ودفعه الرجل بعيدا وهو يهدد قائلا :

— انظرى .. ماذا علمتم الصبية ؟

ونظرت مى إلى خالد قائلة فى هدوء :

— اجلس فى مقعدك يا خالد .

— وماذا سيفعل بك هذا الرجل ؟

— لن يستطيع أن يفعل شيئا .

ودق الناقوس واندفع التلاميذ إلى خارج الفصول .

وسارت مى مع الرجل إلى حجرة الناظرة .

وفى الحجرة حاول الرجل أن يكبت غضبه فقال للناظرة مهددا :

— أنت لا تنفذين التعليمات .. وأنت مسئولة عن كل ما يحدث هنا مخالفا لها .

ولم تجب الناظرة .

وعاد الرجل يقول منذرا :

— إنى أحملك مسئولية كل ما حدث .

وردت مى بهدوء :

— أنا المسئولة عما فعلت .

— أنت وهى .. إنى أوجه إليكما إنذارا أخيرا .. التعليمات يجب أن تتبع بدقة .. لن نتسامح فى هذا مطلقا .. ولا تضطرونا إلى استعمال العنف معكم .

ثم وجه الحديث إلى الناظرة قائلا :

— هذه المدرسة توضع تحت المراقبة الدائمة .. يجب أن تكف عن تعليم الصغار .. مثل هذه الوحشية .. إننا نحاول أن نكون طيبين معكم .. فلا تضطرونا إلى غير هذا .

ونظر إلى مى قائلا فى لهجة حاول أن يكسبها الهدوء والرصانة :

— نحن باقون .. باقون .. فلماذا لا تروضون أنفسكم على التعايش معنا .. إننا سنمنحكم حياة أفضل .. وسنعلمكم الحضارة والعلم .

وتساءلت مى فى شىء من الدهشة :

— أنتم تعلموننا الحضارة ؟

— ألم نحول صحراءكم الخربة .. إلى جنة خضراء ؟

— جنة لكم .. وجحيم لنا .. المسألة نسبية يا حضرة المحترم .

— ولكننا نملك وسائل العلم العصرية .

— ونحن أيضا نستطيع امتلاكها .. إذا ما استقررنا فى أرضنا ..

— ومن يمنعكم من الاستقرار ؟

— أنتم شردتمونا عشرين عاما .. وسجنتمونا فى معسكرات للاجئين نعيش على الحسنة .

— وأين كنتم قبل العشرين عاما .. لماذا لم تخضروا صحراءكم ؟.

— الزمن يتقلب بالشعوب .. لقد كنا أصل الحضارة .. وشعوب العالم تعيش فى الظلمات .. وفعل الاستعمار بنا ما فعل .. وكنا نخطو نحو الحرية .. وكنا سنفعل ما يفعله الشعب العربى كله — من كفاح من أجل التحرر — والتقدم الاجتماعى .. والبناء الاقتصادى .. هذه مسيرتنا الطبيعية .. ولكنكم

أوقفتموها .. ونزعتم الأرض من تحت أقدامنا .. ثم تسألوننا الآن .. لماذا لم تخضروا الأرض .. أى أرض ؟.. التى سرقتموها .. لقد كانت لنا مزارع وبيارات .. وكنا نعمل بكل ما نملك من وسائل .

— ولكننا كنا نعمل أكثر منكم .

— أيكون هذا مبررا للسرقة .. والعدوان .. لقد كنا نستطيع أن نعمل وإياكم .. لكى نجعل من وطننا الفلسطينى وطنا أفضل .. ولكنكم جلبتم الغرباء من كل أجناس العالم .. ليسحقونا فى أرضنا .. وليذرونا من عليها .. كبقايا رماد .

وأحس الرجل أنه قد زج بنفسه فى مناقشة خاسرة فقطب جبينه وقال بلهجة منذرة ..

— أنت كثيرة الكلام .. وأنا أنذرك بأن تكفى عن مخالفة التعليمات .. وإلا فسيكون لنا معكم شأن آخر .

وانصرف الرجل ..

وعادت الناظرة إلى مى .. وقبل أن تنطق الناظرة قالت مى بهدوء :

— لن آتى إلى المدرسة بعد هذا .. حتى لا أسبب لك المتاعب ..

— أبدا يا مى .. إنى لا أخشى على نفسى .. ولكنى أخشى عليك أنت .. إنهم لا يرحمون .

وتنهدت مى ثم قالت وهى تمد يدها مودعة :

— إنهم لا يرحمون .. وعلينا نحن أيضا .. ألا نرحم .. لقد سمعت عمى يقول اليوم لابنه بعد أن صليا الفجر .. الحرب عملية سخيفة يا عمار .. ولكن عندما يواجهك إنسان بسخافة محاولة قتلك .. فستكون أكثر منه سخافة إذا لم تحاول درء الضربة وردعه .. ونحن جميعا مشاركون فى هذه السخافة .. إذا لم نتحمل مسئوليتنا فى درء الضربة .. وفى الردع .. كلنا يا خالتى ..

وضمتها الناظرة فى حنان وهى تتمتم :

— أجل يا بنيتى .. كلنا .. ليوفقنا الله .. فالطريق شاق .. والأيام القادمة عصيبة .. ولكن علينا أن نتحمل ثقل عبئها .. وأن نتوارثه جيلا .. وراء جيل .. حتى نستعيد حقنا .

وغادرت مى حجرتها .

وفى الطريق إلى الخارج التقت بأميرة .

وأقبلت أميرة عليها تسألها فى لهفة :

— ماذا حدث ؟

— لا شيء .. طلبت من التلاميذ أن يرسموا فدائيا يهاجم دورية إسرائيلية .

— وماذا فعلوا بك ؟

— أنذرونى ألا أعود إلى تعليم الصبية الإرهاب والوحشية .

— وماذا ستفعلين ؟

— قلت للناظرة إنى سأبقى فى البيت حتى لا أسبب لها مزيدا من المتاعب ..

وقالت أميرة فى قلق :

— هل تظنين .. أن إيقافنا للدراسة عمل سليم .

— أنا لست على استعداد لأن أدرس إلا بطريقتى .

ودق الناقوس فقالت أميرة وهى تتجه إلى أحد الفصول :

— عن إذنك يا مى .. سنلتقى بعد انتهاء الدراسة .

واتجهت مى إلى خارج المدرسة وسار خالد بجوارها وقد حمل الماسورة على كتفه وهو يتساءل باهتمام :

— اسمعى يا مى .. هل حقيقة يمكن أن تصبح هذه الماسورة بندقية .. وأن أطلق بها الرصاص ؟

— ألم تقل أنت هذا ؟

— أجل قلت .. ولكنى لا أعرف كيف .. وليس هناك من يستطيع أن

يساعدنى .

ـــ لا تعجل يا خالد .. سيأتى يوم .. تجد كل شيء فى يدك .. البنادق .. والمدافع .. والقنابل .

ـــ متى ؟. لا تقولى لى عندما تكبر .. فأنا لا أعرف متى سأكبر ..

ـــ مع الأيام .

ـــ يا مى .. الأيام تمر .. وكل يوم يقولون لى .. عندما تكبر .. وأنا لا أكبر .

وربتت مى ظهره فى حنان وهى تقول :

ـــ أنت كبرت يا خالد .. هل تذكر عندما كنت تتعثر فى خطواتك .. وكنت أحملك إلى الحديقة ؟

ـــ لا أذكر شيئا .. إننى لا أذكر نفسى إلا وأنا أسير على قدمى كما أفعل الآن .

وضحكت مى قائلة :

ـــ هل تظن أنك ولدت واقفا ؟

ـــ ولم لا ..

ـــ يا عبيط .. طالما حملتك على كتفى .

ـــ المهم الآن .. متى ستصبح هذه الماسورة بندقية .. وكيف ؟..

ـــ اصبر .. اصبر يا خالد .. الطريق ما زال طويلا أمامنا .. وسيأتى اليوم الذى نتلهف نحن على بندقيتك .

ووصل الاثنان إلى البيت .

وكادت مى تجتاز الباب عندما توقفت أمامه وقد لفتت نظرها علامة (×) بالأحمر ..

وسألت خالدا فى دهشة :

ـــ من رسم هذه العلامة ؟

— لا أعرف ..

— أكانت موجودة عندما خرجنا ؟.

— لا أذكر ..

— عجيبة ..

ودخلت إلى البيت وهى لا تستطيع أن تمنع رجفة تسرى فى جسدها ..

١٢

بعيداً عن صُدورنا !

هبط الظلام .. وأقبل الشيخ عبد السلام يتساءل :

ــ أعاد عمار ؟

وردت مى :

ــ ليس بعد ..

وكانت مى يساورها قلق منذ أن عادت من المدرسة وأبصرت بالعلامة الموضوعة على الباب .. ولم تحاول أن تسأل خالتها عنها خشية أن تبعث فى نفسها الجزع .. لم تفعل أكثر من أن سألت ببساطة :

ــ هل حضر أحد .

ــ مثل من ؟

ــ أى واحد ..

ــ حضر صبى البقال والمكوجى .

ــ فقط ؟

ــ من يمكن أن يزورنا سوى هؤلاء .. هل كنت تتوقعين أحداً ؟.

ــ أبدا .. مجرد سؤال .

ولم يذكر الأب شيئا عن العلامة .. مما يقطع بأنه لم يرها .. ولم تعرف مى هل تخبره أم لا ..

لقد كانت تفضل أن تخبر عمارا .. فهو بلا شك أقدرهم على التصرف .

وقال الأب وهو يستقر على المقعد ويخلع نعليه :

ــ أخبار لا بأس بها .

وتساءلت مى فى شيء من الدهشة :

ـــ ما هى ؟..

ـــ كان لقاء الجماعة فى الخرطوم طيبا .

وتساءلت فاطمة فى دهشة :

ـــ أى جماعة ؟

ـــ الرؤساء .. أنهوا حكاية اليمن .. وقرروا تقديم الدعم المادى لكى تواصل البلاد المعتدى عليها قدرتها على مقاومة أى ضغط اقتصادى والصمود أمام كل أنواع التهديدات .

ولم يبد على أحد من أهل البيت اهتمام بقول الرجل .

وتساءل خالد محاولا أن يجد الإجابة على السؤال الذى يشغله :

ـــ يعنى سنضرب إسرائيل ؟

ـــ ليس بعد ..

ـــ إذن ماذا فعلوا ؟

ـــ المهم أن نقف على أقدامنا .. ولا نخر راكعين .. أنت لا تعرف ماذا أصابنا .. لقد أخذنا ضربة قاضية .. كان يمكن أن تصرعنا ..

وهز الرجل رأسه فى رضاء ثم استطرد قائلا :

ـــ حسنا فعلوا .. وإلا كانت تصبح مصيبة على العرب .

ولم يبد على فاطمة أنها تعبأ كثيرا بما فعل الرؤساء .. كان ما يقلقها هو عودة عمار ، ولم تلبث حتى تساءلت فى ضيق :

ـــ لماذا تأخر عمار ؟

وتساءل الرجل فى دهشة :

ـــ هل حدد لك موعدا لعودته ؟

وردت مى وهى تجد الأم تطرق صامتة :

ـــ عندما قلت له لا تتأخر .. قال سأحاول .

وكان عمار فى ذلك الوقت منحنيا على ورقة يفحصها تحت ضوء مصباح وبجواره يحيى وأمامهما عبد المجيد .

وقال عمار وهو يشير إلى نقطة فى الورقة .

— هنا تقاطع الطريق بين القدس وتل أبيب .

ورد عبد المجيد :

— أجل ..

— والقطار سيصل إلى هنا فى التاسعة ؟

— المفروض ذلك .. لقد قال لى صاحبنا إنه سيغادر المحطة فى السابعة والنصف محملا بالمؤن والذخائر .

— إن الوقت قد أزف .

— أرجو أن تحذرا جيدا .. لا تمرا بالمزلقان لأن عليه حراسة .. لقد وضعت حقيبة اللغم فى العربة ..

وصمت برهة ثم استطرد يقول :

— وسأترك لكما العربة بما فيها .

ومضت فترة صمت ونظر عبد المجيد إلى ساعته .

— سأترككما الآن حتى أعود إلى القيادة ..

— ومتى سيحضر مصطفى ؟

— المفروض أنه فى طريقه إليكم ..

— ألديه معلومات كافية ؟

— لقد درس الموقع على الطبيعة .. واحد منكم يقف على الربوة للمراقبة .. وواحد ..

وقاطعه عمار :

— سنعرف كيف نوزع العمل بيننا .. قم أنت حتى لا تضيع الوقت .

وتسلل عبد المجيد فى الظلام ، ومر الوقت بطيئا وحاول يحيى أن يقطعه

بالحديث فقال :

ـــ سمعت أخبار الخرطوم ؟

ـــ أجل ..

ـــ ما رأيك ؟

ـــ شيء يبعث على الأمل .. إنها جرعة تعيننا على الصمود . والقوات المصرية قد وقفت على ساقيها .. إنها تحتل مواقعها على طول القناة فى مواجهة العدو .

ـــ وفى الوقت نفسه بدأت عمليات الإرهاب والتعذيب فى الأرض المحتلة .

ـــ إنهم يحاولون إرغامنا على أن نترك بيوتنا .

ورد عمار فى حزم :

ـــ لن تتكرر مأساة ٤٨ أبدا سنبقى حتى ندفن فى أرضنا .

ـــ إنهم يحاولون إقامة المستعمرات وينزعون الملكية العربية فى بعض المناطق من أجل توطين اليهود ..

ـــ لن نمكنهم من هذا .. سنجعلها جحيما من حولهم .

ونظر يحيى إلى الساعة فى قلق ثم قال :

ـــ تأخر مصطفى .

ـــ لننتظر بضع دقائق أخرى .

وأرهف السمع لعله يسمع وقع أقدام .. ولكنه لم يسمع سوى دقات الساعة تقطع الصمت فى رتابة وإصرار .

وأطبق عمار الورق ودسه فى جيبه ثم قال فى ضيق :

ـــ ما العمل ؟..

ـــ إننا لا نستطيع العمل بدونه ..

ـــ ولا نستطيع الانتظار أكثر من هذا .. وإلا ضاعت الفرصة ..

وفجأة نهض عمار قائلا ليحيى :

— لا بد أن أمرا خطيرا قد عاقه ..

— مثل ماذا ؟

— ربما قد اعتقل .

— أتعتقد هذا ؟..

— كل شيء جائز .. فلست أظنهم سيغفلون عنا .. إنهم يراقبون كل شيء وسينكلون بنا . .

وصمت يحيى برهة ثم تساءل :

— هل نؤجل العملية ؟

ورد عمار في إصرار :

— هذه عملية لا تؤجل .. إما أن تتم الآن .. أو يمر القطار بسلام لتفرغ ذخيرته في صدورنا .. ونحن لا نستطيع أن نصطاد كل يوم مثل هذا الصيد .. والجماعة لن يغفروا لنا مثل هذا الإهمال ..

— وماذا نستطيع أن نفعل .. هل هناك وقت للرجوع إليهم ؟

— لا .

— وليس أمامنا أحد نعتمد عليه .

وصمت عمار برهة ثم اتجه إلى الخارج قائلا :

— تعال .. أسرع .

— إلى أين ؟

— إلى البيت .

— بيت من ؟

— بيتنا .

— لماذا ؟

— أعتقد أن هناك شخصا يمكن الاعتماد عليه .

— من ؟

— مى .

وتساءل يحيى وهو يجلس بجواره :

— أتظن مى تحتمل مشقة العملية ؟

— مى صبور .. وشجاعة .. ولها جلد على العمل كالرجال .

وساد الصمت برهة ثم عاود يحيى الحديث :

— إننا سنحدث ضجة تثير الريبة .

— ستقف بالعربة بعيدا وسأهبط أنا وأعود بها معى .

— أى إزعاج ستوقعه بأمك وأبيك .. ماذا ستقول لهما ؟

— سأقول إننا نحتاجها لتمريض أحد الجرحى .

وتنهد يحيى ثم قال :

— أمعقول هذا ؟

— ليس أمامنا سواه .

وانطلقت العربة تشق الظلام .

وعلى ناصية الشارع توقفت وهبط منها عمار وكان يبدو فى الميدان بعض الجنود الإسرائيليين .

وأحس يحيى بالقلق فقال لعمار :

— لن أقف بالعربة حتى لا أثير الشبهات .. سأدور دورتين ثم أعود إلى هنا .. لا تتأخر ..

وأسرع عمار إلى البيت .

وقبل أن يطرق الباب كانت مى تفتحه وتهتف به وهى تتنهد بارتياح :

— عدت يا عمار ..

وأفسحت له الطريق ولكنه لم يدخل بل قال فى لهجة مقتضبة :

— إنى أحتاج إليك يا مى .

— خير يا عمار .. ماذا حدث ؟

— ليس هناك وقت للشرح .

وصاح صوت الأم من الداخل متسائلا :

— عمار ؟..

— أجل .

— الحمد لله .

وأقبل الأب فى خطواته المتثاقلة وقد علت وجهه البشاشة وفى أعقابه خالد .

— ادخل يا عمار .

ورد عمار فى عجلة :

— لقد عدت لآخذ مى .

وتساءل الأب فى دهشة :

— تأخذ مى .. إلى أين ؟

— أحد رفاقنا جريح ويحتاج إلى تمريض .

— من هو ؟

— صديق لا تعرفه .. اسمه مصطفى .

— وماذا جرى له وأين هو ؟

— ليس هناك وقت لكل هذه الأسئلة يا أبى .. تعالى يا مى .

— حاضر يا عمار .. فقط أضع معطفى على كتفى وألبس حذائى .

وتساءلت الأم وهى تقبل جزعة :

— ماذا حدث ؟

وسحب عمار مى من يدها للخارج وهو يقول لأبيه :

— قل لها يا أبى .

وصاحت الأم فى ضيق :

— ألا أعرف ماذا يجرى فى هذا البيت ؟

وهتف بها عمار :

ـ لا تصرخي هكذا .. سنعود بعد قليل .

وانطلق من الباب تتبعه مى ..

وفى الطريق تساءلت مى :

ـ أين هو ؟

وتساءل عمار بذهن شارد :

ـ من ؟

ـ الجريح .

ـ أى جريح ؟

ـ الذى قلت عنه .

ـ آه .. إنه ليس جريحا ..

ـ ليس جريحا .. هل ..

ـ أعنى ليس هناك جريح .. وإنما هناك عملية نحتاج إليك فيها ..

ـ أية عملية ؟!

ـ سأخبرك بها عندما نركب العربة .

وعلى الناصية أقبل يحيى بالعربة فدلف إليها عمار ومى ، وانطلق بهما فى الظلام .

وجلست مى متوترة الأعصاب تحملق فى ظلمة الطريق وهى تنتظر كلمات شرح من شفتى عمار المغلقتين تفسر لها هذا الخروج الخاطف المفاجئ .

ولم تطق الصبر طويلا لهذا الصمت المقلق فسألت فى حيرة :

ـ إلى أين ؟

وباختصار رد عمار :

ـ سننسف قطار السكة الحديد القادم من تل أبيب .

وترددت مى برهة قبل أن تتساءل فى شىء من الدهشة :

— وأنا سأشترك معكما ؟

— أجل .

وصمت برهة ثم أردف فى لهجة مقتضبة حازمة :

— انتظرنا مصطفى حتى آخر لحظة .. والعملية لا تحتمل التأجيل .. لأن القطار لا ينتظر ..

وأردف يحيى يقول :

— ووقعنا فى ورطة شديدة .. فقد كان علينا إما أن نلغى العملية وتضيع علينا فرصة نادرة .. لتدمير أسلحة وذخائر .. كانت حتما ستوجه إلى صدورنا .. أو نبحث بسرعة عن بديل لمصطفى يمكن أن نثق فى قدرته .. وفى شجاعته ..

وصمت وهو ينحدر يمينا ليتفادى دورية إسرائيلية تقف فى نهاية الطريق .

وعندما أحس بأمان استطرد يقول :

— وكنت أول من خطر ببال عمار .

ولم تملك مى من أن تتساءل فى فرحة ودهشة :

— أنا ؟

ولم يجب عمار ، كان يتطلع إلى الطريق فى شرود وقلق :

وعاود يحيى حديثه قائلا :

— وخشيت ألا تحتملى مشقة العملية .. ولكن عمارا .. قال عنك كلاما مطمئنا .

وابتسمت مى رغم التوتر الذى يشد أعصابها ، وقالت وهى تنظر إلى عمار :

— ماذا قلت عني يا عمار .. لم أتوقع قط أنك يمكن أن تثق بى فى أمر كهذا .

ولم يجب عمار . ورد عنه يحيى قائلا :

— قال إن لك جلد الرجال على العمل .. وإنك صبور وشجاعة .

وازدردت مى ريقها وهمست وهى تنظر إلى ظلمة الطريق :

— أرجو أن أكون عند حسن ظنكما .. ماذا أستطيع أن أفعل ؟

وتكلم عمار دون أن ينظر إلى مى محاولا شرح المهمة :

— ستقفين عند نقطة للمراقبة .. وتعطين لنا إشارة ضوئية عندما يقترب القطار من شجرة الكافور القائمة على الجسر .. حتى تعطينا الفرصة الكافية لإشعال اللغم .. بحيث يضبط الانفجار فى اللحظة التى يمر بها القطار .

وصمت عمار . وانتظرت مى أن يتمم حديثه ولكنه لم يقل شيئا أكثر مما قال .

فتساءلت مى فى شيء من الحيرة :

— وبعدين ؟..

— تعودين إلى العربة .

— فقط ؟

— أجل .

— أهذا كل ما فى الأمر : أجلس لأعطى إشارة ضوئية ؟

وصمت يحيى ورد قائلا :

— وماذا تريدين أن تفعلى أكثر من هذا ؟

— وأى شجاعة .. أو جلد .. يحتاج إليه هذا ؟

— يحتاج إلى أعصاب قوية .. أن تنتظرى حتى يقترب القطار وتعطى إشارة فى اللحظة المضبوطة .

— أى إنسان يمكن أن يفعل هذا ..

ورد عمار :

— ليس فى كل ما نعمل شيء يستحيل على أى إنسان .. إنها كلها أعمال بسيطة يا مى .. ولكنها فقط تحتاج إلى من يفعلها .

وصمت لحظة ثم استطرد قائلا فى استخفاف :

— نحن مثلا لن نفعل أكثر من أن نضغط على مفجر اللغم .. عندما تعطينا

الإشارة ..

وقال يحيى ضاحكا :

ـــ وأى إنسان يمكن أن يفعل هذا .

وقال عمار وهو يطلق ضحكة قصيرة ساخرة من أنفه :

ـــ والطلقة التى تستقر فى قلب العدو .. لا تحتاج إلا لسبابة تضغط برفق على زناد البندقية .. أو زر الرشاش .. وأى سبابة يمكن أن تفعلها .

واستمر فى ضحكته الساخرة وهو يقول :

ـــ البطولة ليست مستعصية .. إنها مجرد ضغطة سبابة .

وقال يحيى متمما :

ـــ أو إشارة بطارية .

وردت مى :

ـــ كان يخيل إلى .. أن هناك .. أشياء أشق .. وأضخم .

وقال يحيى :

ـــ أبدا .. كلها أشياء بسيطة .. ولكن المهم فى أن نقدم عليها .

واستدرك عمار قائلا :

ـــ وفى أن نكون على استعداد لتحمل عواقبها .. فقد لا تكون الصورة بمثل هذه البساطة التى نرسمها .. إشارة تعطى ولغم يفجر .. وقطار يدمر .. ثم نعود ببساطة إلى العربة .. كأننا فى نزهة .. إن هذا هو ما نأمله ..

وضحك يحيى قائلا :

ـــ ولكن من يدرى .. ماذا يمكن أن يحدث .. البطارية فى يدك مثلا قد لا تعطى إشارة .. تتوقف .. ينفد الحجر .. واللغم قد يرفض الانفجار .. مفاجآت غير سارة تنبت فجأة .. وقد نفاجأ بكمين ينتظرنا .. وقد .. وقد .. هنا المشقة .. وهنا يصبح علينا أن ندفع الثمن .

وابتسمت مى قائلة :

— الثمن لن يكون أكبر من حياتنا .. وسندفعه ببساطة .

— يمكن أن يكون اعتقالا وتعذيبا من أجل أن يمسكوا بخيط يجرون به عددا أكبر .

وفجأة ضحك يحيى قائلا :

— ما هذا الذى نفعله .. إننا ندفع بالرعب إلى قلبك بلا مبرر .. سيكون كل شيء على ما يرام .. ستعطين إشارة .. وسيفجر اللغم . ونعود إلى بيوتنا لنغتسل وننام .

وردت مى بابتسامتها الرقيقة فى صوت هادئ النبرات :

— ربنا ينصرنا .. دعونا نقرأ الفاتحة .. إنها دائما تفتح لى الطريق .

وتمتم الثلاثة بالفاتحة .

ثم مد عمار يده إلى حقيبة بجواره فأخرج منها إحدى القنابل التى تملؤها ثم سلمها إلى مى قائلا :

— ضعى هذه فى حقيبتك .. لو حدثت أية مفاجأة غير متوقعة .. لو اكتشف العدو أمرنا .. وهاجمنا فانزعى طابة الأمان .. هكذا .. ثم ألقيها عليهم .. وهذه هى البطارية .

ثم وجه الحديث إلى يحيى قائلا :

— أظن من الأفضل أن نتوقف ...

وتوقفت العربة .. وهبط الثلاثة منها يحملون معدات النسف ..

وقال عمار :

— اذهب أنت يا يحيى باللغم .. حتى أصحب مى إلى نقطة المراقبة .

وتساءل يحيى :

— وسنعود لنلتقى بعد العملية فى العربة ؟..

ورد عمار :

— أفضل ألا نعود إلى العربة .. سأرفع عنها الرقم .. وليتخذ كل منا

طريقه .. إلى البيت .. فهذا خير من أن نسير متجمعين .. أو نركب العربة معا ..

ثم وجه الحديث إلى مى قائلا :

— هل تستطيعين أن تعودى وحدك يا مى ؟

— طبعا ..

— إن عودتك وحدك .. أكثر أمانا لك .. والقنبلة معك استعمليها وقت الحاجة .

وردت مى :

— وكيف أطمئن عليكما ؟..

— عندما تسمعين الانفجار .. اعرفى .. أن الأمر قد انتهى ..

وقال يحيى ضاحكا :

— أمرنا نحن .. أو أمر القطار ..

وسارت مى تتبع خطا عمار .. وضمت ياقة معطفها إلى عنقها .. لتتقى ريح الليل الباردة التى تتسلل إلى صدرها .. وكانت يدها تطبق على القنبلة البيضاوية بسطحها المجعد أشبه بقشرة السلحفاة وفى يدها الأخرى البطارية .

ووصلا إلى منطقة السكة الحديد .. وصعدا الجسر وهبط عمار على الأرض وهبطت بجواره مى .

وقال عمار مشيرا إلى الشريط المنساب فى الظلمة كالأفعى :

— من هنا سيأتى القطار .. عندما تعبر مقدمته هذه النقطة .. أعطى الشارة ..

ثم أشار إلى الاتجاه الآخر :

— إننا سنكون هناك .. فى بقعة ما وراء إحدى هذه الأشجار .. أعطى الشارة .. ثم انسحبى من مكانك فورا .. وعودى إلى البيت .

وردت مى فى قلق :

— وأترككما ؟..

— سيعود كل منا فى طريقه بعد أن يفجر اللغم .

وهبط عمار من فوق الجسر تاركا مى .

وهمست مى :

— مع السلامة ..

وجلست مى على الجسر بجوار الشجرة . وبدت النجوم تبرق من خلال السحب وريح الليل الباردة تسرى فى أوراق الشجرة فتصدر صوتا أشبه بالفحيح وصفير صرصور يفح فى عناد كأنه يتحدى الصمت . ونباح كلب يعلو من بعيد . وأضواء المدينة تخفق مرتجفة شاحبة .

وشدت مى أصبعها على البطارية واضعة إبهامها على الزرار استعدادا لضغطه . وأطبقت بكفها الأخرى على البيضة الصلبة المجعدة السطح . وثبتت عينيها فى الأفق المظلم الذى ينساب فيه الشريط الحديدى وبدأت أذناها تلتقطان أصواتا موهومة .. لطرقات قطار لا تلبث أن تتبدد .

« إنها شجاعة وصبور .. ولها جلد الرجال .. » ألم يقل عنها عمار هذا ؟.

لم يخطر لها ببال أن هذا يمكن أن يكون رأيه فيها . فهو دائما لا يمنحها غير الصمت والتجهم والسخرية ..

ولقد ودت أن تفعل شيئا تستحق عليه هذا التقدير .. شيئا أكثر من ضغط زر البطارية .

ولكن هذا هو ما يحتاجونه منها .. كم ودت لو كانت بجواره تفجر معه اللغم وتفديه بنفسها وتحميه من كل سوء .

وعادت قبضتها تشد على البطارية .. والصرصور يصفر فى إلحاح .. والريح تنفخ فى الشجر .. ونباح الكلب يعلو .. تأخر القطار ..

لا يسمع له حتى صفير من بعيد .

لماذا لا يأتى قبل أن يحس بهم أحد ؟..

برق سيارة يسمع من بعيد .. لعلها لا تكون دورية إسرائيلية .. وأطبقت يدها على القنبلة .. وتحسست طابة الأمان . وأصابتها على الرغم منها رجفة ..

إذا اقتربت العربة .. فسيكون مصيرها الدمار .. سترفع الطابة .. وستقذف بها على طول ذراعها .. وخفت صوت البوق وتباعدت العربة .

وفجأة سمعت صفيرا يدوى ..

وبدا ضوء القطار فى المنحنى وطرقاته تتواتر منتظمة متلاحقة ، والتصقت فى الشجرة كأنها تجد بها نوعا من الوقاية ..

واقترب القطار .. وازدادت الطرقات وضوحا .. وأخذت أنفاسها تتلاحق .. وأصابها إحساس بالخوف لا تدرى سببا له ..

كل ما عليها هو أن تنتظر حتى يصل القطار إليها .. فتضغط زر البطارية .. وزاد ضجيج القطار .. واقترب شبحه الأسود حتى بدا كأنه يوشك أن يدهمها .

وضغطت بإبهامها زر البطارية .. مرة .. بعد مرة ..

ومرت بها عربات القطار مسرعة .. وهى تنظر إليها مشدوهة وتذكرت مى أن عليها أن تهبط بسرعة من فوق الجسر .. وتنطلق .. ولكنها أحست بجسدها يتسمر مكانه . حتى جاوزها القطار .. وفجأة سمعت صوت دوى عنيف .. وأبصرت وهجا يخطف الأبصار ..

وأخذت الانفجارات تتوالى .

واندفعت تهبط من الجسر تعدو بعيدا عن الانفجار .

أين عمار ويحيى ؟..

هل يمكن أن يكون الانفجار قد أصابهما ؟

هل يمكن أن تكون دوريات العدو قد أطبقت عليهما ؟.. لماذا لم تذهب إليهما .. لتكون معهما .

أن ينطلق فى طريقه .

وسمعت أصوات أبواق عربات تقترب من مكان الانفجار .. وتعالى الضجيج .

ودلفت هى وسط المبانى القائمة فى طرف المدينة . وكفت عن العدو حتى تلتقط أنفاسها وحتى لا تثير الشبهات .

وكان الناس قد استيقظوا على صوت الدوى والانفجارات التى تلاحقت بعده . وأخذ الوهج يضىء دائرة كبيرة حول شريط السكة الحديد .

وبدأت مى تعرج من طريق إلى طريق حتى وصلت إلى الحى الذى تقطن به . وكانت السيارات الإسرائيلية المسلحة لا تفتأ تمر بها بين آونة وأخرى وكلما مرت بها سيارة أطبقت يدها على الجسد البيضاوى لتتحسس طابة الأمان .. ولكن أحدا لم يستوقفها .. إلا فى بعض محاولات للعبث .. أشاحت عنها بوجهها .. وواصلت السير فى هدوء حتى بلغت البيت .. وطرقت الباب .

وبدا كأن الشيخ عبد السلام يقبع خلفه فقد صاح متسائلا ويده على الرتاج :

ـــ من ؟

ـــ أنا .

وفتح الباب ونهض ليلقاها فى لهفة متسائلا :

ـــ تأخرتم علينا .. أين عمار ؟

ـــ قادم .

ـــ وكيف الحال ؟

ونظرت مى إلى الشيخ عبد السلام وأطلقت تنهيدة فرحة وغمغمت قائلة :

ـــ نسفناه يا عمى ..

وتساءل الشيخ عبد السلام فى دهشة :

ـــ ما هو الذى نسفتموه ؟

— القطار . بكل ما فيه من ذخائر وأسلحة .. لو كنت رأيت الوهج .. وسمعت الدوى .. لارتاح قلبك ..

وردد الشيخ عبد السلام كلامها فى ذهول :

— نسفتم القطار .. أذهبت معهم هذا ؟

— أجل ..

— أهذا الدوى الذى سمعناه .. كان من صنعكم ؟

— أجل .. لقد فجرناه فى الهواء .. بدل أن يفجروه فى صدورنا .

— ولكن أين عمار ؟

— لا بد أنه قادم ورائى .

— هل هو بخير ؟

وأخذ قلب مى يدق فى خوف وقالت تحاول أن تبعث الطمأنينة فى نفسها قبل أن تبعثها فى قلب عمها :

— أجل .. أجل .. إنه بخير .

وعلا صوت الأم من الداخل متسائلة :

— ماذا هناك يا عبد السلام .. هل حضر الأولاد ؟

— أجل ..

— والجريح بخير ؟

— أجل .. أجل .. كل شيء بخير إن شاء الله .

وقبل أن يتجه إليها الشيخ عبد السلام .. سمعت وقع أقدام تعلو الدرج .. وطرق الباب .. وسمع صوت عمار يقول فى عجلة :

— افتح يا أبى .. أنا عمار .

وأقبل عليه الشيخ عبد السلام يتحسسه فى لهفة قائلا :

— أأنت بخير يا عمار .. ؟

— أجل يا أبى .. ولكنهم الآن قد بدأوا يهاجمون البيوت ليفتشوا عن

الأسلحة .. وعن الفدائيين .

ثم سأل مى :

— أين القنبلة التى كانت معك ؟

وأخرجت مى القنبلة من جيبها قائلة :

— ها هى .

— هاتيها لأدفنها فى الحديقة .. مع بقية ما فى الحقيبة . لقد أبصرت على خارج الباب علامة × .. ولا بد أنهم سيفتشون بيتنا ..

وأقبلت الأم من حجرتها على ضجيج الحديث متسائلة فى دهشة :

— ماذا هناك ؟

ومن ورائها بدا خالد والنوم فى عينيه . ولم يكد يقع بصره على القنبلة فى يد مى حتى هتف فى فرحة :

— هذه قنبلة .. إنى أعرفها .. هل يمكن أن أمسكها ؟

.. وهتفت الأم فى فزع :

— قنبلة .. أبعدوها .

وصاح عمار فى غيظ :

— ما كل هذا الضجيج .. اذهبوا وناموا .. ودعونى أخفيها فى الحديقة .. فلا أحد يعلم متى يقبلون ..

واندفع بالحقيبة إلى الحديقة ووراءه خالد والأم تمسك به من عنقه وترده إلى حجرة النوم :

— اذهب يا مجنون .. ونم .

وهتف خالد فى إعجاب :

— إنها قنبلة حقيقية ..

ثم صاح بعمار :

— ضعها عندك بجوار بندقيتى .. سيصبح لدينا مخزن سلاح .

١٣

لن يهجروه ..

استلقت مى على فراشها بعد أن آوى الجميع إلى مضاجعهم .

حاولت أن تغمض عينيها ولكن الوهج كان يلوح مضيئا وراء أجفانها المطبقة والدوى يملأ مسامعها .

وعندما أثقل الإعياء جفونها .. جرها إلى أحلام مليئة بالصراخ .. والدماء .. وعربات الإسرائيليين تنشر الدمار حولها .. تهدم البيوت وتقتلع الأشجار .

وما لبثت أن استيقظت على حركة الشيخ عبد السلام المتثاقلة استعدادا للوضوء وللصلاة فأدركت أن الفجر قد أقبل وتملكها إحساس بالراحة أن الليل قد ولى ..

وزادت الحركة فى الدار فلم تشك فى أن عمارا هو الآخر قد استيقظ .. ونفضت بقايا النوم عن جفونها لعل عمارا يحتاج إلى شيء قبل أن يغادر الدار .

وقبل أن تترك الفراش سمعت بوق عربة ووقع أقدام تصعد الدرج ثم طرقات عنيفة متواصلة على الباب .

وأصابتها رجفة وتسمرت فى مكانها برهة ثم اتجهت إلى غرفة عمار ووقف عمار ينصت مأخوذا والطرقات تتوالى فى عنف ثم خطا إلى الباب فهتفت مى :

ـــ لا تفتح .. إنهم هم .

ـــ لا فائدة .. سيحطمون الباب إن لم نفتحه .

وعلا صوت الشيخ عبد السلام من حجرته بعد أن ختم صلاته قائلا :

ـــ انتظر يا عمار .. سأفتح أنا .

ولكن عمارا كان قد وصل إلى الباب وفتحه .

واندفع من الباب بعض جنود إسرائيل يحملون مدافعهم ودفع أحدهم عمارا فى صدره بفوهة مدفعه صائحا :

— افسح الطريق ..

ثم صاح بالآخرين :

— فتشوا البيت .

وبدت فاطمة فى باب البهو المؤدى إلى حجرتها وقد وقفت تنظر إليهم وبدا عليها جزع ممزوج بالحقد وهتفت بهم وهى تحاول أن تمسك بخالد الذى همّ بأن يخرج إليهم متحديا ..

— ماذا تريدون ؟

وصاح بها أحدهم وقد تسرب الباق بأسلحتهم إلى بقية حجرات البيت :

— سنفتش البيت .

وتساءل الشيخ عبد السلام :

— لماذا ؟

وصرخ به الرجل فى عصبية :

— سنعرف كيف نؤدبكم .. إنكم تخزنون الأسلحة وتؤوون الإرهابيين .

وتمتم الشيخ عبد السلام :

— إرهابيين ..

وصرخ فيه الرجل :

— أجل ..

— إنهم أبناؤنا .. إنهم نحن .. إننا نمارس حقنا الشرعى فى مقاومة احتلالكم .. إننا نريد حريتنا .. لماذا لا تقبضون علينا جميعا ؟

— سنفعل .. لن يفلت منكم أحد ..

وكان الجنود قد أخرجوا كل ما فى الدواليب والصناديق .. وبدا البيت كأنما قد هب عليه إعصار قلب كل ما فيه رأسا على عقب .

وصاحت فاطمة :

— ربنا ينتقم منكم ..

وعندما انتهى التفتيش صاح قائدهم :

— ليصعد بعضكم إلى السطح وليفتش أحدكم فى الحديقة .

ورفع خالد عينيه إلى عمار . ونظر إليه عمار نظرة صارمة .. فلم ينطق بكلمة .

وبعد برهة عاد الجنود يؤكدون :

— لا يوجد شىء .

وهتف قائدهم بعمار :

— اخرجوا .

وسأله عمار فى دهشة :

— إلى أين ؟

ودفعه الرجل بفوهة المدفع فى صدره وصاح به غاضبا :

— أستحقق معى ؟ .. قلت لكم اخرجوا .. يعنى اخرجوا .

وأمسك عمار بماسورة المدفع يلويها بعيدا . وقال له فى حقد :

— سأخرج أنا معكم .

— بل ستخرجون جميعا .

— إن أبى رجل كبير ومريض .

— الجميع سيخرجون للتحقيق ..

— التحقيق فى ماذا ؟

— فى نسف القطار .. وفى الهجوم على إحدى الدوريات .

وأشار عمار إلى مى وإلى أمه وخالد :

— والمرأتان والطفل سيحققون معهم ؟

وصاح الرجل وهو يتأمل فى نظرة فاحصة :

— لتبق العجوز والولد .

وهتفت فاطمة فى إصرار :

ـــ بل سأذهب معكم .

وقال الشيخ عبد السلام راجيا :

ـــ ابقى يا فاطمة .. ابقى مع الولد ..

ولم تشرق الشمس إلا وقد سيقت الجموع إلى الأرض الخلاء التى تقع وراء الدور بفوهات المدافع فى ظهورهم .

ومرت الساعات الثقيلة .. والناس فى العراء .. والمدافع مسلطة عليهم .. وبين آونة وأخرى يساق بعض منهم إلى إحدى العربات حيث تنطلق بهم إلى حيث لا يعلم أحد .

وقبيل العصر .. سمع دوىّ شديد .. ثم توالت الانفجارات وعلا الدخان من وسط البيوت .

وعندما انقشع الدخان .. بدا الحى .. كله مجموعة من الخرائب والأطلال

ونظر الشيخ عبد السلام إلى الجُدُر المنقضة من بعيد وهتف فى ارتياع :

ـــ فاطمة ..

وصاحت مىّ فى جزع :

ـــ خالد .

ورد عليها عجوز جلس على الأرض بجوارها :

ـــ خير لنا أن نرحل .. أن ننجو بأعمارنا .

ورد الشيخ عبد السلام وقد تصلبت عضلات وجهه :

ـــ بل سنبقى .

ـــ فوق الأنقاض ؟!

ـــ بل وتحتها .

وبدا الجنود الإسرائيليون يخرجون الشبان من بين الصفوف وأمسك أحدهم

فصاحت مى بالرجل :

— إلى أين ستأخذه ؟

— إلى التحقيق .

— تحقيق فى ماذا ؟

— فى الحوادث التى وقعت .

— ألم يكفكم بيوتنا التى هدمتموها على رءوسنا .. ألم يكفكم كل ما فعلتموه بنا من تعذيب وتشريد ..

وقال الرجل ساخرا :

— إننا نريد الأرض خالية .

وهتف الشيخ عبد السلام :

— لن نتركها أبدا .

— لن نبقى لكم فيها شيئا .

— ستبقى الأرض .. أرضنا .

— لن تجدوا فيها غير الدمار .

وصاح الشيخ عبد السلام :

— ولن تجدوا فيها أنتم غير الهلاك .

وسيقت جموع الشباب بمدافع الجنود إلى السجون.. ومن بينهم عمار . وأحست مى بقلبها يعتصر فى صدرها .. وودت لو استطاعت أن تفديه بنفسها .

وسار الشيخ عبد السلام متثاقلا وقد هده الحزن والأسى وسارت مى وقد أطبق عليها اليأس متجهين صوب الدار .

وقال عبد السلام كأنما يحدث نفسه :

— ليتنى تركتها تخرج .. أنا الذى قلت لها ابقى مع الولد .

وردت مى فى لوعة :

ـــ لينجهما الله ..

ودخل عبد السلام قرب البيت .

كان الشارع كله يبدو أطلالا وأنقاضا والدخان يتصاعد وانفجارات مازالت تدوى بين آونة وأخرى وأصوات صراخ وأنين تتعالى من بين الأنقاض . وعربات الإسعاف تقبل لرفع الحجارة والأتربة وإنقاذ الضحايا .. وعربات الحريق تخترق الطرقات بسرعة لإطفاء الحرائق .

وأحس عبد السلام أنه لا يكاد يقوى على السير .. واستند على ذراع مى وهو يقترب من البيت .

ولم يكد يصل إلى الباب حتى أبصر خالدا مندفعا إليه باكيا وهو يصيح :

ـــ أمى ..

وهتفت مى مندفعة تجاه البيت :

ـــ أين هى ؟

ـــ فى حجرتها .. كنت أقف فى الحديقة بجوار كومة الحطب .. عندما سمعت دويا فظيعا .. وسمعتها تصرخ .. وأبصرت الجانب الآخر من البيت يتهاوى .. والسقف ينقض واندفعت إليها .. فوجدت الدماء تسيل من رأسها ..

وكانت مى قد اندفعت فوق الأنقاض يتبعها الشيخ عبد السلام . كان الجانب الشرقى من البيت الذى به حجرة عمار قد انقض وهوى سقفه وبقيت الصالة سليمة مع الجزء الغربى من البيت حيث كانت ترقد فاطمة ..

واستطاعت مى أن تصل إليها وكان أحد جدران الحجرة قد تشقق وانهارت بعض حجارته والنافذة قد حطمت .

وكانت الدماء قد غطت وجه فاطمة .. وأخذت تئن أنينا موجعا .

وتهاوى الشيخ عبد السلام على الأرض وهو يأخذها بين ذراعيه وهو يهتف

ــــ مالك يا فاطمة .. سلامتك يا حبيبتى .

وتمتمت فاطمة :

ــــ أين عمار ؟

ــــ إنه بخير ..

ــــ أين هو ؟

وقالت مى :

ــــ ذهب مع إخوانه ليتعاونوا فى رفع الأنقاض وإطفاء الحرائق .

ــــ أريد أن أراه قبل أن أموت .

وصاح عبد السلام :

ــــ أنت بخير يا فاطمة ..

وأسرعت مى إلى الحمام تحضر فوطة مبللة بالماء وأخذت تمسح الدماء عن وجه فاطمة .

وتكشفت الدماء عن جرح فى رأسها .

وحاولت مى أن تسحب جسد فاطمة من أسفل الحجارة ولكنها صرخت فى ألم ، وهى تهتف متوجعة :

ــــ ساقى .

وأدرك الشيخ عبد السلام أن الساق كسرت .. وضمها إليه فى أسى ويأس وهتف وهو يرفع رأسه إلى السماء :

ــــ يا رب .. الطف بنا يا رب ..

وأحست مى بالعجز وهى لا تعرف ماذا تفعل .

الحى كله قد أضحى أطلالا لا يسمع منه سوى أنين وصراخ .. ولا يبصر فيه سوى الغبار والدخان والكل فى حاجة إلى إنقاذ ..

ووضعت الفوطة المبتلة على رأس خالتها .. التى ما فتئت تردد أسماء أبنائها :

ــــ أين عمار .. لماذا لا يحضر ؟..

ويتمتم عبد السلام :

— حالا .. سيأتى .. إنه يؤدى واجبه يا فاطمة .

وتعاود فاطمة أنينها :

— عايدة .. ابنتى .. حبيبتى ..

وترد عليها مى :

— إنها بخير يا خالتى .

ولا تلبث أن تهتف :

— خالد :

ويقترب منها خالد مجيبا والدموع فى عينيه :

— أنا هنا يا أمى ..

وهتفت مى :

— هذا الاستسلام لن يجدى .. لا بد أن نفعل شيئا .

وقالت للأب :

— سأذهب لأرى طبيبا ..

وتمتم الأب :

— اذهبى إلى كمال ..

والتقط أنفاسه اللاهثة ثم أردف يقول :

— عسى ألا يكون قد أصابه شىء .. أو اعتقلوه هو الآخر ..

واندفعت مى وسط الأتربة والأنقاض .. وانطلقت تعدو فى الطريق ..

وعندما وصلت إلى عيادة كمال ..

وجدت البيت خاليا والعيادة مظلمة ..

وقالت لها عجوز تقبع وراء الباب :

— الدكتور فى المستشفى ..

ثم صاحت فى غضب وحقد .. خربوا البلد الله يحرقهم بنار جهنم ..

وأحست مي بعجز عن التفكير .. شدت الأحداث المتلاحقة أعصابها .. ولم تعد تعرف كيف تتصرف .

إذا كان كمال في المستشفى .. وطبيعي أن يكون هناك فإن عليها أن تذهب بخالتها إليه .. فالكسر والجرح لا يمكن علاجهما في البيت بل إن البيت نفسه لم يعد يصلح للإقامة .

وعمها لم يعد يقوى على شيء .. لقد بات إنسانا محطما ..

والمطلوب نقل الأم إلى المستشفى .. وإيجاد مكان للشيخ والولد يأويان إليه ..

إنها هي تستطيع أن تقضي كيفما كان ..

بل إن عليها أن تفعل شيئا من أجل هؤلاء الذين يئنون تحت الأنقاض .

وعمار !!

تشعر كلما ذكرته في زحمة الأحداث أن شيئا في صدرها يتمزق .

ماذا يفعلون به ..

الأنذال الجبناء ..

إن ظفره .. بعشرة منهم ..

هل يضربونه .

هل يعذبونه .

ولم لا ؟.

لماذا لم تذهب معه .. لتعذب كما يعذب .. فلعل هذا يريحها بعض الشيء ..

أجل .. سيخفف عذابها أن تشعر بما يشعر .. وأن تلاقي ما يلاقي .. وتحتمل ما يحتمل .

ولكن حتى هذا بات أمنية مستعصية .

إن عليها أن تؤدي ما يجب أن تؤديه .. بدل أن تحلم بأمنية قد استعصت عليها .. حتى ولو كانت عذابا .

اجرى يا مى إلى المستشفى .
ليس هناك وقت لتتركى خالتك فى رقدتها هذه .
أو التقطى أية عربة من الطريق .. فلعل بها صديقا يعاون فى نقل خالتك ..
والشيخ عبد السلام .. لن يترك فاطمة .
وقبل أن تنطلق إلى المستشفى لمحت عربة كمال تقترب من البيت فهتفت صائحة :
— كمال .. دكتور كمال .
ولكن كمال لم يكن بها ..
كانت تقودها أميرة .. ولم تكد تراها حتى هتفت بها :
— مى إنى أبحث عنك .. لقد ذهبت إليكم .. فقال لى عمك إنك ذهبت لإحضار كمال ..
— أجل وعرفت إنه فى المستشفى .
— لقد طلب منى أن أحضر إليكم لأرى ماذا تحتاجون إليه ولأنقلكم معنا إلى البيت .. بعد أن عرف أن خيكم قد نسف .
— لننقل خالتى أولا .. إلى المستشفى .
— أجل .. هيا بنا .
وانطلقت العربة عائدة إلى البيت .
ونقلت فاطمة فى حالة إغماء إلى المستشفى .. ولقيها كمال وقد بدا عليه الإرهاق والقلق وقام لها بالإسعافات الأولية العاجلة .. واستقرت مى فى المستشفى ترعاها وتعاون كمال فى عمله المضنى .
وذهبت أميرة بالشيخ عبد السلام وخالد إلى بيتها ..
وحاول الشيخ الاعتراض قائلا :
— ألا أستطيع أن أبقى مع فاطمة ؟
— ليس هناك أمكنة يا عمى .. أنت تعرف المستشفى مزدحم بالمصابين .

— إذن أعود إلى البيت .

— كيف .. إن البيت لا يسكن .

— أستطيع أن أمضى الليل فى حجرتى ..

— لقد تشقق جدارها .. ويمكن أن تنهار فى أية لحظة .

— سأعيد بناءها .

— يا عمى .. إن بيتنا بيتك .. ومى أختى .. ويجب أن يسع بعضنا بعضا .

وتنهد الشيخ عبد السلام وتمتم قائلا :

— لن نتركهم يطردوننا من بيوتنا يا أميرة .. سنمد جذورنا فى الأرض .. كما تمد شجرة الكافور جذورها .. لن نقتلع إلا بالأرض نفسها .. أو ندفن فيها .. حتى نختلط بترابها .

— أبعد الله الشر عنك يا عمى .. لنقضى الليلة فى بيتنا .

وقاطعها الشيخ عبد السلام قائلا فى عناد :

— وغدا سأعيد بناء البيت .. بيدى هذه ..

ومضى الليل ..

ليل لم يغمض فيه جفن لأحد ..

العيون مفتوحة .. والدوى ما زال صداه .. يطرق الآذان .

خالد .. يفكر فى مخزن السلاح المدفون فى الحديقة .

متى تصبح الماسورة بندقية ؟

عندما يعود عمار هذه المرة .. لا بد أن يستقر معه على أمر .. إما أن يصلح الماسورة .. أو يمنحه بندقية أو مدفعا .. أو .. ليعطيه بعض هذه القنابل المدفونة .

والشيخ عبد السلام .. يفكر فى رفيقة العمر الراقدة بشج فى رأسها وكسر فى ساقها .. ولولا لطف من الله لقضى عليها .

هؤلاء .. الكلاب .. متى تحين خاتمتهم .. طال بغيهم وظلمهم وعدوانهم .

لقد ركبهم الغرور .. وباتوا يتعاملون بصلافة الغزاة ..
استأسد الكلاب .. وتجبروا ..
هل كان العالم على حق حين سامهم سوء العذاب ..
هل بهم ما يثير الغل .. ويدفع إلى الغضب .
هل هؤلاء هم المساكين الذين يطلبون الاستقرار والأمان والسلام ..
الذين بقروا بطون الحبالى فى دير ياسين والذين اصطادوا الفلاحين المسالمين عند عودتهم من أرضهم فى آخر اليوم بالرصاص فى كفر قاسم .
أهو غضب ينفثونه من صدورهم المليئة بالحقد .
أهو انتقام من البشرية التى حصدتهم بالملايين وألقت بهم فى أفران الحريق كالقمامات .
ولكن .. أيا كانت مشكلتهم ..
فليس العرب .. أصحابها .. ولا أسبابها .
ومشكلة العرب قد باتت الأرض .. المسلوبة .. والوطن المنهوب .
مشكلتهم باتت فلسطين .. المقضى عليها .. والتى لا بد أن تعود .. شعبا .. وأرضا .. ووطنا .
ومن أجل هذا لن يترك البيت ..
هدموه .. دمروه .. دكوا جدرانه ساووه بالأرض .
ولكنه سيبقى فيه ..
سيقيم جدرانه .. وسيرفع سقفه .
إنه لا يشكل له مجرد بيت .. ولكنه هو وغيره .. يكون وطنا .. لا يجب أن يهجر مرة أخرى ..
إذا دفنوا فيه .. فهو وطنهم .
ليس من لوم عليهم .. إذا اختلطت أجسادهم بثراه .. ولكن اللوم أن يهجروه .. أن يتركوه وحده .

وغدا .. سيربأ صدعه .. ويرم ما بقى منه ..

سيبقى فيه .. ولو كان حجيرة واحدة .

وفاطمة ترقد فى المستشفى .. بساق فى الجبس .. وبرأس تلفه الضمادات .. وجسد مكدود محطم .. ونفس مرهقة .. وذهن .. يطارد عمارا ..

— أين عمار ؟

دائما يتركها ويختفى .. لا تعلم إذا كان سيعود أم لا .. إنه يعمل أعمالا خفية .. إنها تعلم هذا .. ولا تستطيع أن تمنعه .. فهو رجل .. وهو يعرف ما يجب عليه أن يفعله .. إنه لا يضحك .. ولكن النور فى عينه والإشراقة .. فى وجهه .

وعبد السلام .. رفيق العمر .. إنه فى حاجة إلى رعاية .. وهى قد كبرت ولا تستطيع أن تفعل له ما تعودت فعله .

ومى الرقيقة الطيبة .. أعانها الله على كل ما أمامها من مشقة .

وكانت مى تجلس على مقعد أمامها ..

مفتوحة العين .. دون أن ترى أمامها شيئا .. سوى صورة عمار ..

ابتسم يا عمار .. ابتسم يا حبيبى .. يا أعز الناس .

لن يجسر أحد على أن يمس شعرة منك ..

سأقتلهم جميعا .. لو امتدت إليك يدهم ..

هذه القنابل المدفونة فى الحديقة .. سأحفظها جيدا .. سأعرف كيف أفتك بهم إذا لم تعد إلى .. إلى أمك الراقدة تهتف باسمك .. إلى أبيك الطيب الذى يشرق وجهه عندما يلقاك ..

إلى خالد .. لكى .. تقلب له الماسورة إلى بندقية .

ومضى الليل ..

وفى الصباح كان الجميع يتحركون إلى البيت .

إلى الأنقاض والأطلال ..

تسللت مي من المستشفي لتبحث بين الأتربة عن شيء خطير ..

عن صورة عمار التي يأبى أن يبتسم فيها .. والتي رفض أن يجلس أمامها والتي قال لها عنها فى كل مرة « كفى سخافة .. وافعلي شيئا أفيد » .

ولكنها تحس الآن . بأن شيئا تحت الأنقاض .. لا يمكن أن يعادل فى الأهمية هذه السخافة .. لم تفكر فى ثياب أو حلى تنقذها من تحت الركام ..

وأخيرا عثرت عليها ..

الحمد لله .. لم يصبها تلف كبير ..

هشم البرواز .. وخدش طرفها .. ولكن الوجه كله سليم .

عابس كما هو .. ولكنه جميل .

لو عرف أنها تقول عنه « إنه جميل » لزاد عبوسه .. وأشاح عنها بوجهه .. فقد كان يكره من أمه أن تقول عنه هذا ..

ولكنه فى نظرها كذلك .. بل ليس هناك من هو أجمل منه .. وسحبت الصورة فى يدها .

وكان الشيخ عبد السلام يدور ويلف حول البيت .. هدم هذا الجانب وهوى سقفه .. لم يعد يصلح منه شيء .

وهذا الجدار قد تشقق .. والنوافذ قد تحطمت كلها ولكنه مع ذلك .. سيعيد بناءه .

وخالد يحوم حول كومة الحطب .

قالت مي وهي تقرصه فى ذراعه :

— إياك أن تقترب منه .. أو تخرج ما به .. وإلا أخذونا جميعا إلى السجن .

ولكنه فى شوق إلى تحسس القنابل .

بالليل عندما يأوى الناس إلى مضاجعهم ويسود السكون .. وينقطع صوت عربات اليهود .. سيتسلل إلى الحديقة ويخرجها ..

وفجأة سمع بوق .. ووقفت عربة أجرة أمام سور الحديقة المهدم .. ونزلت منها عايدة تنظر مشدوهة إلى البيت الذى تحول إلى أنقاض .. ولم تلبث أن رأت خالدا يقبل عليها هاتفا :

— عايدة .. ماذا أحضرك ..

وردت عايدة تسأل فى لهفة :

— أين أمك .. وأين أبوك ؟

— أمى فى المستشفى .. وأبى هنا .

وأقبلت مى على الصوت ووراءها الشيخ عبد السلام وهتفت فى دهشة :

— عايدة ..

وأقبلت عايدة على أبيها تضمه باكية وهى تهتف :

— ماذا حدث ؟

وقال الأب وهو يربت ظهرها فى حنان :

— نسفوا البيت .

— وأمى ؟.

— بخير .. أوشك أن يقضى عليها .. ولكن الله لطف بنا .. كانت الوحيدة التى بقيت فى البيت .

وهتفت عايدة والدموع تنهمر من عينيها :

— لن تبقوا هنا بعد ذلك .. سآخذكم معى .

ونظر إليها الأب وهو يهز رأسه وقال فى إصرار :

— إنهم يريدوننا أن نرحل .. إنهم يشيعون فى البلد أنهم سيواصلون عمليات الإرهاب والتفتيش والنسف .. لكى ينشروا الذعر فى البلد .. ويدفعونا إلى الهجرة .. أبدا لن نفعل ذلك .

وتساءلت عايدة فى دهشة وجزع :

— ولكن أين ستبيتون ؟

— لقد نمنا الليلة الماضية فى بيت الدكتور كمال .. وسيأوينا .. حتى أعيد بناء البيت .

— غير معقول يا أبى أن تسكن فيه ثانية .

— بل غير معقول أن أتركه ..

— قد يدمرونه ثانية .

— وسأبنيه ثانية .

— قد يدمرونه فوقكم .

— أغريب أن ندفن فى أرضنا ؟

— إن حياتكم ..

— حياتنا لا قيمة لها بلا وطن .. ووطننا لا قيمة له بلا أرض .. سنبقى هنا .. حتى نموت .

وأصر الشيخ عبد السلام على البقاء ..

وخلال أيام قلائل .. كان قد رم الجدار المشروخ واستطاع أن يعد إحدى الحجرات للسكنى .. واستقر ثانية فى البيت .. وسط الركام والأتربة ..

وعادت عايدة إلى عمان بعد أن اطمأنت على أمها وبعد أن عجزت عن إقناع أبيها بالرحيل .

وفى الليل عندما ساد السكون جلست مي أمام صورة عمار ترمقها .. وتضع بالفرشاة .. مزيدا من الظلال .. والألوان .. وترهف السمع لعلها تسمع وقع أقدام حبيبة .. تصعد الدرج .. وتعيد السكينة إلى قلبها .

١٤

واجبٌ خاص

مرت الأيام والمقاومة الشعبية المسلحة تزداد اشتعالا فى الأرض الفلسطينية ..

ليفى أشكول يعلن أنه قد تم القضاء على خمسة وتسعين فى المائة من الفدائيين فى الوقت الذى تتوالى ضربات الفدائيين فى كل مكان وتشتعل نيران المقاومة فى كل القرى والمدن .

والقوات العربية المسلحة يزداد تدعيمها يوما بعد يوم .. حتى باتت قادرة على توجيه الضربات الرادعة المرة بعد المرة .. فلم تعد إسرائيل تتسلى بضربها وقتما شاءت وأينما شاءت ثم تعود آمنة وكأنها فى نزهة .. ولم تعد محاولاتها الاستقرار والتحصين بمنجاة من الضرب والتدمير .

وضربت البحرية المصرية المدمرة الإسرائيلية إيلات .. فغاصت فى قاع البحر منذرة إسرائيل بالحقيقة المزعجة أن العرب لم يركعوا ولم يستسلموا وأنه قد أصبحت لديهم القدرة على تسديد الضربات الموجعة إليها فحاولت الرد بتدمير خزانات البترول فى السويس لردع العرب ولكن الضربات العربية تزايدت فى كل الجبهات .

واستطاع الصراع السياسى فى الأمم المتحدة أن يصل إلى قرار مجلس الأمن والذى يحتم انسحاب إسرائيل .. وحل مشكلة اللاجئين ، ولكن يارنج مندوب المجلس ظل يتأرجح بالقرار دون جدوى وإسرائيل ترى أنه رسول يفاوض بينها وبين العرب وأن القرار الذى يحمله ورقة عمل للبحث . والعرب يصرون لا مفاوضة. لا صلح .. لا اعتراف بإسرائيل .

وأقبل الشتاء على أسرة الشيخ عبد السلام تضمها أطلال بيت تصفر الريح الباردة فى نوافذه المحطمة .. التى حاولت مى أن تسدها بعلب كرتون أحضرها الشيخ عبد السلام من الدكان ..

والبيت يسوده صمت ثقيل فى انتظار أوبة عمار من سجنه .

فاطمة تجلس مطرقة وقد أسندت رأسها على كفها وهى تتطلع إلى الباب كلما سمعت وقع خطوات تخطو فى الطريق .

والأب يعود متثاقلا من الحانوت بعد أن ظل قابعا فيه لعله يسمع خبرا عن عمار ..

ومى تتسلل من البيت لتعاون فى أعمال المقاومة .. تحمل رسالة أو تنقل حقيبة .. أو تستطلع خبرا .. ثم تعود إلى البيت لتخلو إلى الصورة ، تتطلع إليها .. وتجرى خطوطا بالفرشاة عليها .. كأنما تتحسسها فى حنان ولهفة .

وكمال يبذل جهده من أجل الحصول على معلومات عن عمار ويزور الأسرة بين آونة وأخرى محاولا طمأنتها ..

وفى ذات يوم جلست الأسرة تتناول العشاء فى صمت حزين ..

وقال خالد فجأة وهو ينظر إلى أبيه :

— ألم أكبر يا أبى ؟

وربت عبد السلام ظهره فى رفق قائلا :

— بل كبرت يا خالد .

— إذن لماذا لا أحصل على بندقية .. بدل هذه الماسورة التى لا فائدة منها .. أو على الأقل أعطونى بعض هذه القنابل المدفونة .

وتساءل الأب وقد بدا عليه الشرود وهو يلوك اللقمة بين شدقيه :

— وماذا تصنع بها ؟

— أضرب دوريات اليهود .. أو أذهب لأخرج عمار من السجن ..

— اصبر يا خالد .

— إلى متى .. ألم تقل لى دائما .. عندما تكبر .

— أجل ..

— والآن قلت لى إنى كبرت .

وقالت مى محاولة إسكاته :

— عندما يأتى عمار .. سيعطيك بندقية .

— ومتى سيأتى عمار ؟

وساد الصمت .. وعادت فاطمة تتطلع إلى الباب مرهفة السمع .

واستطرد خالد يقول :

— لن يأتى عمار حتى يخلصه أحد .. إنهم يسجنونه ..

وسمعت وقع أقدام فى الطريق تقترب من الباب ثم تصعد درج الحديقة

وعادت الأم ترهف السمع وهتفت فى عصبية :

— من ؟

وطرق الباب وقفز خالد ليفتحه .

وقال عبد السلام لفاطمة زاجرا :

— اهدئى يا فاطمة .. أكل طرقة على الباب تفزعك هذا الفزع ..

وفتح الباب وبدا منه كمال .

وهتف الشيخ عبد السلام مرحبا :

— تفضل يا بنى .

وأقبل كمال وفى قسماته بشاشة .. وعلى شفتيه ابتسامة مطمئنة ..

وسحبت مى مقعدا وقربته من المائدة قائلة :

— باسم الله ..

— شكرا ..

وقال عبد السلام :

— تناول لقمة معنا .. على ما قسم .

ـــ تغديت متأخرا ..

ـــ فنجان من الشاى .

ـــ لا داعى للتعب أنا لست غريبا .

وقالت مى :

ـــ سأصنعه فى ثانية ..

ـــ أرجوكم لا أريد أن أقطع طعامكم .

ـــ أو شكتنا على الفراغ منه .

وسحب عبد السلام مقعده بعيدا عن المائدة قائلا فى لهجة اعتذار :

ـــ المكان ضيق لم أستطع أن أرم سوى حجرتين ولكنى أبذل كل جهدى لأكمل الحجرة الشرقية .. لقد أوشكت أن تتم .. إنها حجرة عمار ..

وأطلقت الأم زفرة حارة ..

وقال كمال :

ـــ لدى أنباء مطمئنة ..

وتساءلت الأم فى لهفة :

ـــ خيرا ..

ـــ خيرا إن شاء الله .. لقد رأيت رجلا أبصره فى السجن .. قال لى عنه إنه بخير .

وانهمرت الدموع من عينى الأم وقالت وهى تنشج بالبكاء :

ـــ أحقا هو بخير .. أم تريدون طمأنتى ؟

ـــ لقد أقسم لى الرجل .. وهو صادق .. أنه رآه بعينيه .

وتساءلت مى فى لهفة :

ـــ ومتى سيخرج ؟

ـــ يعتقد الرجل أنهم سيطلقون سراحهم قريبا .. لقد بدأوا فعلا يخرجون البعض .. بعد أن أسفر التحقيق عن لا شيء .

وتمتمت الأم فى حنان :

ـــ لو أراه .. قبل أن أموت .. يا رب اجعل يومى قبل يومه .

ورد كمال :

ـــ أطال الله عمرك ..

ـــ كرهت عمرى وأيامى يا بنى .

ـــ سترين عمار بإذن الله .. إنه بخير .

ويجيب عبد السلام :

ـــ سمع الله منك ..

وأقبلت مى بفنجان الشاى .

ورشف منه كمال رشفة .. وهو يشعر بلسعة سرسوب من الهواء البارد فى قفاه .

ـــ من أين يأتى هذا الهواء ؟

وقالت مى فى خجل :

ـــ يبدو أننى لم أستطع أن أحكم الكرتونة على النافذة ..

وتساءل كمال فى عتاب :

ـــ ولماذا لم تخبرينى لأرسل عامل يضع فيه الزجاج .

وتمتم عبد السلام قائلا :

ـــ سأركب الزجاج فى البيت كله مرة واحدة . إننا نضعه مؤقتا .. لا تكلف نفسك .

قال كمال :

ـــ إنه بيتى يا عمى .. أنت لا تعرف قدرك فى نفسى .. بل نفوسنا جميعا .. ألا يكفى أنك شيدته وأقمت به .. لقد أوقفت موجة من الهجرة كادت تحل بالبلد .. لقد قرر أهل الحى كلهم البناء بعد أن بنيت أنت .. ولم تفلح إنذارات الإسرائيليين فى إرهابهم .. لقد هم البعض بالنجاة بأنفسهم .. ولكن ..

وقاطعه عبد السلام قائلا :

ـــ لم يبق من العمر يا بنى ما يستحق النجاة به .. ليتنى أستطيع أن أفعل بسنواتى الباقية .. شيئا أكبر .. ولكنها للأسف .. سنوات عجاف .. قاصرة .. عاجزة ..

ـــ لا تقل هذا يا عمى .. إنك تلهمنا الصبر .. والمقاومة .. إن أمامنا أياما مزعجة .. تحتاج إلى كفاح شاق .. وصبر طويل .

وصمت كال برهة ثم تساءل :

ـــ هل سمعت آخر ما فعلوه ؟

وتطلعت مى متسائلة فى جزع :

ـــ ماذا ؟

ـــ لقد أعلنوا ضم القدس إليهم .. وقرروا نقل السفارات إليها من تل أبيب .. حتى يؤكدوا تهويدها .

وهز عبد السلام رأسه فى أسى ورد قائلا :

ـــ إن نواياهم بنا خطيرة يا بنى .. لقد سمعت اليوم فى السوق .. أنهم غيروا اسم نابلس إلى سماريا الإسرائيلى .. لقد قضموا قضمة كبيرة من لحمنا وهم يحاولون ابتلاعها .

وتمتمت مى قائلة :

ـــ وهم ينزعون ملكية العرب من مناطق كثيرة لتوطين اليهود .

وقال كال :

ـــ ولقد ألغوا القرار الخاص بعدم شراء اليهود للأراضى فى غزة .

ورفعت فاطمة كفيها إلى السماء متمتمة :

ـــ يا رب .. أنت قوى على الظالم .

واستطرد كال يقول :

ـــ إن سياستهم الآن هى قتل المدنيين وإرهابهم وتهديم بيوتهم لإرغامهم

إما على ترك ديارهم لإحلال اليهود محلهم أو البقاء مع الخضوع للسلطة غير الشرعية وخلق موقف يتسم بالشرعية فى مناطق الاحتلال .

وتنهد عبد السلام قائلا :

— سنبقى فى أرضنا .. وسنقاوم يا بنى .. حتى ندفن فيها .. أليس من حق هذه الأرض العزيزة .. أن تضم رفاتنا .

وقال كمال :

— أبقاك الله يا عمى .. لتشد أزرنا ..

ونهض مودعا وهو يقول :

— إذا احتجتم إلى شيء .. أرجوكم أن ترسلوا إلى .

ثم نظر إلى خالد :

— أنت تعرف البيت والمستشفى يا خالد .

ورد خالد :

— أجل أعرفه .

— فى أى شيء .. اجرى واطلبنى .

ثم انتظر قائلا وهو يرمق مى قائلا :

— وسأزوركم بين آونة وأخرى .. إذا كانت زيارتى لا تثقل عليكم .

وردت مى قائلة وهى تتنهد :

— إنها تسعدنا ..

وأوصلته حتى الباب وشد على يدها مودعا وهو يقول :

— إنها تسعدنى أكثر .. ولكننى لا أريد أن أثقل بها .. حتى لا تظننى أنى أحاول طرق الباب من جديد .. لأنى أكره أن أزعجك .

وتنهدت مى قائلة :

— أنت لا تزعجنى أبدا .. أنت إنسان رقيق .. كريم .

وعادت مى لتنظف المائدة .. وذهب كل إلى مضجعه .. وحاولت مى أن

تثبت الكرتونة التى يتسرب منها الريح .. ومن خلال النافذة أبصرت جانب الشرفة حيث تعود عمار أن يجلس مادا قدمية على حافة السور .

هدم سور الشرفة .

وذهب عمار ولم يعد ..

ولكنها لا تحس أبدا أنه ذهب .

إنه موجود فى كل مكان ..

فى كل ركن من أركان البيت .. ما تهدم فيه وما بقى .. قدماه على سور الشرفة المهدم .. وطيفه يجول فى الحديقة . واستقرت مى أخيرا فى فراشها ، مفتوحة العينين . تنصت إلى عبث الريح بما أبقاه الشتاء على الشجر من أوراق .

ولم تعرف .. إذا كانت قد نامت .

فقد اختلطت أحلامها .. بتصوراتها ..

وبدا لها كأن يدا تطرق الباب .

وأنصتت ..

وعادت الدقات تتعالى ..

ترى كم الساعة ؟!!

إن الضوء لا يبدو بعد من خلال النافذة .. الفجر لم يحن .

إذن من الطارق ؟

جنود الاحتلال !!

إنهم يدقون فى كل وقت .. يمكن أن يكون الدق مزعجا .. ولكنهم لا يدقون بهذا الهدوء .. ولا بهذا الصبر .

ونهضت من فراشها .

كان الكل نياما .

وأحست بخوف ..

هل توقظ الشيخ .. أم توقظ خالد ؟

لو أن معها سلاحا .

كان يجب أن تبقى معها إحدى القنابل المدفونة .

وعادت الدقات تطرق الباب فى هدوء وصبر .

واقتربت مى من الباب وتساءلت فى صوت خفيض :

— من ؟

وسمعت صوتا يهيب بها :

— افتحى يا مى .

من ؟..

إنه صوته ..

صوت عمار ..

أمعقول أن يكون قد عاد ؟..

وفى هذا الوقت من الليل ..؟

وبدا لها كأن صوت عمار وطرقاته على الباب نوع من أحلام اليقظة التى تعودت أن تستغرق فيها خلال شرودها .

وعاد الصوت يهتف :

— مى .. لماذا لا تفتحى ؟

واندفعت نحو الباب تفتحه هاتفة :

— عمار ..

وخلال فتحة الباب بدا لها شبح لم تستطع أن تميز فيه عمار ابسهولة .

كان شبحا هزيلا شاحبا مكدود الوجه مرهق النظرات .. وتقدم من الباب متثاقل الخطى .

وتلقته مى بين ذراعيها تضمه فى لهفة ضمة أم لوليدها .. وتتحسس رأسه كأنها لا تصدق أنه عاد سليما .

وأخذت تتمتم والدموع فى عينيها :

— عمار .. أنت بخير يا عمار .

ولم يحاول أن ينتزع نفسه من بين يديها .. أو يرفض — كما تعود دائما — مظهر الحنان الذى تحيطه به .. واستسلم إليها لتتحسس رأسه ووجهه ثم تساءل فى صوت حاول جهده أن يمنحه رنة التماسك والجلد ..

— كيف حالكم يا مى ؟..

— بخير ..

— وأبى وأمى .. وخالد ؟

— كلنا بخير .. المهم أنت ..

واستيقظ عبد السلام وفاطمة على صوت اللغط وهتفت فاطمة متسائلة :

— ماذا بك يا مى ؟

وصمتت مى برهة ثم همست لعمار :

— أخشى عليها المفاجأة .

وعادت الأم تتساءل فى دهشة :

— من تحدثين يا مى ؟

ورد عمار وهو يتجه إلى الحجرة التى رقدت فيها أمه .

— أنا عمار يا أمى .

وعلا صوت الأم والأب يهتفان مأخوذين :

— عمار ..

وصاحت الأم كأنها تحدث نفسها :

— لا تعذبنى بالحلم يا ربى .

ولكن عمار انحنى يأخذها بين ذراعيه وهو يضمها إليه متمتما :

— لقد عدت يا أمى ..

وضمته فاطمة إليها كأنها تحاول ألا ينتزعه أحد منها ثانية وأخذت الدموع تنساب من عينيها وهى تردد :

— عمار .. ابنى .. أنت بخير يا حبيبى ..

ورفعت يديها إلى السماء قائلة :

— يا ما أنت كريم يا رب ..

وأمسك عبد السلام بكتفي ابنه يتأمله فى شوق وهو يقول :

— الحمد لله ..

ثم أخذ يرقب جسده الناحل ووجه الشاحب وتساءل فى جزع :

— قاسيت كثيرا يا عمار ؟

ورد عمار وهو يتنهد :

— ومن الذى لم يقاس ..

وتلفت حوله فى نظرة خاطفة للجدار المرمم والنوافذ التى سدت بالكرتون ولبقايا الأثاث الذى حطمه النسف واستطرد يقول :

— كان قلقى عليكم أسوأ من كل ما قاسيت .. كنت أحاول أن ألتقط أخباركم ..

وقالت مى :

— نحن بخير ..

وقال الأب :

— لقد رممنا البيت . وواصلنا الحياة ..

وتساءلت الأم وهى تحاول أن تنهض من فراشها :

— أأعد لك طعاما ..؟

وقالت مى :

— سأعده أنا يا خالتى .. استريحى أنت .

وقال عمار :

— لا أريد طعاما .. أريد فقط أن أستريح .. لقد مضى على ليلتان لم أنم .

وقالت مى :

ـــ سأعد فراشك حالا .. سأنام أنا وخالد فى الصالة .. وأخلى لك الحجرة حالا .

ورد عمار :

ـــ ابقوا كما أنتم .. سأرقد فى أى مكان .

وقال عبد السلام :

ـــ ولم لا تنام هنا .. إنى أفضل النوم على الأريكة .

وجرته مى من ذراعه قائلة :

ـــ تعال يا عمار .. أنا أعرف عادتك جيدا ، إنك تحب أن تنام فى فراشك .

وهز عمار رأسه وأجاب :

ـــ لم يعد لنا خيرة فى عاداتنا يا مى .. لقد تعودت أن أنام حتى واقفا ..

وعادت الأم تضمه إليها وتتحسسه كأنما تحاول التأكد أنه قد عاد فعلا .

واتجه عمار إلى الحجرة ليبدل ثيابه .

ولم يستطع أحد من أهل الدار .. أن يعاود النوم ..

نهض الأب للوضوء والصلاة .. بعد أن أذن الفجر . ونهضت الأم إلى المطبخ تعد طعاما لعمار .. يتناوله عندما يصحو .

ووقف عمار يتأمل خالد وهو مستغرق فى نومه . انحنى عليه يضمه ويقبله .. والتفت ليجد صورته على الحامل فى ركن الحجرة .

ونظر إلى مى متسائلا فى دهشة :

ـــ أما زلت ترسمين الصورة ؟

ـــ لقد أنقذتها من بين الأنقاض .. ما رأيك فيها الآن .. لقد حاولت أن أضع عليها الابتسامة عبثا ..

ونظرت إليه فى حنان وتمتمت قائلة :

ـــ لا تقل لى .. افعلى شيئا أفيد .. فأنا أحاول أن أفعل كل ما أستطيع .. ولا تقل عن الصورة (سخافة) .. فهى عزيزة لدى .. أعز ما تتصور .. لقد

كانت ذات فائدة كبرى لى خلال غيبتك .

ونظر إلى الصورة فى غير اكتراث ثم قال وهو يهز رأسه :

— المسائل نسبية .. إذا كنت ترينها مفيدة بالنسبة لك .. فاحتفظى بها .

— ولكنى فعلت أيضا أشياء .. أعتقد أنها مفيدة .. بالنسبة لنا جميعا .

— أعرف ذلك .

— كيف ؟..

— قال لى الزملاء .

— متى ؟

— قضيت معهم طوال الليل .. وحدثنى يحيى عن كل ما فعلته ..

— ولكن لماذا لم تأت لطمأنتنا أولا ؟

— كانت عندى رسالة لا بد من تبليغها .. وكنت أريد أن أعرف كيف يسير العمل .

— وكيف وجدته يسير ؟

— على خير ما يرام .. لقد دخلنا مرحلة جديدة .. وغدا سيمر علىّ يحيى .. وسنذهب معا إلى الضفة الشرقية .

— ألا تستريح غدا ..

— سأحاول أن أستريح الآن .

وخلع عمار قميصه فإذا بعلامات جراح على ظهره وذراعيه .

وروعت مى وأحست برجفة تسرى فى بدنها وهتفت متسائلة :

— ماذا بك يا عمار ؟

وأسرع عمار يغطى جسده قائلا :

— لا شىء .

— وهذه الجراح ؟

وتنهد عمار ولم يجب .

وتساءلت مى وهى تحاول أن تكتم دموعها :

— عذبوك يا عمار ؟

— كما عذبوا الجميع .

— الكلاب ..

— إنها معركة يا مى .. ليس فيها رحمة .. لقد حاولوا أن ينتزعوا منا اعترافا بأى شيء .. ولكننا صمدنا .

— سأنتقم لك يا عمار .

— المعركة يسيرها التخطيط الهادئ يا مى .. لا الثأر المنفعل .. لا وجود للمشاعر الخاصة فى عملنا ..

وردت مى فى إصرار :

— لا أستطيع أن ألغى مشاعرى يا عمار .. لن أستريح حتى أنتقم لك .

— نحن نعمل لفلسطين كلها .. لا لشخص بذاته .

وفى حزم أجابته :

— هذه مسألتى الخاصة .. تماما كالصورة .. لن يمنعنى إصرارى عليها من أى واجب أكلف بأدائه ..

ومدت يدها تتحسس كتفه برفق هامسة :

— آذوك يا عمار ؟

— الإيذاء البدنى أبسط ما فى الأمر .. مذلة النفس هى القاتلة .. مرت بى هنيهات كنت أكره الحياة فى بدنى .. فسلطان المستعبد المذل .. مستمد من هذه الحياة .. من كل ما تشكله من مشاعر وأحاسيس .. وعندما تنتهى .. يفقد كل سلطانه .. وفى بعض اللحظات .. تمنيت أن تنتهى .. حتى أتخلص من سلطانهم المذل على .

ورفعت مى كفها تخفى عينيها كأنما تبعد عنها منظرا أليما وهتفت بعمار :

— لا تقل هذا يا عمار .. لا تفقدنى إنسانيتى .. لا تجعلنى أتحول إلى مخلوق

بلا قلب ..

— لقد فقدوها هم .. طالما ساءلت نفسى .. كيف تحول الشعب الذليل الطريد .. الذى قاسى مرارة التعذيب والتنكيل والتشريد .. إلى عتاة قساة .. برابرة .. يمارسون كل ما أوقع بهم من ضروب التعذيب والقسوة .. هل يمكن أن تكون قد استهوتهم وحشية النازية واستبدت بهم الرغبة فى الثأر مما أوقعته بهم بنفس أساليبها .

واستقر عمار على فراشه وهمت مى بمغادرة الغرفة عندما سألها فجأة :

— أما زالت حقيبة القنابل مدفونة حيث هى ؟.

— أجل .. إنها مخفاة أسفل كوم الحطب .. ومن حسن الحظ لم تصل إليها آثار النسف .

— سأخرجها عندما أستيقظ لآخذها معى .

— كلها ؟

— ماذا تعنين بكلها ؟

— أعنى أن تبقى منها شيئا .

— لا أعتقد أننا سنحتاج إليها هنا .

— ولكنى قد أحتاج إلى بعض منها .

— لست أظن الواجبات التى ستكلفين بها.. ستحوجك إليها .

— إنه واجب خاص .

وصمت عمار مفكرا ثم تمتم قائلا :

— أكره أن تورطى نفسك فى عمل لا جدوى منه .. لمجرد الانفعال .

وردت مى فى إصرار :

— إنى مصممة .. ولست منفعلة .

وبدا التردد على وجه عمار فاستطردت تقول :

— على الأقل دع لى القنبلة التى أعطيتنى إياها يوم نسف القطار .

وهز عمار رأسه وقال :

ــ خذى ما تريدين .. ولكن تذكرى أننا لا نملك حياتنا .. وأن فقدها بلا مقابل .. يعد ذنبا فى حق وطننا ..

وردت مى متسائلة :

ــ ومن الذى يفقد حياته بلا مقابل ؟

ــ أقصد بلا مقابل يحقق شيئا فى المعركة .

وتنهدت مى ثم ردت فى غير اقتناع :

ــ مفهوم .

ورقد عمار ..

وذهبت مى لتساعد خالتها فى المطبخ .. وكان البيت يبدو وكأنه فى فجر يوم عيد .

الأب مستغرق فى الصلاة بوجه مشرق .

والأم منهمكة فى المطبخ تروح وتغدو وقد ملأت الطمأنينة قلبها ..

وحاولت مى أن تشارك خالتها فرحتها وأن تساعد فى معاونتها فى الطهى .

ولكن آثار الجروح فى جسد عمار كانت تسيطر على تفكيرها .

وكلمات عمار الموجعة ما زالت تتردد فى مسامعها « مرت بى لحظات كنت أكره الحياة فى بدنى » . « مذلة النفس هى القاتلة » .

لقد أدركت مى كيف يمكن أن يتحول الإنسان إلى وحش .

لن يكفيها أن تلقى قنبلة لتدمر إحدى العربات ولكنها تريد أن تنشب أظافرها فى أعناقهم .. وأن تمزق جلودهم .

هؤلاء الذين أذلوا عمارا .. حتى جعلوه يتمنى أن يخلص من الحياة .. هؤلاء لا تكفيهم مجرد قنبلة تدمر إحدى دورياتهم .

ليس قذف قنبلة .. أو الضغط على زناد .. هو الذى يشفى غليلها . فإنها تود .. لو استطاعت أن تذيقهم نفس المذلة التى أذاقوها عمارا .

ولكنها لا تملك سوى هذه القنابل تفجرها فى وجوههم .. تدمر بها عرباتهم . وتحطم بها أسلحتهم .

وأشرقت الشمس وتسلل شعاعها من فتحات النافذة .

وتقلب خالد ثم فتح عينيه .

ولم يجد مى فى فراشها .

ولكنه وجد فراش عمار الخالى .. قد رقد عليه إنسان .

ظنه مى قد استعملت الفراش ولكنه وجد جسدا آخر .. ظنه الأب .. ولكنه أنحف .

وفجأة اكتشف أنه عمار .. فقفز من فراشه صارخا ..

— عمار .

وكان عمار قد أغلق عينيه .. ففتحهما وضم إليه خالدا فى حرارة وسأله :

— كيف حالك فى المدرسة ؟

— زفت .

— كيف ؟!!

— أغلقوا المدرسة فترة .. ثم فتحوها .. ليعلمونا أشياء سخيفة .

وأخذ خالد يتأمل وجه عمار ثم تساءل قائلا :

— متى عدت ؟

— بالليل .

— ولماذا لم تخبرنى ؟

— كنت نائما .

— كان عليك أن تصحينى .. ماذا فعلوا بك ؟

— لا شىء .. أيام مرت على خير .

— هل السجن متعب ؟

— يعنى .

— ليس أتعب من المدرسة .. قطعا لم يعطوك واجبات .

وهز عمار رأسه ثم تمتم قائلا :

— أعطونى ما هو أسوأ .

وفجأة تساءل خالد :

— اسمع يا عمار .. هذه المرة لن تفلت ..

— من ماذا ؟

— من البندقية .

— أليس عندك الماسورة ؟

— هل تصدق أن الماسورة يمكن أن تصبح بندقية ؟

— ألم تقل أنت هذا ؟

— كنت طفلا .

— والآن ..

— قال أبى إنى كبرت .. وأستحق بندقية .

— ألا تتدرب أولا على استعمالها ؟

— أهى مشكلة ؟

— ليست مشكلة إذا تعلمتها .

— إذن هاتها وعلمنى .. أؤكد لك أنى سأتعلم بسرعة .

— عندما أعود فى المرة القادمة سأحضر لك واحدة صغيرة .

— لا أريد لعبة .. أريد بندقية حقيقية .

— وإذا رآها اليهود ماذا ستفعل ؟

— سأضربهم بها .. ألم يدمروا بيتنا .. لقد كادوا يقتلون أمى .. سقط عليها السقف فجرحها وكسر ساقها .

ولم يطل بقاء عمار فى البيت طويلا ..

قبل الضحى حضر إليه يحيى .. ووقفت مى أمامه بالحقيبة وهى تتمتم قائلة :

ـــ أخذت اثنتين .

وهز عمار رأسه وهو يقول :

ـــ لم يكن العناد من طباعك .

ـــ أتستكثرهما على ؟

ـــ بل أخشى عليك .. إن لحياتك قيمة .

ـــ من أجل المعركة ؟

ونظر عمار فى عينيها ثم تنهد قائلا :

ـــ من أجل كل شيء .

ولم تفهم ما يعنى عمار بكل شيء .. ولكنها أحست فى نظرته شيئا .. ودت لو يطول .. شيئا ممتعا .. لذيذا .. لا تدركه إلا المحبة . من عينى من تحب .. وسرعان ما اختفى الشيء .. كأنه ومض البرق .

ورحل عمار .. تلاحقه دعوات أمه وعبراتها ..

وهز الشيخ عبد السلام رأسه وهو يودعه بنظرة لهفى حزينة وتمتم قائلا :

ـــ أعادك الله بالسلامة .. فمعزتك تجعل التضحية بك شاقة .. حتى فى سبيل الوطن ..

١٥

شاى بلا سُكر !

قبيل العصر فى بيت عايدة فى عمان وقد انتهى ضيوفها من تناول الغداء ووقفت أميرة وخطيبها رءوف بثيابه العسكرية يداعبان الصغيرة ليلى ووقف عمار ينظر إلى ساعته فى قلق وبدأ عبد الكريم يزرر سترته استعدادا للرحيل ، وأقبلت عايدة تودع ضيوفها وتحاول استبقاءهم فترة أطول بقولها فى إلحاح :

ـــ على الأقل .. حتى تشربوا الشاى .

ورد زوجها عبد الكريم :

ـــ لا تحملى هم الشاى .. سأسقيهم عندى فى الموقع .

وقال عمار وهو ينظر إلى الساعة فى قلق :

ـــ لا بد أن أكون فى الجبل قبل الرابعة .

وقال رءوف ضاحكا :

ـــ لا نريد أن نفعل كالضيف المجنون .. الذى يأكل ويقوم .. ولكن ما باليد حيلة .

ثم مد يده يمسك يد أميرة فى رفق قائلا :

ـــ سأنتظرك فى القاهرة ..

وتنهدت أميرة قائلة :

ـــ سأحاول .

ـــ بل ستحضرين .. إنك تستطيعين إتمام الدراسة العليا .. وتستطيعين العمل إذا شئت .

وضحك عبد الكريم وأردف قائلا :

— وتستطيعين الحصول على منحة تفرغ لتربية الأولاد .. كما تفعل عايدة .
وهزت أميرة رأسها قائلة :
— ليست المشكلة ما أفعله فى القاهرة .. وإنما المشكلة هى واجبى فى القدس ..
وقال عبد الرءوف مؤكدا :
— القدس كالقاهرة .. كعمان .. كدمشق .. كبغداد .. إننا نؤدى واجبنا فى كل مكان .. إن القدس عزيزة على المصرى .. معزة القاهرة للفلسطينى ولكل عربى .. ونحن نخوض المعركة فى كل جبهة .. لا تظنى أنك تفرين من المعركة عندما تحضرين إلى القاهرة .
— لست أقصد هذا .. ولكن القدس تحتاج إلى كل فرد فينا .. إنهم يخططون لتهويدها فى إلحاح وإصرار .. لقد استولوا على البلدية وهم يعملون بكل ما فى وسعهم من أجل تبعيتنا للإدارة الإسرائيلية فى كل مرافق حياتنا .. إنهم يدمرون بيوتنا .. وينزعون ملكيتها وهم يشيدون البيوت لليهود حول المدينة العربية .. ومن أجل هذا يجب أن نبقى جميعا .. وأن نرفض التعاون معهم .. وأن نقاوم كل محاولاتهم لتهويد القدس العربية العزيزة وتذويبها فى عاصمتهم .
وقال عبد الكريم ضاحكا :
— إذن فلا مفر من أن تلتقيا هنا عندنا .. لكن فى المرة القادمة أحضرا طعامكما معكما ..
وهتفت عايدة تقول :
— كف عن هذا المزاح السخيف .. إن البيت بيتهما .
وقالت أميرة باسمة :
— إنه لكذلك ..
وعاد عمار ينظر إلى ساعته ويقول :
— هيا بنا .

وقالت عايدة ناهرة عمارا:

— يا أخى اصبر ..

— قلت لك لا بد أن أعود قبل الرابعة ..

— طول عمرك كالشريك المخالف .. اذهب أنت وحدك .

وقال عبد الكريم :

— لا تقلق يا عمار .. سأوصلك بعربتي .. وستكون هناك قبل الرابعة .

ومد عمار يده مودعا أميرة .. وأمسكت ليلى برجل بنطلونه تشده قائلة :

— قل لخالد إنى سأحضر إليهم ..

ثم التفتت إلى أمها متسائلة :

— أليس كذلك يا ماما ؟

وتساءلت عايدة :

— متى تعود إليهم يا عمار ؟

— لا أعرف ..

— إذا عدت إليهم قبلى .. قل لأمى إنى أعددت لها ما طلبت .. وسأحضره معى .. لقد شغلت بمرض ليلى .. ولكن سآتى إليهم فى أقرب وقت .. وقل لأبى إنى أوصلت رسالته إلى الشيخ عمران .. وعسى أن يكون قد أرسل رده إليه .. وأبلغ تحياتى الحارة إلى مى ..

وهزت رأسها ثم استدركت قائلة فى سخرية :

— ولكن لا .. أنت لا تعرف كيف توصل التحيات الحارة .. سأرسل لها التحية مع أميرة ..

ثم تساءلت قائلة :

— أما زالت تحاول أن ترسم وجهك العبوس ؟

— أظن هذا ..

— وما زالت تحاول أن تضع الابتسامة على شفتيك ؟

وهز يدهما مودعا وهو يقول فى عجلة :

— هيا يا عبد الكريم .. ليس لدينا وقت لهذه الثرثرة السخيفة ..

وهتفت عايدة ضاحكة :

— أنا سخيفة .. على رأى المثل المصرى .. « يعطى الحلق للى بلا ودان » ..

وضحك رءوف متسائلا :

— ومن الحلق .. ومن الذى بلا آذان ؟

وسار عمار تجاه الباب يتبعه عبد الكريم وهو يمسك بإحدى أذنى عمار ضاحكا :

— كل هذا .. وليس له آذان .. والله خسارة فيه الحلق .

وهتفت عايدة مودعة :

— مع السلامة .. خذ بالك من نفسك .. يا عمار .

وركب الثلاثة عربة عبد الكريم وانطلقت بهم من المدينة منحدرة إلى الوادى الأخضر .. وبدت السفوح خضراء ندية ونظر رءوف حوله فى إعجاب وتمتم قائلا :

— أحب هذه السفوح الخضراء والمياه تنحدر فى شقوقها .

وأشار عبد الكريم إلى عين تتدفق منها المياه بين الصخور قائلا :

— هذه العين مياهها مثلجة فى عز الصيف .. دعونا نأخذ منها جرعة .

وقال عمار فى قلق :

— لا داعى لمزيد من التأخير .

ورد عبد الكريم فى سخرية :

— الدنيا لم تطر يا رءوف .. ودوريات اليهود ستبقى فى انتظارك .. حتى تضربها .. فلا داعى لكل هذا القلق .

وهبط عبد الكريم ومعه رءوف وانحنى كل منهما يرفع المياه المتدفقة بكفه إلى فمه .. وبدا على مقربة مبنى مدمر انهارت جوانبه .

وتساءل رءوف :

ـــ ما هذا ؟

ـــ مقهى فى الطريق كان يشرف على العين دمره اليهود .

وهز رءوف رأسه وتمتم قائلا :

ـــ فى السويس والإسماعيلية .. دمروا المدارس والكنائس والمساجد والمستشفيات .

واستطرد يقول وهو يتجه إلى العربة :

ـــ يفعلون هذا لأنهم يعرفون أنهم بمنجاة من العقاب .

ورد عبد الكريم متسائلا :

ـــ إلى متى ؟

وأجاب رءوف وهو يتخذ مكانه فى العربة :

ـــ إلى أن يزول تفوقهم الجوى .

وتساءل عمار :

ـــ وهل هناك أمل فى هذا ؟

ـــ ولم لا .. لقد حققنا خلال هذا العام ما لا يصدقه عقل .. لقد اعتقد القادة الإسرائيليون أننا أمامنا على الأقل عشر سنوات حتى نقف مرة ثانية على أقدامنا .

وانطلقت العربة تنحدر فى الطريق الأخضر .

واستطرد رءوف يقول :

ـــ إننا نستفيد من درس الماضى .. لقد تغيرت خامة المحارب .. أصبح أقرب إلى فهم آلية الأسلحة الحديثة .. المدفع والدبابة .. أقدر على استعمالها وصيانتها .. وأصبح الجيش متفرغا للتدريب وللقتال .. ولم يعد قادته يشعرون أنه وسيلة إلى الانطلاق إلى مناصب الحكم .. أو للسيطرة على مراكز القوى .. وفوق كل هذا .. أصبح الجيش فى خدمة البلد .. ولم يعد البلد فى خدمة الجيش ..

وتمتم عمار قائلا :

— إنهم يحاولون إشاعة الرعب فينا .. بنشر الوهم بأن القوة الإسرائيلية المسلحة لا تقهر .. وأن العربى محارب غير قادر ..

وقال رءوف وهو يزفر فى أسى :

— عندما بدأ هجومهم فى خمسة يونيو وقبل أن يكتشف أحد الطرفين أن الجزء الأكبر من طائراتنا قد دمر على الأرض ، لاقت الدبابات الإسرائيلية دمارا محققا عندما بدأت هجومها على خان يونس.لقد قتل ما يربو على الثلاثين من قواد دباباتهم واستمر اللواء المصرى رابضا فى مواقعه حتى أقبل الظلام .. وعندما حاول اللواء الإسرائيلى الهجوم على المواقع المصرية جرت معركة فى الظلام لمدة ساعتين حاربنا فيها ببسالة وصفوها بأنها وحشية واعترفوا بخسائرهم التى جاوزت المائة قتيل .. وظلت مدفعيتنا المختفية فى كثبان الرمال تضرب دباباتهم بعنف حتى بدأ التفوق الجوى الكامل يتحقق .. لقد كان التفوق الجوى الذى حققه الطيران الإسرائيلى هو العامل الوحيد الذى ضمن تقدم القوات الإسرائيلية من رفح إلى العريش .

قال عبد الكريم فى مرارة :

— وما زالوا يملكون التفوق الجوى حتى الآن .. إن أمريكا تزودهم بالطائرات .. وهم يستطيعون استيراد الطيارين المدربين .. من أمريكا ومن جنوب إفريقيا .

وأردف عمار يقول :

— وما زلنا نتعثر فى سبيل العمل العربى الموحد .. وما زلنا نتردد فى وضع كل إمكانياتنا فى معركة المصير التى نخوضها .. وكأنها لا تهدد مصيرنا جميعا .. وكأنها ليست معركة الحضارة العربية .. والمصير العربى .

وكانت العربة قد بدأت تخرج من الوادى إلى المنطقة الجبلية الجرداء .. وعند مفترق طرق قال عمار :

ـــ إلى اليمين ..

وانحدرت العربة يمينا ثم عبرت بقعة مرور .. حتى وصلت إلى خص من القش فهتف عمار .

ـــ هنا ..

ـــ ألا ندخل بك ؟

ـــ لا داعى .. يكفى هنا .

ومد يده يشد على يد رءوف وهو يهتف فى حرارة :

ـــ شدو حيلكم ..

وقال رءوف وهو يشد على يده :

ـــ على الله ..

ثم أردف قائلا وهو يهز يد عمار الذى أطبق عليها بكفه فى قوة وحرارة :

ـــ وأنتم .. اجمدوا .

ـــ أرخص ما لدينا .. هو أرواحنا ..

ـــ ولكنها بالنسبة لنا .. غالية .

ـــ لن نضيعها سدى .

وقال عبد الكريم مودعا عمار :

ـــ مع السلامة .. خذ بالك من نفسك .. وعندما ترجع إلى البيت .. بلغ أشواق لعمى وخالتى .. والصغير خالد ..

ثم صمت برهة وأردف ضاحكا :

ـــ وللحلق الذى لا تستحقه أذناك الكبيرتان .

واستدارت العربة عائدة .

وانطلق عمار يستحث الخطا تجاه الجبل .

ومن أحد الأوكار .. أقبل يحيى يهتف به :

ـــ أهلا عمار .. قلقت عليك .. وخشيت أن يكون قد أصابك شىء .

وهز عمار رأسه وأجاب دون أن يبتسم :

— لا تخف على .. « عمر الشقى .. بقى » .. كان على أن أمر على عايدة .. وألحت على أن أبقى للغداء .

هل حان الوقت للتحرك ..

وقال يحيى وهما يدخلان إلى الكهف الذى بدا فيه ضوء مصباح خافت :

— ما زال أمامنا فسحة من الوقت نشرب الشاى ونسترجع الخطة مع الرفاق ..

وأقبل الرفاق يصافحون عمارا فى شوق وهتف به الطبيب المصرى رشاد مرحبا :

— أهلا عمار .. سمعت عنك كثيرا من الرفاق .

وقال يحيى مازحا :

— سماعك بالمعيدى .

وقال رشاد معرفا بنفسه :

— أنا الدكتور رشاد .. أعمل معكم منذ شهرين .. ولقد حدثنى الإخوان عنك كثيرا .. ولا سيما يحيى .

وتساءل عمار :

— وماذا قال يحيى :

— قال عنك إنك عبوس .. ولكنك رقيق فى باطنك .

وتمتم عمار قائلا :

— أحيانا أكره هذه الرقة فى باطنى ..

ونظر إلى الرفاق متسائلا :

— هل نبدأ العمل ؟

وقال عباس قائد الجماعة وهو يضم إليه عمارا :

— تعال يا عمار .. استرح قليلا .. لقد روى لنا يحيى ما قاسيت .. روى لنا

ما فعله بك الكلاب .. ولكننا سنعرف كيف نؤدبهم ..

وتلفت حوله متسائلا :

— من سيعمل لنا الشاى ؟

ورد حمزة :

— هذه شغلتى .. لم يعد عندنا شاى سوى بقايا « تفل » فى البراد .. ولكنى سأغليه جيدا .. حتى أخرج كل ما بقى فيه ..

وتمتم عمار فى أسف :

— لو علمت لأحضرت علبة شاى .

وقال عباس :

— لا عليك .. لقد تعودنا على « تفل الشاى » .. اذهب يا حمزة وأوقد النار وتعالوا حتى نسترجع الخطة .

وبدا حمزة فى عمل الشاى .. فى براد من الصاج الأسود علاه الهباب والتف الرفاق على عباس وقد فرد خريطة كروكية قرب الحجر الذى وضع عليه المصباح .

ووضع عباس القلم فوق نقطة على خطين متوازيين يحددان مجرى النهر قائلا :

— سنعبر النهر من هنا .. استكشفنا المكان جيدا .. العبور ليس سهلا .. ولكنه ربما كان أكثر أمانا .. أقرب دشمة إسرائيلية تقع على بعد كيلو .. وعلى الجانب الشرقى توجد بقايا مخفر دكته القنابل الإسرائيلية .. ومن هناك ..

وقاطعه صوت حمزة صائحا :

— لا يوجد سكر ..

واستطرد يقول وهو ينزل البراد الأسود من فوق النار :

— لا عليكم .. أمى كانت تحبه دائما بغير سكر .

وتمتم الدكتور رشاد قائلا :

— لا بأس .. المهم أن يكون عندنا ماء .. فلا أظن السيدة والدتك .. كانت

تحبه بدون ماء .

وضحك عباس وقال لحمزة :

ــ اصنعه كما تشاء يا حمزة .. وكما تحب أملك .. ولكن أرجوك لا تقاطعنا ..

وتساءل عمار :

ــ ألن يخرج معنا حمزة ؟

وقال عباس :

ــ طبعا ..

ــ لماذا لا يحضر لدراسة الخطة معنا ؟

ــ الخطة لا تعنيه .. لأنه تعود أن يسير معنا .. يحمل الذخيرة .. والمؤن .. ويضرب حينما نريد منه أن يضرب .

وقال يحيى :

ــ إنه يكره استعمال الرصاص .. والقنابل .. ويفضل الالتحام وجها لوجه .. رأيته ذات مرة يواجه جنديا إسرائيليا فى أحد المواقع .. وكان الإسرائيلى قد أصاب أحدنا بمدفعه .. وقفز حمزة على كتفيه .. بعد أن رمى بندقيته جانبا .. وكأنها تعوق حركته .. وطرح الإسرائيلى على الأرض .. ونزع مدفعه من يده .. ثم أطبق على عنقه بكلتا يديه .. وأخذ يضغط عليه ببطء وهو يحدق فى عينيه .. ثم يرخى أصابعه .. ليدع الرجل يلتقط أنفاسه .. ويعاود الضغط عليه مرة ثانية .. حتى يكاد يكتمها .. ثم يعيد الضغط ثانية .. وهو يقول فى أسف :

« وددت لو قتلتك مائة مرة .. بعدد النساء والأطفال الذين سفكتم دماءهم » .

وعندما صحت به وأنا أجده رابضا على الجندى دون أن يخلص منه قال ساخرا :

ــ الموت خسارة فيه ..

ثم قضى عليه وانطلق معنا .

وشرد عمار وهو يتذكر قول أبيه :

« الحرب شيء سخيف يا عمار .. سخافة أن يحاول إنسان أن يقضي على حياتك .. ولكن أسخف منه أن تترك محاولته بلا درء .. ولا ردع » .

والقسوة تنبت القسوة .

وليس أبعث على الأسى والأسف .. من أن يجد الإنسان نفسه وقد ضمرت إنسانيته .

واستبدت به القسوة والوحشية كوسيلة لا بديل لها إلى فرض السلام وتحقيق العدل .

وأفاق عمار من شروده على صوت عباس يستكمل الشرح قائلا :

— سنسير على الطريق الرئيسي حتى نصل إلى مفترق الطرق .. ومن هناك سيتخذ كل منا طريقه إلى الجبل حتى نلتقي قرب المخفر المهدم .. ثم نبدأ العبور .. وفي نفس الوقت ستكون هناك محاولة تمويهية للعبور بواسطة جماعة أخرى في نقطة الشمال حتى تجذب التفات القيادة الإسرائيلية .

وأقبل عباس ببراد الشاي ومعه بضعة أكواب زجاجية .. وأخذ يفرق الشاي على الجماعة .. وهو يغني :

« اتفضل شاي » .

ورد عليه بكر وهو يتساءل ضاحكا :

« شاي بسكر .. أو كما تحبه أمك ؟ » .

وهز حمزة رأسه قائلا في حنين :

— قرأت لي الفاتحة .. ورقتني آخر مرة .. ولفت لي الزاد والزواد .

وتنهد وهو يرتشف رشفة طويلة واستطرد يقول :

— امرأة طيبة .. إنها نقطة الضعف الوحيدة في حياتي .. التي تجعلني أحيانا .. أشعر أن لحياتي قيمة .. وأني أكره أن أخذلها .. بعدم عودتي إليها .

وتذكر عمار أمه وهز رأسه وكأنه ينفض عنها مشاعر الحنين ثم عاد يسائل

عباس :

ــ وبعد العبور .

ــ سنتجمع .. وراء تبة منخفضة تشرف على النهر . والمفروض بعد ذلك أن نلتف حولها ونسير جنوبا بغرب .. لنلتف حول الموقع الإسرائيلي .. ونطبق عليه .

وقال الدكتور رشاد :

ــ موفقون بإذن الله .

ونظر عباس إلى ساعته ثم قال :

ــ أعتقد أن الوقت قد حان لكى نبدأ التحرك .

وبدأت الجماعة فى الاستعداد واستطرد عباس يقول متسائلا :

ــ لست فى حاجة لأن أكرر تعليمات المعركة ؟

وقال حمزة كأنه يسمع قطعة محفوظات :

ــ لا ثقاب يشعل .. ولا فرقعة .. ولا إطلاق نار بدون أوامر .. إلا لدرء تهديد أكيد .. و .. و .. إلخ .. إلخ .

وقال يحيى :

ــ تحفظ التعليمات جيدا يا حمزة ..

وقال عباس :

ــ ولكنه لا ينفذها أبدا .. فتشوا جيوبه وخذوا السجائر والثقاب منها ..

ووضع حمزة يده على جيبه ثم أخرج علبة السجائر قائلا :

ــ سيجارة .. أخيرة .. إذ من يدرى .. ربما كان آخر نفس ..

وقال رشاد :

ــ تف من بقك يا شيخ .. إن شاء الله ستخرج طلقاتنا آخر نفس فى الموقع الإسرائيلي .

وقال يحيى :

— إن شاء الله .. دعونا نقرأ الفاتحة قبل أن نخرج .

وخرجت الجماعة .. تنطلق من الوكر ملتمسة طريقها فى دروب الجبل .

وكان الظلام قد سقط تماما .. وحلكة الليل قد أطبقت على التلال .. والسحب السوداء قد غطت بريق النجوم فى السماء والريح الباردة تصفر من خلال أغصان أشجار الكافور المتناثرة على الطريق وأذهان الرفاق شاردة تخلط قتامة الماضى بإشراقة المستقبل المرتجى .. وتتأرجح بين دماء تروى الأرض وأزهار تنبت منها موشاة متألقة .. وبين دخان أسود وحمام يرفرف بأجنحته البيضاء .. بين شظايا القنابل .. وأغصان الزيتون .

وعند أنقاض المخفر المتهدم بدأت الجماعة تتسلل واحدا بعد واحد وجلس عمار على حجر أسفل جدار مشقوق قد هوى السقف من فوقه وضم ياقة السترة حول عنقه وأطبق بركبتيه على مدفعه وأخذ يفرك كفيه محاولا أن يبعث فيهما الدفء ، وأقبل حمزة يلتقط أنفاسه المتلاحقة وهو يقول :

— اشتد البرد فجأة .

وقال عمار :

— لقد أعاننا المشوار على الدفء .

ووضع حمزة يده فى جيبه بغير إرادة يبحث عن سيجارة . وأعادها خالية وقال وفى صوته رنة أسى :

— سيجارة تعمر الرأس .. ولكن ماذا تفعل مع عباس .. لا ثقاب .. لا فرقعة .. لا .. لا ..

ثم بدأ يغنى .. « يا با لا .. لا .. لا .. لا .. بتريد تحاكينا أم لا » .

وأقبل عباس يهتف به :

— يا حمزة .. أنا فى عرضك .. أهذا وقت غناء ؟

— لم تقل لنا إن الغناء ممنوع يا ريس .

— لم يخطر ببالى أنك فائق ورائق .. إلى الحد الذى ترفع عقيرتك بالغناء ..

— يعنى باختصار ممنوع الغناء ؟

— أجل ..

ووضع حمزة كفه على فمه فى محاولة لإغلاقه قائلا :

— هب .. بناقص غنوة .. ماذا سنفعل الآن ؟

— هل وصل الجميع .. عمار هنا .. ويحيى .. وبكر ..

وأخذ يعدد الأسماء .. ثم تلفت حوله متسائلا :

— والدكتور رشاد .. أين هو ؟

وسمع الجميع صوت أقدام تتعثر بالحصى .. وقال يحيى :

— لا بد أن يكون هو القادم .

ثم هتف :

— رشاد .. دكتور رشاد .

وعلا صوت رشاد من الظلمة :

— نعم .. أين أنتم .. كدت أن أضل الطريق .

وبعد لحظة أقبل رشاد وهو يهتف :

— الظلمة مطبقة .. والبرد لاسع .

وساد الصمت برهة ثم قال عباس :

— جاهزين .. هل نبدأ العبور ؟

وتمتم الجميع .. أجل ..

وجاء عباس موجها القول إلى رشاد :

— ستنتظرنا هنا يا دكتور ..

وتساءل رشاد مأخوذا :

— لماذا ؟

— إننا نحتاج إلى نقطة إسعاف متقدمة ..

— ولماذا لا أتقدم معكم ؟

ـــ المعركة لن تكون سهلة .. وسيسقط منا جرحى ..

وأردف بكر قائلا :

ـــ أو قتلى ..

وقال عباس :

ـــ المهم أن يجد الجرحى من يسعفهم ..

ـــ ولكنى سأكون معكم .

ـــ أنت نفسك قد تجرح .

ـــ وماذا فى ذلك .. أنت أيضا قد تجرح ..

ـــ إذا ما جرحت أنا .. فسأجدك لتسعفنى .. ولكن إذا جرحت أنت .. فلن نجد من يسعفك .. ولن أجد أنا من يسعفنى .

ـــ ولكنى خرجت معكم من قبل .

ـــ لم تكن عملية كبيرة كهذه .. كانت عمليات نسف .. أو استكشاف .. ولكن هذه معركة كبيرة .. وسنحتاج إليك فيها كطبيب ..

وقال رشاد فى إصرار :

ـــ إذا كانت معركة كبيرة .. فمن باب أولى أن أتقدم معكم .. لا أن أترككم وأتخاذل فى الخلف ..

ـــ ليس تخاذلا يا رشاد .. أرجوك افهمنى .. إننا حقيقة نحتاج إليك .. إنك تستطيع أن تنقذ الكثير منا إذا بقيت فى أمان .. ولكنك إذا تعرضت للخطر فلن يستطيع أحد منا أن ينقذك .. وسيقضى على كل جرحانا .. هل فهمت ؟

وهز رشاد رأسه وقد بدا ضائقا بكل ما قيل :

ـــ اسمع يا عباس . لقد أتيت إلى هنا لأشارككم المعركة ..

ـــ أنت الآن تشاركنا المعركة .. أنت أهم من أى واحد منا .

ـــ لا أريد هذه الأهمية .. أرجو أن أكون مجرد فرد منكم ..

ونظر عمار إلى ساعته وبدأ يضيق بالمناقشة وتمتم قائلا :

— الوقت يسرقنا .

وتنهد عباس والتفت إلى الجماعة متسائلا :

— ما رأيكم يا جماعة .. رشاد مصر على أن يعبر معنا ؟

وقال يحيى :

— دعه يعبر .. ولنعتبر أنفسنا زدنا مقاتلا .. وفقدنا طبيبا ..

وتمتم عمار قائلا :

— وليرعنا الله جميعا .

والتفت عباس إلى حمزة قائلا :

— كان المفروض أن تبقى مع الدكتور رشاد .

وقال حمزة ضاحكا :

— لماذا .. هل منحتنى شهادة الطب ؟

— المفروض ألا يبقى أحد وحده ..

— الحمد لله أنه لم يبق .. هيا بنا .. إن بى شوقا إلى أن أخنق أحدا .

ونظر إليه عباس وقال مهددا :

— كف عن عملية الخنق هذه .. أنت تعرف كيف تستعمل المدفع .

— قتل المدفع لا يمتع .. إنه يقتل مرة واحدة .

وقال عمار :

— نحن لسنا فى مشوار متعة يا حمزة .. إننا فى معركة ..

وتنهد حمزة وقال :

— لو رأيتم كيف كانوا .. يستمتعون بقتل أبى وزملائه فى كفر قاسم .. كانوا يتسلون بقتلهم كأنهم يصطادون العصافير .

وصمت برهة ثم أردف بصوت متحشرج كأن به رنة بكاء مكتوم :

— هل عرفت لماذا أستمتع بقتلهم ؟

وأصابت عمار رجفة .. القسوة تنبت القسوة .. والوحشية تخلق

الوحشية ..

وعاد صوت أبيه يرن فى أذنه :

« القتل سخافة يا عمار .. ولكنك تكون أكثر سخافة إذا لم تدرأ الضربة .. وتردع صاحبها » .

وقال عباس وهو يمسك بمدفعه :

— هيا بنا .

وبدأ التسلل نحو النهر ..

وانساب الرجال إلى الماء واحدا .. بعد واحد ..

وأصابت عمار رجفة من لسعة الماء .. وأطبق على مدفعه جيدا وهو يخوض وسط النهر .. لا يكاد يبصر أمامه سوى أكداس من الظلمات .

وسمع دوى من بعيد . ثم أصوات على الشاطئ الآخر .

وتلاحقت الأنفاس .. ولكن الحركة لم تتوقف عبر النهر ..

حتى وصلت الجماعة إلى الشاطئ الآخر .

وصعدوا متسللين .. والماء يقطر من ثيابهم .. وأخذوا فى التسلل ينقلون أقدامهم فى الظلمة المطبقة فى بطء وحذر .

١٦

بخير يا مىّ ..

تسللت الجماعة حول الموقع وهم يتحسسون موقع أقدامهم فى هدوء شديد . وأحس كل منهم كأنه يوشك أن يسمع نبض عروقه .

الظلمة حالكة .. إلا من أضواء خافتة تبدو فى الموقع من خلال الدشم .. والصمت مطبق .. إلا من همسات تتعالى من هنا وهناك بين آونة وأخرى . ولفح الريح الباردة تدفع جنود الموقع إلى الانطواء فى مخابئهم .

وهمس عباس لبكر قائلا :

ـــ الخط التليفونى ينحدر يسارك .. استمر فى السير حتى تعثر عليه .. واقطعه .

وتقدم بكر فى الظلام صامتا دون أن يجيب بكلمة .

وعاد عباس يهمس بتعليماته المقتضبة :

ـــ عمار ويحيى .. تقدما إلى الدبابتين وحاولا أن تدمراهما قبل أن نقتحم الموقع ، وبعد ذلك دمرا موقع اللاسلكى قبل أن يتمكن من طلب النجدة .. بقية الجماعة تلف حول الموقع وتنتظر منى إشارة الهجوم .

وقال حمزة متسائلا بصوت غليظ حاول أن يخفضه قدر ما يستطيع :

ـــ وأنا يا ريس ماذا أفعل ؟

وأجابه عباس فى ضيق :

ـــ اذهب مع عمار . وكف عن هذا الضجيج الذى تحدثه بصوتك الغليظ .

وتقدم كل من عمار ويحيى يزحفان تجاه الدبابتين فى حذر شديد .. وخيم الصمت على الجماعة وهم يرقبون تقدمهما .. وقد أوشكوا أن يكتموا

أنفاسهم .

وطال الترقب والصمت .. وبدأت الجماعة تحس بالقلق . وأخذ كل منهم يتحسس سلاحه وذخيرته من القنابل .

وفجأة سمع دوى شديد .. وبعد ثانية .. دوى آخر .. وتعالى صراخ .. واشتعلت إحدى الدبابتين واستدارت الأخرى تحاول كشف الميدان المنبسط أمامها بالضوء الكشاف وتهدر بمدفعها فى عصبية فى كل اتجاه .

وفى نفس اللحظة أصدر عباس إشارته بالهجوم .

واندفعت الجماعة كالصواريخ إلى وسط الموقع .. يحطمون الدشم بالقنابل ويواجهون أفرادها بالمدافع الرشاشة ..

وعلت الصرخات .. وحاول مدفع الدبابة أن يمسح الموقع بنيرانه .. ووثبت الجماعة المهاجمة إلى داخل الدشم وبدأت معركة مواجهة بالرشاشات وبالسلاح الأبيض .

واندفع عمار إلى موقع جهاز اللاسلكى ووراءه حمزة حتى يدمراه قبل أن يعطى إشارة استغاثة لطلب النجدة .

ودمر الموقع .. وقضى على من فيه .. واستدار عمار ليرقب ما حدث فى بقية الدشم .

وفجأة تحرك أحد الجنود الإسرائيليين الذى قد بدا ساكنا فى مرقده كأنما قد قضى عليه وسحب رشاشا بجواره وصوبه نحو عمار .

وصاح حمزة محذرا وهو يصوب مدفعه نحو الجندى الإسرائيلى :

— احذر يا عمار .

ولكن الرصاصات كانت قد انطلقت فأصابت عمارا فى ساقه . كما انطلقت رصاصات حمزة فأسكتت الرجل .

وبعد برهة أخذ السكون يسود الموقع كله إلا من طلقات متناثرة ساد بعدها صمت مطبق . وانحنى عمار يمسك بجرحه النازف وأقبل عليه الدكتور رشاد

هاتفا :

— أين الإصابة .. دعنى أضمد الجرح .

وصاح عمار :

— ليس هنا .. دعونا ننسحب الآن .. فلا أحد يعلم متى تأتى النجدة ..

وقبل أن يتحركا دوت رصاصة .. لم يعرف أحد من أين .. وسمعت صرخة مكتومة من رشاد « آى » ثم هبط فى موقعه :

وانحنى عمار فى لهفة وجزع على رشاد يهتف به :

— دكتور .. رشاد .. ماذا بك ؟

وهز رشاد رأسه وهو يتهاوى فى مكانه :

— لا شىء .. اذهبوا أنتم .. آسف يا عمار أن أموت وأترككم بلا طبيب .. آسف حقيقة فما قصدت أن أموت .

وكان حمزة يرقب حوله .. فأبصر أحد أجساد الجنود الإسرائيليين يتحرك .. كان الجندى .. صاحب الطلقة الأخيرة التى أردت رشاد . وفى وثبة واحدة انقض عليه حمزة .. لم يطلق عليه مدفعه وإنما هوى على عنقه بكلتا يديه .. ثم رفعه واقفا .. وأخذ يتأمله فى شرود وهمهم يقول :

— قتلت الرجل الطيب .. قتلته يا نذل .

وأحس بالدموع تغيم على عينيه .. فنفض رأسه وعاد يهمهم وكأنما يحدث نفسه :

— قتلت الطبيب .. وتركت جرحانا بلا طبيب .. ماذا نفعل بعمار ؟

وأطلق زفرة وعاد يتساءل هامسا وهو يحدث الرجل الذى أخذ ينتفض بين يديه :

— أقتلك .. وأشرب من دمك .

وهز رأسه قائلا :

— ولكن دمك قذر .. مقىء .. وقتلك مرة لا يكفى .. دعنى أقتلك

كما أريد .

وأخذ يضغط عنقه بأصابعه .. وازرق وجه الرجل وجحظت عيناه .. وخرج لسانه .

وتساءل حمزة وهو يخفف الضغط على عنق الرجل :

— ما رأيك فى الموت .. مزعج .. لقد أذقتمونا إياه بشتى الوسائل .. دعنى أريحك برهة .

وترك عنق الرجل برهة ثم عاد يطبق عليه قائلا فى هدوء :

— ما رأيك فى هذه اللعبة .. أليست مسلية ؟

وكان رشاد يرقد بين يدى عمار يلفظ آخر أنفاسه وهو يتمتم :

— أشهد أن لا إله إلا الله .. وأشهد أن محمدا رسول الله .

وصمت لحظة حتى خيل لعمار أنه قد قضى ولكنه فتح عينيه ثانية وهمس بآخر كلماته :

— الحمد لله .. الاستشهاد نعمة .. ولكن اغفر لى يا عمار .. أن طمعت فيها وتركتك بلا طبيب .. لديك الغيارات فى حقيبتى .. ضمد جرحك .. ضع القطن أولا .. ثم .. .

ولم يستطع أن يكمل قوله ..

وتحسس عمار رأسه وهو يهمس به :

— لا تتعب نفسك .. سأعرف كيف أضمده .. استرح أنت .

وأغمض رشاد عينيه .. وانتهى .

وسمع صوت عجلات دبابات قادمة من بعيد ..

والتفت عمار فى جزع ليجد حمزة ما زال ممسكا بعنق الرجل فصاح به :

— حمزة .. ما هذا الذى تفعله يا غبى .. نجدة العدو قد أقبلت .

وبضغطة على عنق الرجل أزهق روحه .. قائلا فى أسف :

— لو هناك شىء أكثر من الموت .. يا كلاب .. يا أولاد الكلاب .

وبصق على الرجل وركله ثم أقبل على عمار قائلا :
— هيا يا عمار .. هل تستطيع السير أم أحملك ..
وتناول عمار ضمادا من حقيبة رشاد وضمد جرحه بسرعة وهو يقول :
— سأحاول السير .. هيا نتجه بسرعة نحو النهر .
وأقبل عباس ووراءه يحيى وإبراهيم وبكر مربوط الذراع !
وقال يحيى فى أسى :
— مات سليمان وعبد الرحيم وجرح بكر .. أين الدكتور رشاد ؟.
وأجابه عمار فى حزن :
— مات ..
وتمتم عباس :
— قلت له ألايحضر .. إننا فى حاجة إليه .
وتمتم عمار فى حزن :
— لقد اعتذر عن موته .. طلب منا أن نغفر استشهاده .
وسمعت غصة البكاء فى حلق عمار ولكنه سرعان ما ابتلعها وقال فى حزم :
— يرحمه الله .. عاش رقيقا .. ورحيما .. ومات بطلا .
وتساءل يحيى فى جزع وهو يرى عمار يعرج .
— ما بال ساقك .
وقال حمزة :
— أصابه أحد الكلاب برصاصة .
وتساءل عباس فى قلق :
— وبعدين .. هل ستستطيع العودة ؟
وقال عمار :
— سأحاول ..
وقال حمزة :

— إنى أستطيع أن أحمله .

واقترب منه يحاول أن يساعده .

ولكن عمار قال فى إصرار :

— إننى أستطيع السير ..

وتساءل يحيى وهم يحاولون الابتعاد عن الموقع .

— كيف يمكنك عبور النهر .. وقطع هذا المشوار الطويل .

ثم صمت برهة واستطرد يقول :

— لدى فكرة .

وتساءل عباس :

— ما هى ؟

— أليس من الأفضل أن يعود عمار إلى بيته ..

وتساءل بكر :

— ألا يكون ذلك مغامرة ..

وقال يحيى :

— قد تكون .. ولكن عودته هذا المشوار الطويل .. وعبوره النهر بالرصاصات فى ساقه .. تكاد تكون مستحيلة .

وكانت خطى عمار قد أخذت تتثاقل .

وسأل حمزة عمار وهو يمسك بذراعه ويشده :

— ماذا بك يا عمار ؟

— لا شيء .. أشعر بالألم يزداد فى ساق .

وقال يحيى وكأنه قد حزم أمره :

— دعونا نستقر على رأى من الآن .. إنى أفضل له العودة إلى القدس .

وقال عباس :

— إذا رأيت ذلك أفضل .. وآمن .. فاذهب معه .. وخذ معك حمزة ..

وسأعود أنا وإبراهيم وبكر إلى موقعنا .. وسنحاول الاطمئنان عليكم .

وصمت برهة ثم استطرد يقول وهو يسمع صوت الدبابات يقترب :

ـــ ولكن دعونا ننطلق بسرعة قبل أن نقع كلنا .. فى قبضتهم .. هيا .

وسار عباس ورفيقاه تجاه النهر .

وتقدم عمار ورفيقاه فى درب ضيق تجاه الغرب .

وتساءل يحيى وهو يسند عمارا :

ـــ كيف تشعر الآن ؟

وهمس عمار وهو يعض على نواجذه :

ـــ الألم يتزايد ..

ـــ سنحاول أن نصل بسرعة .. أنا أعرف دربا يمكن أن يوصلنا إلى هناك مباشرة .. وأرجو أن نصل قبل ظهور الضوء .. وأن يجنبنا الله أية مفاجآت .

وقال حمزة وهو يسحب ذراع عمار على كتفه ويلف ذراعه حول جسده :

ـــ اتكئ على يا عمار .. أنت لست ثقيلا .. إننى أستطيع حملك بسهولة .

وقال عمار وهو يحاول أن يستحث الخطى :

ـــ ليس بعد .. إنى ما زلت قادرا على المسير .

وبدأ المشوار الطويل فى حلكة الليل .

وعمار يشعر فى كل خطوة كأن منشارا حادا ينشر عظم ساقه .. وبدأ يستند على ذراع حمزة من جانب وذراع يحيى من الجانب الآخر .

وازداد به الإعياء حتى أحس بالغثيان وتمتم فى صوت خفيض :

ـــ أنستطيع أن نستريح برهة.. دقائق قليلة .

واستقر على الأرض وقد تلاحقت أنفاسه .

وأحس بأن الدم الساخن ما زال يرشح فوق الضماد وأمسك جبينه بكفه يعتصره لوقف ذلك الصداع الأليم الذى أخذ يطرق رأسه بعنف .

وبعد هنيهة تحامل على نفسه وهو يهمس :

— هيا بنا ..

وعاد حمزة يلح وهو يحاول أن يحيط جسد عمار بذراعه .

— لماذا لا تدعنى أحملك ؟

وقال عمار :

— إن منظرنا لو رآنا أحد سيثير الشبهات .. دعنا نكمل .

وعاود عمار مشواره المضنى .. يسير بين صاحبيه بكل ما يملك من قوى خائرة .. وأنفاس متقطعة .

ومن بعيد بدأ يلوح ضوء خافت .

وهتف يحيى :

— ها هى المدينة قد لاحت .

وتمتم عمار وهو يحس أن نيرانا تندلع فى ساقه :

— الحمد لله ..

وقال يحيى :

— دعونا ننحدر يسارا .. فالجانب الشرقى أكثر أمنا .. ونستطيع أن نتسلل منه إلى الحى دون أن يشعر بنا أحد .

وأخيرا .. وصلت الجماعة .

وجد عمار نفسه يقف أمام البيت .. وهو يكاد ينهار .

وطرق يحيى الباب ..

ومضت فترة صمت .

وعاد يحيى يطرق الباب طرقات هادئة محاولا ألا يحدث ضجيجا يثير الشبهات .

وسمع صوت الشيخ عبد السلام يتساءل فى حذر :

— من ؟

ثم سمع صوت همهمة خافتة .

وقال عمار :

— افتح يا أبى .

واقتربت خطوات متردد من وراء الباب ثم سمع صوت مى يتساءل :

— من بالباب ؟

ورد يحيى فى ضيق وقلق :

— افتحى يا مى .. إنه عمار ..

وفتح الباب .. وخطا عمار خطوتين ثم انهار مغشيا عليه ..

وانكبت عليه مى وهى تهتف مرتاعة :

— عمار .. مالك يا عمار .

وانحنى الأب عليه يضمه فى لهفة :

— ماذا بك يا عمار .. قل لى .

وقال يحيى فى عجلة يحاول طمأنتهم :

— لا شىء خطير .. لقد أصيب فى ساقه .. وسيشفى بإذن الله ..

وعلا صوت الأم من الداخل متسائلة :

— ماذا هناك يا عبد السلام ؟

وقالت مى تطمئنها :

— عمار عاد يا خالتى ..

وبعد لحظة أقبلت الأم فى خطاها المتثاقلة وقد بدا عليها الإعياء ولم تكد ترى عمار ملقى على الأرض حتى صاحت :

— عمار .. ابنى ..

وهتف يحيى منزعجا :

— خالتى .. أرجوك .. كفى عن الصراخ وإلا أحسوا بنا .

وقال حمزة الذى وقف قريب الباب يرقب ما يحدث :

— دعونا نسعفه أولا .. إن حالته لا تستدعى القلق .. فالإصابة فى ساقه

ولكن المشوار الطويل قد أنهكه .. وما نزف من ساقه قد أعياه ..

وقال يحيى :

ـــ المهم أن نجد طبيبا بسرعة ..

وتمتم حمزة قائلا :

ـــ أغلب الظن أن الرصاصة قد استقرت فى ساقه .. وتحتاج إلى عملية لإخراجها .

وقالت مى وهى تنظر إلى عمار فى لهفة وجزع وقد أطبقت على كفه بكفيها :

ـــ دعونا أولا نريحه على الفراش .

وتقدم حمزة قائلا :

ـــ أنا سأنقله إلى الفراش .. ولكن يجب أن نحضر له طبيبا ..

وقال الشيخ عبد السلام وهو يتحسس وجه عمار مناديا إياه فى أسى ولهفة :

ـــ عمار .. عمار .

وتلفت إلى مى قائلا :

ـــ ليس هناك من يسعفنا غير الدكتور كمال .

وبدأ عمار يفتح عينيه وينظر نظرات تائهة وهو لا يكاد يدرك شيئا مما حوله ..ضمته فاطمة إلى صدرها وهى تنشج باكية :

ـــ سلامتك يا حبيبى ..

وهمس عمار وهو يميز فاطمة :

ـــ أمى ..

واندفعت مى نحو الباب وهى تهتف :

ـــ سأذهب لاستدعاء الدكتور كمال .

وقال يحيى :

ـــ سآتى معك ..

ولكن عبد السلام هتف به :

— بل ابق أنت .. فيجب ألا يراك أحد بمنظرك هذا .

وانطلقت مى فى الظلمة إلى بيت كمال .

ونقل عمار إلى الفراش .. وبدأ يحيى ينزع ملابسه وأزال الضماد الذى بدا ملوثا .. ووضع على الجرح الذى ما زال الدم ينزف منه قطعة قطن جافة .. وأخذت فاطمة تمسح وجه عمار ويديه بمنشفة مبتلة .

ولم يطل غياب مى .. وأقبل كمال يفحص ساق عمار وتمتم قائلا :

— نحتاج إلى عملية لإخراج الرصاصة .

ونظر إلى يحيى واستطرد قائلا :

— لقد نزف كثيرا .. ألم تكن هناك وسيلة لإسعافه ؟

وتمتم يحيى وهو يهز رأسه فى أسف :

— الطبيب الذى كان معنا قتل .. ولم نستطع أن نسعفه بأكثر من ربط ساقه بإحدى الضمادات التى كانت فى جربندية الطبيب ..

قال حمزة :

— رجوناه كثيرا أن يبقى عند النهر .. لينقذ جرحانا .. ولكنه رحمه الله .. فضل الاستشهاد ..

— ليس هناك مفر من إجرائها هنا .. فالمستشفى مستبعد تماما .. ونقله إلى العيادة قد يكشفنا ..

وخلع كمال سترته قائلا وهو يفتح حقيبته :

— سأعملها بقدر ما أستطيع هنا .

وأخرج من الحقيبة بضع أدوات وقال لمى :

— أرجوك يا مى .. اغلى لى ماء .

وبدأ الاستعداد لعملية إخراج الرصاصة .

ونظر كمال إلى الوجوه الجزعة المتطلعة من حوله قائلا :

— أرجوكم .. ابقوا فى الخارج .. وأرجو أن يتم كل شىء على ما يرام ..
وتمتم يحيى قائلا وهو يهم أن يغادر الغرفة :
— ألا أستطيع أن أساعد فى شىء يا دكتور ؟
— شكرا يا يحيى .. تكفى مى .
وخرج يحيى وحمزة وأمسك عبد السلام كف عمار الذى أخذ يئن أنينا خافتا متقطعا وتمتم قائلا :
— سليمة بإذن الله .. ربنا لا يرينا فيك سوءا أبدا .
ثم سحب فاطمة التى بدأت تنهنه باكية وأردف يقول :
— لا تبكى يا فاطمة .. إن الله معنا .
وهتفت فاطمة من قلبها :
— يا رب ..
وكان خالد قد استيقظ وأقبل يتساءل فى ذهول وهو يهم بالدخول إلى الغرفة :
— من هنا ؟
ورد الشيخ عبد السلام وهو يجذبه خارج الغرفة :
— لقد عاد عمار .. تعال يا خالد .. تعال .
وهتف خالد :
— عمار ..
ودفعه الأب أمامه ناهرا :
— قلت لك تعال ..
— أريد أن أراه يا أبى ..
وعاد يهتف :
— عمار ..
— اخفض صوتك .. إنه نائم .

ـــ عمار نائم .. وماذا كنتم تفعلون عنده ؟

وقال يحيى وهو يربت كتف خالد فى رفق :

ـــ إنه متعب يا خالد .. دعه يسترح .

ولمح خالد الضماد الملوث بالدماء فصاح :

ـــ عمار .. أخى عمار .. لقد أصابوه يا أبى .. جرحوه .

ورد عبد السلام فى غيظ وهو يهز ذراع الصبى :

ـــ اخفض صوتك يا غبى .

واندفع خالد فى البكاء وهو يواصل محاولته الدخول إلى الغرفة قائلا :

ـــ أريد أن أراه يا أبى .. من فضلك .

وقال كمال بهدوء وهو يرتدى قفازه :

ـــ دعه يدخل يا حاج عبد السلام .

وترك الأب ذراع الصغير الذى اندفع نحو فراش عمار هاتفا وعيناه مليئتان بالدموع :

ـــ عمار .. أخى ..

وفتح عمار عينيه وتمتم فى صوت خافض :

ـــ خالد ..

ـــ ضربك اليهود يا عمار .. لماذا لم تأخذنى معك .. لماذا لم تعطنى بندقية .. ألم أقل لك إنى كبرت ؟

وهز عمار رأسه .. دون أن يستطيع النطق .

وقال كمال وهو يربت ظهر خالد :

ـــ كفى الآن يا خالد .. دعه يسترح .

ـــ لا أحد يريد أن يعطينى سلاحا .

وبدأ كمال العملية على صوت أذان الفجر .

ونظر الأب إلى الذين وقفوا يتطلعون إلى الحجرة فى جزع وتمتم قائلا :

ــ الله أكبر .. الله أكبر .

والتفت إلى يحيى متسائلا :

ــ نصلي الفجر يا يحيى ؟

ــ أجل يا عمى .

وبعد برهة كان الجميع يخرون ساجدين .. وكمال منهمك فى إجراء العملية .

وفجأة طرق الباب ..

وشدت الأعصاب وكادت الكلمات تتوقف على شفاه المصلين وتوالت دقات القلوب .

واستمر الشيخ عبد السلام فى صلاته يؤم يحيى وحمزة « الله أكبر » .

وركع الاثنان وراءه وكف كل منهما على طبنجته الرابضة فى جيبه .

وداخل الحجرة توقف كمال فى مكانه وهمس فى قلق :

ــ أظنها أميرة قد أحضرت علبة الغيارات وبقية الأشياء التى طلبت منها أن تلحقنا بها من المستشفى .

وردت مى وهى تزفر فى أسى :

ــ أرجو أن تكون هى .. فلقد باتت طرقات الليل قاتلة ..

وقال كمال :

ــ إنهم يتعمدون أن يجعلوا حياتنا هنا فظيعة .

ومضت لحظات مروعة قبل أن تعود الطرقات ثانية .. ويسمع معها صوت نسائى يهتف :

ــ مى .. أنا أميرة يا مى .. افتحى .

وتنفس الكل الصعداء وهتفت فاطمة :

ــ افتح يا خالد .. إنها أميرة .

وأقبلت أميرة بحقيبة فى يدها تتساءل :

ــ كيف حال عمار ؟

وهزت فاطمة رأسها قائلة :

— ربنا يستر ..

وقال الشيخ عبد السلام بعد أن ختم صلاته :

— كمال يجرى له عملية فى حجرته .

ودلفت أميرة بالحقيبة فى يدها .

ومضت لحظات مرهقة أخرى .. قبل أن يخرج كمال والعرق يتصبب من جبينه وهو يتمتم فى لهجة مطمئنة :

— الحمد لله .. تم كل شيء على ما يرام .

وتساءلت الأم فى جزع :

— أليست هناك خطورة .

— بإذن الله لا .. ربنا فضله علينا .. لقد أصابته الرصاصة بشرخ فى عظمة الساق وتهتك فى العضلات .. ولكنه سيشفى تماما بإذن الله .

وتساءل يحيى :

— ألن يحتاج الأمر إلى تجبيس الساق ؟

وقال كمال :

— لا .. إن المطلوب له هو الراحة .. ولقد قلت لمى ما تفعله ..

وتمتم عبد السلام :

— ربنا يستر .. ولا تحدث مفاجآت ..

ودخل يحيى وحمزة حجرة عمار .. ووقفا برهة يرمقانه وقد أغمض عينيه وبدت السكينة على وجهه :

وتمتم حمزة قائلا وهو يغادر الغرفة إلى الصالة :

— كانت ليلة مرهقة ..

— ولكننا عملنا عملا طيبا .

— ترى ماذا فعل عباس والإخوان ؟

ـــ لا بد أن يكونوا قد عادوا إلى القيادة .

ـــ علينا أن نلحق بهم فى أقرب وقت .

ـــ أريد أن أمر لحظة على بيتنا لأطمئن على أمى .

وهمس حمزة :

ـــ ولنأكل لنا لقمة .. إنى أكاد أموت جوعا .

وقال حمزة وهو يمد يده مودعا :

ـــ نستأذنكم فى الرحيل .. وليطمئننا الله على عمار .

وقال الشيخ عبد السلام :

ـــ ألا تستريحان برهة .. أنكما مرهقان .

وقال يحيى :

ـــ أريد أن أمر على بيتنا ..

وقالت فاطمة :

ـــ انتظرا حتى تشربا فنجانا من الشاى .

ـــ سنشربه عندنا .. سنترككم لتستريحوا .

وقال كمال وقد حزم حقيبته :

ـــ وسأذهب أنا أيضا .. لقد أوصيت مى بما تفعله .. وسأعود فى الضحى بإذن الله .. هيا يا أميرة .

وقال يحيى :

ـــ دعونا نتسلل فرادى .. حتى لا نثير الشبهات .

ورد عبد السلام :

ـــ معك حق يا بنى .. بتنا نؤاخذ على كل همسة .

ومد يده يشد على يد يحيى قائلا :

ـــ مع السلامة .. لا أعرف ماذا أقول لكم .. فالكلام يخرج تافها وأجوف .. ليرعكم الله .. وليحفظكم .. ولينصركم .

وضم عبد السلام يحيى وحمزة إليه وقبلهما ..

وبعد برهة خرج كال ومعه أميرة ..

ووقفت فاطمة بجوار فراش عمار تتحسس جبينه فى لهفة وتتمتم بآيات من القرآن .

وأقبل عبد السلام عليها قائلا :

— تعالى يا فاطمة .. دعيه يستريح .

وكان خالد قد تسلل إلى الحجرة يرمق أخاه ويهمس فى لهفة :

— كيف حالك يا عمار .. أنا خالد .. إذا أعطيتنى البندقية .. فسأعرف كيف آخذ بثأرك .

ووقع بصر خالد على طبنجة عمار فوق منضدة صغيرة .. فمد يده إليها قائلا :

— هذه بندقية صغيرة .. أستطيع أن أضرب بها .. لماذا لا تعطيها لى ؟

وجذبت مى الطبنجة من يد خالد ناهرة :

— ألقها من يدك وإلا انفجرت فينا .. اذهب الآن ونم ..

— لقد طلع النهار ..

— اذهب ودعه يستريح ..

وخرج خالد ..

وبقيت مى وحدها فى الحجرة ..

نظرت إلى وجه عمار الذى يغرق فى سكينته وقد ارتسم عليه العبوس التقليدى .. الذى أضحى جزءا من قسمات وجهه ..

وركعت بجواره .. تتحسس يده فى حنان عجيب ورفعت كفه إلى شفتيها ..

وانهمرت الدموع الساخنة تبلل يده وأحست بأصابعه تتحرك وتتحسس وجهها وفتح عمار جفنيه ورمقها بنظرة مميزة وهمس :

— لا تبكى .. أنا بخير يا مى ..

١٧

من أجل الحيَاة

مرت أيام المرض بعمار بطيئة مرهقة .

كل دقة بالباب تصيب البيت برجفة .

ومى تجلس ساعات الليل الطويلة ترقب عمارا مغمض العينين تعصف به الحمى وتفلت من شفتيه آهة أو أنة .. تحس بها مى وكأنها سوط يلسع قلبها أو يد تطبق على عنقها وتكتم أنفاسها ..

والشيخ عبد السلام يسائلها فى إشفاق :

ـــ ألا تريحين جسدك يا مى ولو بضع ساعة ؟

ـــ إنى مستريحة يا عمى .. اذهب أنت واسترح فصحتك لا تحتمل كل هذا الإرهاق .

وأخيرا بدأت الغمة تنقشع .

وأخذ عمار يتماثل إلى الشفاء واستطاع أن يغادر الغرفة إلى الحديقة .

وكان الربيع قد هلت بشائره .. بزهور البرتقال تتفتح فى أكمامها تنفث أريجها فى نسمة رطبة ندية .. الأوراق الخضر تلمع على الأغصان .. وأشعة الغروب الأرجوانية تنبسط على الأوراق كأنها اليد الرقيقة الحانية .. تلوح بالوداع .

ومى تقبل بفنجان الشاى تحمله إلى عمار وقد جلس أسفل شجرة الليمون وقد مد ساقه المصابة على مقعد أمامه وبدت نظراته شاردة فى الأفق البعيد كأنها تتابع ذيول الأشعة الأرجوانية .. فى انسحابها وراء الأفق .

ومدت مى يدها بفنجان الشاى قائلة :

ـــ شاى .. يا عمار .

والتفت إليها عمار عائدا من شروده بنظرة يبدو فيها الحزن ومد يده يتناول الفنجان قائلا :

ـــ أرهقتك يا مى .

وابتسمت مى قائلة فى دهشة :

ـــ أنت أرهقتنى ؟!..

وازدادت ابتسامتها لتتحول إلى ضحكة مرحة وأردفت تقول :

ـــ أنت عبيط ..

وصمتت برهة تعب خلالها شهيقا من عبير زهور البرتقال ثم أطلقت زفرة طويلة مريحة واستطردت فى صوت خفيض قائلة :

ـــ لو استبعدنا قلقى عليك وخوفى من أن تحدث أية مفاجآت مزعجة لقلت لك إن أيام رقدتك كانت من أمتع أيام حياتى ..

ثم تساءلت قائلة فى لهجة خائفة :

ـــ أينطبق على .. « مصائب قوم عند قوم فوائد » ..

ورشف عمار رشفة طويلة من فنجان الشاى .. وأخذ يرقبها فى صمت .

وعادت هى تعب من عبير الزهر الذى يملأ الجو بعطره النفاذ وقالت فى نبراتها الحالمة :

ـــ عبير البرتقال ممتع ..

وصمتت لحظة ثم استطردت دون أن تنتظر إجابة :

ـــ وغروب الشمس جميل .. والربيع مزدهر .. والدنيا رائعة ..

وهزت رأسها وأردفت فى أسى :

ـــ ولكننا لا نستطيع أن نتمتع بشئ مما فيها .. عجيب أن نعرض عن نعمة الله ونعيش عمرنا نتقاتل من أجلها .. ونمضى محرومين منها ..

ولم يجب عمار .. بل عادت إليه نظرته الشاردة الحزينة .

واستطردت مى تقول :

— والعمر يمضى .. ساعة إثر ساعة .. ويوما بعد يوم .. والحياة الرائعة تنساب من أكفنا ..

ثم تنهدت وهزت رأسها قائلة فى يأس :

— الإنسان أحمق .. أحمق ..

وتمتم عمار يهز رأسه فى أسى :

— والحرب سخافة ..

ثم زفر من أنفه زفرة مريرة وأخذ يردد قول أبيه :

— سخافة أن يقدم على قتلك إنسان .. ولكن أسخف منه ألا تدرأ ضربته .. وتردعه .

وقالت مى :

— حرمنا من روعة الحياة .. فلعلنا نهديها .. إلى أجيال قادمة من بعدنا .. ليس أمامنا من عزاء سوى هذا .

ورد عمار فى حزم .. وكأنه يحاول أن يطرد عن نفسه أية محاولة للاسترخاء .. أو التمهل فى روضة الحياة الجميلة ..

— كتب علينا القتال يا مى .. فلا بد أن نقاتل .. ليجنى الآتون الثمرة من بعدنا .. أو لا يجنوها .. فهذا ليس من شأننا .. إن علينا فقط أن نقاتل .. لأن هذا حق .. وواجب ..

وهبت نسمة باردة أحست مى بلسعتها فقالت :

— قم يا عمار .. حتى لا تبرد .

ومدت مى ذراعيها له حتى يتوكأ عليها .. ولكن عمار حاول أن يستند على ساقه قائلا :

— إنى أستطيع السير وحدى .

وتمتمت مى وهى مادة ذراعها له :

— إنها متعة لى .. فلا تحرمنى إحدى المتع القليلة التى أحاول أن أختطفها من

حياتنا الرائعة المنسابة كالماء من بين أصابعنا المتقلصة .

وسار عمار يتكئ على ذراعها .. متجها إلى داخل البيت .

هذه مخلوقة عجيبة يا عمار !!

لو أن هناك فرصة للإقبال على الحياة الرائعة التى تصفها لكانت هى نفسها .. أروع ما فى هذه الحياة ..

ولكن .. الإقبال على روعة الحياة .. نوع من التسكع السخيف .. ليس من حقه .. أن يفعله .

شيء واحد .. هو الحق فى حياته ..

هو استعادته كرامته التى أهدرها .. برابرة القرن العشرين الذين خدعوا العالم كله .. بثياب المسكنة الزائفة .

شيء واحد .. هو الحق فى حياته .. التى مهما بلغت روعتها .. فهى بدونه .. مريرة نابية .. هو أن يكون له وطن .. أن تكون له هوية .. ألا يكون شريدا ضالا .. لاجئا ..

روعة الحياة .. مهزلة .. بالنسبة لمن ليس له أرض .. وليس له وطن ..

واستقر عمار على حافة الفراش فى حجرته .. بعد أن ترك ذراع مى ..

وأقبل خالد يتواثب من حوله .. قائلا :

— عمار ..

— نعم .

— هل شفيت ساقك ؟

— أجل .

— ولكنك كنت تستند إلى ذراع مى ؟

— لأنى .. لأنى ما زلت أعرج قليلا .

— وهل تستطيع أن تحارب وأنت تعرج ؟

— يعنى ..

— لقد درسوا لنا فى التاريخ أن تيمور لنك كان أعرج .. هل ستصبح أعرج كتيمور لنك ؟

وأقبلت مى تنهر خالد قائلة :

— ما هذا الكلام السخيف الذى تقوله ؟..

وقال لها خالد فى تحد :

— إن عمار سيصبح أعرج كتيمور لنك .

— إن عمار ليس أعرج .

— لماذا كنت تسندينه ؟

وترددت مى برهة ثم قالت :

— حتى لا تتعب ساقه .. وهو ما زال فى دور النقاهة ..

وأمسكت خالد من ذراعه تحاول إخراجه من الغرفة قائلة :

— تعال معى .. سأستذكر لك .. دروسك .. لقد مضت مدة وأنا مشغولة عنك .

ولم يتحرك معها خالد بل استمر يجلس بجوار عمار متشبثا بطرف الفراش وقال راجيا :

— والنبى يا مى .. دعينا من هذه الدروس السخيفة .. إنى سأتحدث مع عمار حديثا أهم من الدروس .

وضحكت مى قائلة :

— هكذا .. لعلك ستضع معه خطة الهجوم .

ورد خالد بلهجة جادة :

— ليس الآن .

وخرجت مى :

وعاد خالد ينظر إلى عمار متسائلا :

— عمار ..

— نعم .

— متى ستعود إلى الحرب ؟

— قريبا .

— وماذا تنتظر ؟

— عندما يأذن لى الدكتور كمال .

وازداد خالد اقترابا من عمار حتى التصق به ثم قال فى صوت خفيض :

— إذن لى عندك رجاء قبل أن تذهب .

— ما هو ؟

— هذه الماسورة التى كنت أظن أنها يمكن أن تصلح وتصبح بندقية .. قد اتضح أنها كلام فارغ ..

— وماذا تريد إذن ؟

— لقد رأيت مسدسك .. وهو صغير .. يمكننى أن أخفيه فى جيبى دون أن يراه أحد من الإسرائيليين .

— ثم ماذا ؟

— أعطه لى .

— وأنا ..

— أليس عندكم هناك .. أسلحة كثيرة ؟

— ولكنى لا أستطيع أن أسير بدونه .

— ابحث لك عن مسدس غيره .

— وهل تستطيع أن تستعمله ؟

— أضغط على الزناد .

— ليست المسألة مجرد ضغط زناد .. يجب أن تعرف كيف تعمره بالذخيرة .. وكيف تصوب به .. وكيف تصونه ..

— علمنى ..

ــ وماذا ستفعل به ؟

ــ أنت تعرف أن أبي قد كبر .. وأنا هنا .. الرجل بعدك .. ولا بد أن يكون معي سلاح .. أدافع به عنهم .

ــ أستستعمله للدفاع فقط ؟

ــ يعني ..

ــ ماذا تقصد بيعني ؟

ــ لو استطعت أن أقتل به أحدهم .. فلم لا ؟

ــ إذن .. فعندما ..

وقاطعه خالد محذرا :

ــ لا تقل لي عندما تكبر .. فلقد حملته وصوبت به .. وهو ليس مشكلة .

ــ هل فعلت هذا ؟

ــ أجل ..

ــ دون أن تستأذن مني ؟

ــ كنت راقدا .. وقالوا لي ألا أدخل عليك .. فأخذته واختبأت في الحديقة وراء شجرة الليمون وأمسكت به هكذا ثم رفعته هكذا .. وكنت أستطيع أن أضرب به .

ــ هل تعرف أين هو ؟

ــ أجل .. إن مي أخذته .. وزغدتني .. وقالت لي .. إني صغير .. ثم خبأته في درج الدولاب .

ــ إذن اذهب وهاته .

قالت لي مي ألا أفتح الدولاب .

ــ وهل تسمع كلامها ؟

ــ أسمعه بالنهار فقط .. عندما تكون رائحة غادية .. ولكن بالليل عندما تجلس قبالتك .. لتحملق فيك .. لم أكن أجد هناك داع لكي أسمعه ..

— إذا اذهب وهاته الآن .. وعندما تسألك قل لها إن عمار يريده .

— هائل .

وانطلق خالد إلى الحجرة المجاورة .. وفتح درج الدولاب ثم أخرج المسدس وعاد يحمله إلى عمار .

وأمسكه عمار بكفه ثم قال له :

— هات كيس الذخيرة ..

— أين هو ؟

— كان موضوعا فى جيب السترة .

— لن أطوله لأنها معلقة فى الدولاب .

— خذ هذا الكرسى واصعد عليه .

— وإذا ضربتنى مى ..

— قلت لك قل لها إنى أريده ..

وانطلق خالد إلى الدولاب وبعد لحظة عاد بكيس الذخيرة ، ومد يده به إلى عمار وقد بدت عليه السعادة المفرطة ..

وأمسك عمار بالمسدس وضغط على مقبضه فبدت تجاويف الساقية ..

وبدأ عمار يشرح لخالد طريقة التعمير قائلا :

— تضع أول طلقة فى هذه الفتحة .. ثم توزع الطلقات هكذا .. لأنك عندما تضغط على الزناد .. تتحرك هذه الطلقة لتكون أمام الماسورة .. فيضغط طرف الزناد على الكبسولة فتنفجر وتخرج الطلقة .. وكلما ضغط على الزناد كلما تحركت الساقية .. وانتقلت الطلقة التالية أمام الماسورة .

وأخذ عمار يرص الطلقات فى الساقية .. ثم قال :

— إذا أمسكت المسدس .. فكن رجلا .. لا تطلقه للعبث .. مفهوم ؟!..

وهز خالد رأسه مؤكدا :

— مفهوم .

ـــ لنفرغه الآن .. حتى أريك كيفيه التصويب .

ونزع عمار الرصاص من ساقية المسدس ثم بدأ يشرح لخالد :

ـــ تمسك المسدس بقبضة يدك هكذا .. ثم تفرد سبابتك خارج قنطرة الزناد .. أجل .. هكذا .. فإذا أردت الضرب بالنيشان ارفع المسدس بذراعك ممدودة أمامك .. وانظر إلى هذه الفتحة وحرك فوهة المسدس حتى تدخل هذا البروز بين حافتى الفتحة .. وضع أصبعك على الزناد واضغط هكذا ..

وأطلق عمار المسدس على الفارغ .

ثم أخفض ذراعه قائلا :

ـــ فإذا لم يكن هناك وقت للنشان فأطلقه بالتوجيه بمجرد أن توجه الفوهة نحو الهدف ثم اضغط الزناد هكذا .. وهكذا ..

وأمسك خالد بالمسدس يجربه .

ودخلت مى فصاحت به :

ـــ ما هذا الذى تفعله .. ألم أقل لك .

ولكن عمار قال لها فى هدوء :

ـــ دعيه يا مى .. إنى أعلمه .

ـــ تعلمه ماذا ؟

ـــ أعلمه كيف يستعمله .

وأمسك خالد بالمسدس فرحا وهو يقول لمى :

ـــ سيعطينى عمار المسدس .

وتساءلت مى فى دهشة :

ـــ أحقا ستفعل ؟

ونظر خالد إلى عمار مستفسرا :

ـــ أليس كذلك ؟

وقال عمار :

ـــ ليس هذه المرة .

وتساءل خالد فى خيبة أمل :

ـــ لماذا ؟..

ـــ لأنى لا أستطيع السير بدونه .. ولكن عندما أذهب سأحضر لى واحدا .. وعندما أعود سأعطيك هذا ..

وتساءل خالد فى لهجة خذلان :

ـــ ألن تضحك على ؟

ـــ لا ..

ـــ ولن تقول لى إنى لم أكبر بعد ؟

ـــ قلت لك عندما أعود أول مرة سأعطيك إياه .

ونظر خالد إلى مى وقال :

ـــ شاهدة يا مى ..

وضحكت مى قائلة :

ـــ أجل شاهدة .. ولكن .

وقبل أن تكمل مى حديثها سمعت طرقات على الباب فخطفت المسدس من يد خالد وأسرعت تخفيه تحت مرتبة الفراش .

ثم اتجهت لفتح الباب .

وأقبل يحيى يتساءل :

ـــ كيف حال عمار ؟

وردت مى قائلة :

ـــ بخير .. تفضل .

ودخل يحيى حجرة عمار وحياه فى شوق واستقر أمامه على أحد المقاعد .

وتساءل عمار فى قلق :

ـــ كيف حالكم ؟

— نشعر بفراغ شديد من غيرك .

— أرجو أن ألحق بكم غدا أو بعد غد .

— لا داعي للعجلة .. يجب أن تستكمل الشفاء ..

— إنى الآن أفضل .. ولقد خرجت اليوم إلى الحديقة .

— إن أمامنا مرحلة شاقة .. وخير لنا أن نصبر حتى تسترد صحتك تماما وتواصل العمل معنا من أن تنتكس بعد أيام .. وتعاود الرقاد .

— لقد ضقت بالرقدة .. وبالمرض .

— من أجل هذا يجب أن تصبر .. إننا نحتاج إليك يا عمار .. فأمامنا أيام قاسية ..

— بل أيام مشرقة .. لقد وجدنا يا يحيى .. وعلينا أن نبقى .

— لقد بدأنا نضرب تجمعاتهم بكل عنف .. ونيران الثورة تندلع داخل المدن والقرى .. والحرب الشعبية تزداد اشتعالا يوما بعد يوم .

— إن علينا أن نتوحد يا يحيى .. لكى نصبح جيشا للثورة .

— أجل يا عمار .. فالعدو يعد العدة لكي يوجه إلينا ضربة عنيفة .. وهو يحاول تحميل الدول العربية مسئولية تأجج ثورتنا ويهدد بحملة جديدة على الأردن لوجود قواعدنا هناك .

— يبدو وكأنه يحاول تهيئة الرأى العام العالمى لقبول مغامرة جديدة .

— أجل .. منذ أيام عقد الثلاثى المجرم .. موشى ديان وحاييم بارليف وأهرون بريف رئيس مخابراتهم مؤتمرا صحفيا فى تل أبيب .. وأعلنوا تزايد عمليات الإرهاب .. وانضمام الآلاف إلى الثورة .

— رغم أن أشكول كان قد صرح من قبل بالقضاء على ٩٥٪ من حركة المقاومة .

— لقد كشف المؤتمر كذبهم وأوضح فزعهم من المقاومة ولقد أكد هذا تصريحات مناحم بيجن فى مؤتمر راهات جان .. وتصريحات أشكول فى

الكنيست .

— إنهم بلا شك يمهدون لضربة جديدة .

— لقد بدأوا يحشدون قواتهم أمامنا .

— إنها تتدفق فى الطرقات نحو الشرق .

— كما أعلن موشى ديان أنه يعرف كيف ينهى المقاومة .

وصمت يحيى برهة ثم هز رأسه وتمتم قائلا :

— نحن الذين سننتهى منه .

وعاود يحيى الصمت . وتساءل عمار محاولا أن يعرف ما يعنى يحيى بقوله :

— كيف ؟

وجر يحيى مقعده حتى لاصق مقعد عمار ثم أجاب فى صوت منخفض :

— لقد أعدت له عملية خاصة .. فقد قررت القيادة أنه يجب أن يلقى عقابه كمجرم حرب .. باعتباره مسئولا عن عمليات التعذيب التى تنزل بنا ..

وأكمل عمار قائلا :

— والدمار الذى حاق بنا .. إنه يشارك بنفسه فى نسف بيوتنا .

— ومن أجل هذا .. ورغم أننا لا نستهدف الثأر الفردى .. وإنما نقاوم الاحتلال والاستعمار الاستيطانى لوطننا فلقد تقرر أن يلقى ديان عقابه المشروع حسب قانون المقاومة كمجرم حرب .

— وهل أعد مشروع الخطة ؟

ورد يحيى هامسا :

— تقريبا .. لقد كلفت به جماعتنا بناء على المعلومات التى استطعنا الحصول عليها .. إنه يتردد على مستعمرة حولون القريبة من تل أبيب حيث يقصد أحد المبانى التابعة لأركان حرب الجيش والتى تعود أن يعقد فيها اجتماعات عسكرية .. وقد تقرر اصطياده بالقرب من المستعمرة .

وهز عمار رأسه وقد بدا له الكلام غير مقنع وتمتم قائلا :

— أتعتقد أن العمل هناك ممكن ؟

— إنه ممكن .. لأنه يبدو غير ممكن .. ولأن العدو أيضا يعتقد هذا ..

وتساءل عمار فى دهشة :

— كيف ..؟

— إنه يعتقد أن العملية فوق طاقتنا .. وأننا لا نجسر على الوصول إلى هناك .. وأنها بعيدة حتى عن مجرد تصورنا .. ومن أجل هذا فالحراسة على ديان تكون هناك أقل منها فى أى مكان آخر .. إنها تخف حتى تكاد تكون معدومة فهو يعتبر نفسه هناك فى بيته .. ومن أجل هذا يصبح اصطياده سهلا ..

وصمت عمار برهة ثم هز رأسه قائلا :

— إنها مغامرة مثيرة ..

— إنها تعتمد على السرعة والمفاجأة ..

— متى ستتم ؟

— لم يحدد لها الوقت بعد .

— ليتنى أستطيع أن أشارك فيها .

— إن شاء الله نقوم بها معا .

— أرجو أن يسمح لى الدكتور كمال بمغادرة البيت .. فليس أثقل على النفس من الإحساس بالعزلة والمعركة تتأجج .

وشد يحيى على يد عمار قائلا وهو يبتسم :

— لن تكون أبدا فى عزلة يا عمار .. أنت معنا دائما .

وواصل الصديقان الحديث حتى أقبلت مى تدعوهما إلى العشاء .

وقبل أن يرحل يحيى وقف عمار يشد على يده قائلا :

— سألحق بك يا يحيى .. فما عدت أطيق البقاء ولعل العملية إياها .. لا تتم قبل أن أحضر .

ولم يطل بقاء عمار فى البيت .

بعد بضعة أيام كان يقف على أهبة الرحيل .

قال له كمال وهو يرى ضيقه برقدة البيت :

— اذهب يا عمار . أنت بخير الآن .. وتحتاج إلى بضعة أيام للنقاهة .. ولعلها تكون هناك أقدر على منحك الشفاء ..

وتمتمت الأم فى أسى :

— لماذا يا عمار تتعجل الذهاب .. أضقت بنا ؟

وقال لها الأب ناهرا :

— دعيه يذهب يا فاطمة .. لن نكون عبئا عليه أبدا .

ورد عمار وهو يشد على يد أبيه :

— لقد كنت لى دائما .. قوة دافعة ..

وعادت الأم تقول والدموع تخنق صوتها :

— قسمتى يا رب .. لم أطلب أكثر مما تطلب كل أم .. لم أطلب أكثر من مجرد الأمان .. مجرد الإحساس بأن ابنى لن أفقده كلما عبر باب البيت .

وزفر الأب قائلا فى سخرية :

— وكأنك تأمنين عليه إذا لم يعبره .

وعلا صوته فى لهجة حازمة :

— لم تعد الحياة لنا هدفا .. حتى نطلب الأمان والاستقرار .. إنها وسيلة لأن نحقق وجودنا .. وجود هذا الوطن المنهوب المبدد .. الضائع .. قيمة حياتنا لم تعد فيما تمنحه لنا متعة .. بل فيما تمنحه لهذا الوجود من تأكيد ..

وهزت فاطمة رأسها وهى تشعر بعجزها عن فهم ما يقول الشيخ ..

وأقبل عليها عمار ينظر إليها فى حنان ومد ذراعيه يضمها إليه وهو يهمس فى رقة لم يعتدها منه أحد :

— سأعود يا أمى .. ثم أذهب .. لأعود ثانيا حتى لا أخذلك .. إنى أذكرك دائما .. أذكر نظراتك وكلماتك ونبراتك .. وأحس منها إيمانا وقوة ..

حياتى ، ليست من أجل الوطن فقط يا أمى .. وإنما من أجلك ومن أجل أبى ومن أجل خالد .

ونظر إلى مى فوجد عينيها تتطلعان إليه فى نظرة حزينة فاستطرد يقول هامسا :

— ومن أجل مى .. أنتم جميعا تجسدون الوجود الذى نسعى إلى تحقيقه .. ليس الوجود .. وهما .. أو فراغا .. وإنما هو نحن .

وعاد يضم إليه أمه قائلا :

— سأعود يا أمى .. ثم أذهب .. لأعود ثانيا .. دائما سأعود .. من أجلكم جميعا .

ووثب إليه خالد يعانقه قائلا :

— وستحضر إلى المسدس ؟

— أجل ..

— وسأضرب به ..

ثم رفع يده كأنه أمسك بها مسدسا واستطرد يقول :

— بعد أن أعمر الساقية .. أضع يدى على القنطرة وأرفعه هكذا .. ثم أضع يدى على الزناد .. واضغط .. بم .. بم ..

وجره أبوه ضاحكا :

— كفى .. كفى .. لقد حصدت العدو ..

وسار عمار إلى غرفته .. ليضع سترته .. ويأخذ حقيبته .

وتسللت مى وراءه .

وقبل أن يتناول الحقيبة التفت إليها فجأة والتقت أعينهما .

ومد عمار يديه فأمسك بكفيها .

وأبصر عمار دمعتين تترجرجان فى مقلتيها ..

وهمس عمار قائلا :

(ابتسامة على شفتيه)

— لا تبكى يا مى .. لا دموع ..

وهمت مى بالكلام ولكنه وضع أصابعه على شفتيها هامسا :

— ولا كلمات ..

وعاد ينظر إلى عينيها نظرات مليئة بالحب ثم استطرد يقول :

— سأعود من أجلك أنت .. قبل كل إنسان .. إنك تمثلين كل الأشياء الطيبة التى أقاتل من أجلها .. أنت أروع ما فى الحياة يا مى .. وأنا أحارب من أجل الحياة .. ومن أجل كل ما هو جميل فى هذه الحياة ..

ومست مى أصابعه فى قبلة متعبدة ..

وعاد عمار يقول وهو يمسك أصبعها ويرفعه إلى شفتيه فى وله :

— سأعود إليك .. لأضع فيه خاتما .. سأذهب إلى عايدة لتشتريه لى من عمان .. ولن أعود إلا به .

واندفعت مى تضمه بين ذراعيها .. والدموع تنهمر من عينيها وهى تهتف :

— عمار .. سأنتظر دعوتك يا عمار .. لا تتأخر .

١٨

زفّة فى كهف

استقر عمار مع الجماعة فى مقرها فى الجبل ويداه تعبثان بخاتمى زواج فى جيبه .. يحاول أن يجذب ذهنه من الأوهام التى يجره إليها ملمس الخاتمين السحريين .

عبير البرتقال .. وأغصان الزيتون .. وبيت وسط بيارة ترفرف عليه أجنحة الحمام الأبيض وتتعالى من حوله زقزقة العصافير .. وصغير يعدو فى الأرض الخضراء .. ومى الرقيقة تحاول اللحاق به ..

وأشياء كثيرة جميلة .. مما تحويها حياتنا الرائعة .. ومما يمارسها الناس الطيبون فى هذه الدنيا .

ويهز عمار رأسه كأنما ينفض عنه الأحلام الوردية التى تجره إلى استرخاء لذيذ ..

وواصل عباس حديثه وهو ينشر ورقة بين يديه والرفاق يحيطون به ..

وقال عباس :

ـــ من هنا لا بد أن تمر سيارة ديان .. هنا عنق زجاجة لا بد لها أن تجتازه فى الذهاب إلى المبنى العسكرى فى مستعمرة حولون أو العودة منه .. وفى هذه النقطة يوجد جرف عميق خارج الطريق العمومى .. وهنا فى هذه الناحية المقابلة يمكن للقوة المهاجمة أن تكمن بعيدا عن المراقبة .. وتستطيع بعد القيام بعمليتها الانسحاب بسرعة قبل أن يفطن إليها أحد .

وصمت عباس برهة ثم استطرد يقول :

ـــ وأهم من هذا كله أن نقط المراقبة .. ودوريات الحراسة تكاد تكون

معدومة .

وتساءل يحيى :

— متى ستبدأ العملية ؟

— المفروض حسب التعليمات أن تبدأ ظهر الأربعاء ٢٠ مارس وسيكون عبد المجيد مع الجماعة مستعدا بالسيارة والعبوة .. خارج القدس قرب الطريق الذاهب إلى تل أبيب . ولديه معلومات دقيقة عن كل شيء والمفروض أن يلحق به اثنان منا ليلقياه مساء الاثنين ..

وقال عمار : أأستطيع أن أذهب فى هذه العملية .

ورد عباس وهو يهز رأسه :

— إننا نحتاج إليك للعمل هنا . إننا نتوقع أحداثا كبيرة .

وأطرق عمار برأسه ورد قائلا :

— أمرك ..

وقال عباس وهو يطبق الورقة بين كفيه :

— إن قيادتنا ستحاول بكل ما تملك من طرق أن تفضح حقيقة الحشود الصهيونية وتكشف أهدافها ومراميها للعالم كله ..

وصمت عباس برهة ثم أردف يقول :

— لقد قام العدو خلال الثمانى والأربعين ساعة الماضية بحشد قواته على طول النهر وغطى هذه العملية بحملة دعائية فى محاولة لتضليل الرأى العام العالمى وإيهامه أن الثورة الفلسطينية تنطلق من دولة عربية وقد ساهم فى هذه الحملة رئيس حكومة الصهاينة أشكول أمام الكنيست ووزير الدفاع موشى ديان ..

وشرد ذهن عمار فى طريق حولون القائم على الجرف وعربة ديان تجتازه .. والإشارة تعطى .. والعبوة تنفجر .

كم ود لو كان هناك .. ليفجر العبوة بنفسه .

إنه يكره الانتقام .. يكره أن تحركه انفعالاته الخاصة فى المعركة الكبرى

ولكنه يحس أن بعض القساة المغرورين الذين يجرون العالم إلى الدمار .. والذين يستسيغون الوحشية كأداة لتحقيق أطماعهم .. هؤلاء يجب أن يردعوا ردعا خاصا.يجب أن يعاملوا كالعقارب والأفاعي ، لأن بترهم يشكل منعا لأذى أو وقفا لدمار ..

وأوقف شرود ذهنه نحنحة من عباس .. واستطاع أن يسترجع ذهنه لمتابعة حديث عباس بعد أن سرح في جزء منه .. وسمع عباس يسترسل قائلا :

— وقد حملت تصريحات القادة الإسرائيليين فى طياتها تهديدا جديدا بشن غارة عدوانية أخرى على الأردن بنفس الحجة التى طالما كرروها وهى وجود قواعد لفتح فى الأراضى الأردنية ..

ورد يحيى قائلا :

— العجيبة أنهم يناقضون أنفسهم .. فلطالما ادعوا أنهم قضوا على مقاومتنا ولكن تصريحاتهم تؤكد إحساسهم بأن الثورة تتصاعد بعد أن تدفق علينا الآلاف من المتطوعين .

وقال عباس :

— إنهم يحاولون إخفاء معالم كفاحنا ونسبته إلى خارج وطننا وأن ينفوا من ذهن العالم أن ثورتنا حرب تحررية نابعة من إرادة شعبنا .

وأقبل حمزة يضرب قاع حلة فارغة بكبشة محدثا ضوضاء أشبه بضوضاء الجونج قائلا :

— العشاء جاهز .

وقال بكر دون أن يلتفت إلى حمزة :

— إنهم يتوهمون أنهم بمغامرتهم هذه يستطيعون صرف الرأى العام العالمى عن حملات الإرهاب النازية التى يمارسونها ضد المدنيين العزل فى الأرض المحتلة .

ورد عباس :

— أو لعلهم يحاولون امتصاص القلق والفزع الذى بدأ يعم الأهالى المدنيين

عندهم بعد أن وجهت قيادتنا إنذارها بأنها سترد على عمليات الإرهاب والقمع التى ينزلونها بالمدنيين عندنا بإجراءات رادعة تنزل بالمدنيين عندهم .

وعاد حمزة يضرب قاع الحلة صائحا :

ـــ العشاء يا غجر .. إذا لم تقوموا الآن فلن تجدوا لقمة واحدة .. إنى أستطيع أن ألهف الصينية وحدى .. فأنا أكاد أموت جوعا ..

ولم يجبه أحد .. واستمر عباس يقول :

ـــ يجب أن يفهم الرأى العام العالمى أننا شعب نمارس حقنا فى النضال من أجل تحرير وطننا .. وأننا لن نهدأ حتى نحرره أو نموت على أعتابه .

وضرب حمزة قاع الحلة ضربة أخيرة قائلا :

ـــ ذنبكم على جنبكم .. لعل السياسة والكلام ينفعكم ..

ثم التفت إلى يحيى قائلا :

ـــ أين صفيحة زيت الزيتون التى وعدتنى بها ؟

وقال يحيى :

ـــ هناك بجوار الحقيبة والمدفع .

واتجه حمزة إلى الركن الآخر من الكهف وهو ما زال يطرق قاع الحلة بالكبشة وقد أخذ فى الغناء .

ونهضت الجماعة إلى الطعام .

وفى ركن أضاءه مصباح خافت التفوا حول صينية مستديرة حوت عدسا مطبوخا وبدأ كل منهم يقطع من رغيفه ويغمس من الصينية .

وتوقف عمار عن المضغ برهة وهو يحاول تذوق طعم العدس .

ونظر يحيى إلى حمزة وهو يلوك لقمة العدس بين شدقيه قائلا :

ـــ طعم العدس غريب .

وقال حمزة وهو يهز رأسه فى رضاء :

ـــ لعله يطمر فيكم .

وتساءل عباس وهو يمضغ لقمة العدس وقد بدا على وجهه القرف :

ـــ ما هذا الذى يطمر فينا ؟

ـــ لقد هيأته لكم ..

ـــ كيف ؟

ـــ بزيت الزيتون .

ومضغ عمار لقمته وهو يقول مستنكرا :

ـــ أهذا طعم زيت الزيتون ؟

وتمتم بكر قائلا :

ـــ لعله زيت سلاح .

وقفز يحيى من مكانه صائحا :

ـــ ليلتك سوداء .. إياك أن تكون أخذت صفيحة زيت السلاح بدل زيت الزيتون .

وتساءل حمزة مستنكرا :

ـــ أهناك صفيحتان ؟

ـــ ألا تعرف أن لدينا صفيحة زيت السلاح التى نزيت بها المدافع والبنادق ..

ـــ ولكنك قلت لى إن صفيحة زيت الزيتون بجوار الحقيبة والمدفع ..

واتجه يحيى إلى مكان فراشه حيث وضع حقيبته ومدفعه ورفع صفيحة بجوار الصفيحة قائلا :

ـــ هذه هى صفيحة زيت الزيتون يا غبى .

وتمتم حمزة فى ذهول قائلا :

ـــ وماذا تكون الصفيحة التى أخذتها ؟

ـــ من أين ؟.

وتلفت حمزة حوله ثم أشار إلى مدفع موضوع بجوار فراش آخر :

— لقد أخذتها من هنا .. أليس هذا فراشك ؟

وقال عمار :

— هذا فراشي أنا .. وقد كانت صفيحة زيت السلاح بجوار المدفع .. لأنى كنت أوشك أن أزيته وأنظفه .

وطأطأ حمزة رأسه خجلا وتمتم قائلا :

— مصيبة .. لقد وضعت زيت السلاح على صينية العدس .

وهز عباس رأسه وتساءل فى أسف :

— وكيف سننظف السلاح ؟

وقال بكر ضاحكا :

— ننظفه بزيت الزيتون ..

ورد يحيى مقهقها :

— ونأكل العدس بزيت السلاح ..

وقال حمزة ضاحكا وهو يجد المسألة انقلبت إلى مزحة :

— ونبلعه بقنابل يدوية .. بدل .. الطرشى .

وانهالت الأيدى باللقم فى صينية العدس .. حتى أتت عليها .. ووضع حمزة آخر لقمة فى فمه وهو يقول مستطعما :

— كانت أكلة لذيذة ..

ونظر حوله متسائلا :

— نريد كهنة تنظيف .. لمسح أفواهنا .. وإلا .. أقول لكم ..

ومد ذراعه فمسح فمه فى طرف كمه قائلا :

— قالت لى أمى لا تبصق على الأرض .. ولا تمسح أنفك أو شفتيك فى طرف كمك .. ولكن ما دامت المسألة وصلت إلى زيت السلاح .. فلا أظن نصائحها تصبح مجدية .

وصمت حمزة برهة ثم قفز صائحا :

— والآن هيا يا أولاد .. ننظف بقايا الطعام .. ثم ننظف السلاح .. هيا .. فالنظافة من الإيمان .

وغسل حمزة صينية الطعام ..

ثم أخذ يمر على الرفاق .. يعطى كل واحد خرقة بللت بالزيت وأخذ كل منهم يفك سلاحه بجوار المصباح وينظفه ويزيته ..

وجلس عمار واضعا المدفع بين ركبتيه .

وجلس بجواره يحيى ممسكا بمدفعه ينظف ماسورته وهو يتساءل :

— ترى متى يبدأون الهجوم ؟

— من يدرى .. ربما غدا .. وربما بعد غد .

— ترى كيف ستواجه قيادتنا الهجوم ؟

— أعتقد أنها ستقرر الصمود .. فنحن فى حاجة كبرى إلى عمل يرفع معنويات العرب ويحطم معنويات العدو .

— وماذا سيكون موقف الجيش الأردنى ؟.

— بلا جدال سيتصدى للهجوم .. وسيحقق هذا زيادة التقارب وتدعيم الثقة بين المقاومة وقوات الجيش الأردنى .

— ستكون المعركة لو قررنا الصمود اختبارا كاملا لثقتنا بأنفسنا فى مواجهة العدو فى هذه المرحلة الجديدة من مراحل كفاحنا المسلح ..

— وستدعم القوى الثورية داخل صفوف شعبنا ..

وكان عباس قد استدعى إلى مقر القيادة ..

وكانت المعلومات التى وصلت إليها من تجمعات العدو وحشوده وتحركاته المنتظرة هى أنه سيتقدم فى خطين : خط من جنوب الكرامة وخط من شمالها لوضع الكرامة بين فكى الكماشة .

ويبدأ الهجوم فى فجر يوم الخميس بإنزال قوات المظلات شرق الكرامة لسد منافذ الانسحاب على الثوار ..

وفى نفس الوقت تقوم القوات المتقدمة من الشمال والجنوب والشرق بعملية تمشيط واسعة لمنطقة الكرامة .

وبعد سرد المعلومات عن العدو وشرح الخطة بالتفصيل تلقى عباس مع بقية القادة الأوامر الخاصة بالصمود والمواجهة .

وعاد عباس إلى الموقع مرة أخرى .

كان حمزة قد أعد الشاى .

وكان البعض قد استلقى فى مرقده ببطانيته والبعض يتشاغل بالحلاقة أو بتنظيف السلاح .

وأخذ حمزة يوزع الشاى .. عندما طرقت أقدام عباس الأرض الصخرية .. وقال بصوته الأجش :

— لدى بعض تعليمات من القيادة .

ونفض الجميع عنهم غبار الاسترخاء أو النعاس وتجمعوا حول عباس بالقرب من المصباح .. ووضع حمزة براد الشاى وأقبل يتخذ مكانه وسط الجماعة منصتا .

وقال عباس وهو ينشر الخريطة على حجر وسط الجماعة :

— آخر المعلومات أن العدو قد حشد ثلاثة لواءات مدرعة وحوالى ١٢ ألف جندى من المشاة جمعهم قرب الجسور فى محاولة لتطويق قواتنا من كل الجهات .. ولقد قررت القيادة أن نصمد أمام الهجوم وأن نصده بكل ما نملك من قوة .. والخطة العامة هى أن ندع العدو يتقدم دون أن نعترض طريقه .. وعندما يتوغل داخل الأراضى دون ملاحظة وجودنا نفاجئه بغارات سريعة ومفاجئة بغرض تدمير قواته المدرعة ونشر الذعر والفوضى فى مشاته ومنع طيرانه من تدمير مراكزنا ..

وبدأ عباس يشرح بالتفصيل دور الجماعة فى الخطة .. وواجب كل فرد فى معركة المواجهة الكبرى التى توشك المقاومة أن تخوضها ..

وأخيرا صمت عباس والتفت حوله متسائلا :

ــــ أى أسئلة ..؟

وتساءل حمزة فى قلق وهو يهز رأسه :

ــــ هل سنتركهم يتوغلون فى أرضنا ؟

ــــ أجل .. يجب أن نترك لهم فرصة التوغل ثم ننقض عليهم لتدمير مدرعاتهم وسياراتهم ..

وتساءل عمار :

ــــ وماذا سيكون موقف الجيش الأردنى ؟

ــــ ستضرب المدفعية إمدادات العدو .. وستدمر خطوط مواصلاته .. وستكون المعركة مشاركة كاملة لتأكيد التعاون والثقة بين قواتنا وقوات الجيش .

وصمت عباس برهة ثم استطرد يقول :

ــــ وستقوم وحدات المدفعية الهاون من عيار ٨١ وعيار ١٢٠ طوال الليلة التالية بضرب حشود العدو فى الضفة الغربية للنهر لمحاولة إنزال أكبر قدر من الخسائر فى منشآته ومواقعه .

وساد الصمت مرة أخرى .

وقال حمزة وهو يهز رأسه :

ــــ لم تعد المسألة لعبا . لم يعد الأمر مجرد إلقاء قنبلة على دورية .. أو نسف قطار .. أو مهاجمة موقع .. إنها معركة بحق .. لم تعد المسألة اضرب واهرب .. بل قف وقاوم .. حتى نقتل أو نُقتل ..

وقال يحيى :

ــــ لو انتصرنا .. فستكون نقطة تحول فى تاريخ كفاحنا ..

ورد بكر :

ــــ سيحولنا من فدائيين يمارسون حرب العصابات .. إلى جيش يقاتل فى

معركة كبرى .

وتنهد عمار وقال فى صوت خفيض :

— ستدفعنا خطوة فى طريق النصر الحقيقى .

ورد عباس :

— وسننتصر بإذن الله ..

ثم نهض واقفا وهو يقول :

— ليذهب كل منكم إلى فراشه .. وليسترح حتى الغد

واستلقى عمار فى فراشه مفتوح العينين .. وبعد لحظة سمع صوت يحيى يهمس به :

— أنمت يا عمار ؟

— كيف أنام فى ليلة كهذه ؟

— أما زلت تفضل الذهاب فى مهمة حولون ؟

— طبعا لا .. لقد كنت دائما لا أحب المهمات الخاصة .. ولكن هذه المهمة .. بدت لى ذات قيمة خاصة .. ولكن أحس الآن أننا أمام مهمة أكبر ..

— لو هيأ الله لنا النصر .

— ولم لا .. إننا نقدم كل ما نملكه من أجل تحقيقه .. إنى أتصورهم بعد التوغل فى أراضينا .. كالفيران فى المصيدة.ولا أجد ما يمنعنا من سحقهم سحقا .. بعد أن يقعوا فى مزارع الموز بين براثننا .

— ولن تتمكن طائراتهم من ضربنا بعد أن نندمج فى اشتباك معهم ..

وتنهد عمار وبدت أصابعه تتحسس الخاتمين فى جيبه وقال شاردا :

— أجل .. أجل .

ورد يحيى :

— أين شرد بك الذهن ؟

وتنهد عمار وتمتم قائلا :

— فى بعض أشياء كنت أظنها تافهة .

— مثل ..

— حقنا فى الاستمتاع بالحياة .

— أتعتبره تافها ؟

— بدا لى فى أول الأمر .. وفى زحمة الكفاح .. تافها .

— ثم ..

— أحسست فجأة .. أن كفاحنا يكون بلا طعم إذا لم يكن لدينا إحساس بروعة الحياة .. وبكل ما يشكل هذه الروعة .

وصمت يحيى برهة ثم سأل فجأة :

— أتحب يا عمار ؟

ومضت برهة دون أن يرد عمار .

وعاد يحيى يسأله :

— لماذا لا تجيب ؟

— ولماذا تسأل ؟

— لأنه لا يدفعنا إلى الإحساس بروعة الحياة .. غير الحب .

وساد الصمت مرة ثانية وعاد يحيى يسأل :

— هل تحب يا عمار ؟

— ربما ..

— ليس فى هذه المسألة ربما .. إما نعم .. أو لا .

— نعم .

— وهل تحس بروعة الحياة ؟

— أحس بأشياء كثيرة رائعة .. وأجدها تبدو كأنها سراب لا أمل فيه ..

— لماذا ؟

— هل يمكن أن آمل فى بيت هادئ وحياة آمنة .. فى زيتونة وارفة تظلل البيت

وحمامة بيضاء ترفرف عليه . هل يمكن أن أنجب صغارا .. يعدون حولى .. يتضاحكون .. ويتواثبون .. هل يمكن أن أحلم بها تجلس لتنسج صديريا للصغير القادم على أبواب الربيع ؟

— ولم لا ؟

— كيف .. ونحن لا نستطيع أن نحلم .. بمجرد الأرض التى نقف عليها .. والهواء الذى نتنفسه.. والأرض التى سحبت من تحت أقدامنا.. والهواء الذى فرغ من حولنا .. وبقينا نعيش فى فراغ .. بلا أرض ولا هواء .. كيف نأمل فى البيت الآمن والعيش الهادئ وعلى أعناقنا سيف الإرهاب الصهيونى.. الذى يحلم صاحبه بإمبراطوريته المشيدة على أشلائنا .. تنبسط وتمتد ليحقق أحلامه من النيل إلى الفرات .

وتنهد يحيى :

— وهل يمنعنا الكفاح .. من أن نبنى البيت .. ونحميه ..

— أمر شاق يا يحيى .. كنت من قبل .. أشعر أن أمامى هدفا .. واحدا .. لا بديل له .. وكنت أحس أنى ولدت من أجله .. وأن حياتى لا قيمة لها إلا أن تبذل من أجل تحقيقه ..

— والآن ؟

— أشعر أنى أريد أن أنتصر .. وأحيا .. إنى أشعر أن انتصارى يمكن أن أهديه لإنسان ما .. إنسان أود أن أدخل السعادة إلى قلبه ..

— هل بت تخشى على حياتك يا عمار ؟

— أبدا .. ولكنى بت أشعر أن لها قيمة أكثر من مجرد الفناء .. أشعر أن لها قيمة البقاء .. لكى تحقق الكثير .

وصمت عمار برهة وهو يحدق فيما أمامه ثم استطرد يقول :

— من قبل كنت أدخل المعركة وحياتى فى كفى كأنها قطعة عملة لا أحتاج إليها .

— والآن ؟.

— أشعر أنها عملة تستحق الاستثمار .. إنى ألقى بها لأخرج من المعركة بها وبأرباحها من النصر .. أود أن أعود بعد المعركة .. إلى مى .. لأقدم لها الخاتم .. كربح من أرباح المعركة .

وتساءل يحيى فى دهشة :

— أستقدم خاتما لمى ؟

— أجل .. إنه فى جيبى .. لقد ذهبت إلى أختى عائدة .. وطلبت منها أن تشترى لى خاتمى خطبة .

— يا مكار .. فعلت هذا دون أن تقول لى .. ومن أجل هذا تتحدث عن روعة الحياة .. وقعت يا عمار .. دون أن يسمى عليك أحد .. وهل تعرف مى بذلك ؟

— قلت لها إنى سأحضر لها الخاتم عند عودتى .

— ألف مبروك يا عمار .. إنها مخلوقة رائعة .. رائعة فى كل شىء .. وليس بغريب .. أن تجعل الحياة فى نظرك تبدو بالروعة التى تراها .

وعلا صوت حمزة يتساءل وقد سمع قول يحيى « مبروك » .

— مبروك على ماذا ؟..

وقال يحيى محاولا إسكاته :

— نم يا حمزة ولا تعل صوتك هكذا ..

— سمعتك تقول لعمار مبروك ..

— أجل .

— مبروك على ماذا حتى نشاركه الفرحة .

— سيخطب .

— حقا ؟!!

وفجأة أطلق حمزة زغرودة دوت فى جوف المغارة .

وأخرج عباس رأسه من تحت الغطاء وتساءل فى دهشة :

— ما هذا ؟

وصاح حمزة وهو يصفق بكلتا يديه :

— عمار سيتزوج يا ريس .

وهتف عمار بحمزة زاجرا :

— حمزة .. اعقل وكف عن هذا العبث .

— حيرتونا .. ألم يقل يحيى إنك ستخطب ؟

وقال يحيى :

— إنه مشروع .. عندما يعود بعد المعركة .. سيقدم الخاتم .

وتعالت أصوات الجماعة :

— مبروك يا عمار .

وفجأة نهض حمزة من مرقده .. وهو يجد نفسه لا يستطيع أن يقاوم نوبة الطرب التى أصابته :

— يا جماعة .. دعونا نحتفل .. بعريسنا .

وهتف عمار بحمزة :

— حمزة .. كف عن هذا المزاح .. وإلا دققت عنقك .

ولم يأبه حمزة لتهديده بل أمسك بصينية العدس وأخذ يدق عليها صائحا وهو يرقص :

« مبروك عليكى .. عريسك الخفة » .

وهتف بعمار قائلا :

— انهض يا عمار حتى نزفك .

— عيب يا حمزة .

— ما عيب إلا العيب .. دعونا نفرح بعمرنا من يدرى ما سيأتى به الغد .. قم يا عمار .. قم .

وسرت نوبة المرح من حمزة إلى بقية الرفاق .. فبدأوا يصفقون وينشدون معه :

« عريسك الخفة » .

وهز عمار رأسه وهو ينظر إلى يحيىَ فى غيظ :

— أيعجبك هذا ؟

وقال يحيى ضاحكا :

— يا أخى .. قم وصهلل معهم .. إنهم فى حاجة إلى شىء يفرحهم .

وصاح حمزة متسائلا :

— أعمل لكم شربات ؟

ورد عليه بكر متسائلا :

— أملك تجبه بدون سكر ؟

— لا .. إلا الشربات ..

وبدأ حمزة فى تذويب السكر فى الماء لعمل الشربات .

١٩

نزهَة داميَة

الطريق إلى مستعمرة حولون .. والنهار قد أوشك أن ينتصف ونسمة رطبة باردة تهب من الشمال يخفف من برودتها دفء الشمس التى توسطت صفحة السماء .. تتلاحق على وجهها قطع من السحب البيضاء تدفعها الريح بخفة من ناحية الغرب .

والطريق يبدو خاليا .. إلا من عربة تمرق بسرعة بين آونة وأخرى وبجوار أحد الأحراش القريبة من الطريق وقف بكر يرتدى قميصا وبنطلونا وكاسكتة ويتشاغل بإصلاح أحد الموتوسيكلات وعيناه ترقبان الطريق الأسفلت المتجه إلى المستعمرة وتستقران بين آونة وأخرى على الجرف الذى ينحدر رأسيا على جانب الطريق حيث أخفيت العبوة الناسفة وامتد منها سلك كهربائى مدفون بين الأعشاب حتى يصل إلى المفجر حيث اختفى به حمزة وعبد الحميد وراء حرش بعيد عن الطريق وعن المراقبة ووقفا يرقبان إشارة النسف من صاحب الدراجة ووسط الأحراش تفرق بقية الجماعة يرقبون الشارة وينتظرون الانفجار حتى يشنوا هجومهم على بقية القول يدمرون عرباته ويقضون على أفراده .

وبدا التوتر على عبد الحميد وهو ينظر إلى ساعته هامسا :

ـــ أوشكت العقرب أن تصل إلى الواحدة ..

وتشاغل حمزة بإشعال سيجارة وقال بهدوء :

ـــ على أقل من مهلهم .. ماذا وراءنا ؟..

وسمع عبد الحميد صوت عربة تقترب .. فوضع يده فى عصبية على المفجر .. وكان حمزة يراقب بكرا من بعيد وهو ينحنى على دراجته فقال

لعبد الحميد :

— اثبت .

— أسمع صوت عربة .

— إننا ننتظر الشارة من بكر فهو يرى الطريق جيدا .. وسيعطينا الإشارة عندما يوضع الرأس فى الخية .

ورد عبد الحميد فى قلق :

— أخشى ألا يعطينا الإشارة إلا بعد فوات الوقت .

— لا تخش شيئا .. اهدأ .. وخذ سيجارة .

— لا .. لا .. أنت تعرف أن إشعال السجائر ممنوع .

— فى الظلام فقط . خذ نفسا يا أخى واهدأ .

ولكن عبد الحميد أخذ يرقب بكرا وقد شدت أعصابه .. وبدت الثوانى تمر به بطيئة مرهقة .. بطيئة مرهقة .

وبدا بكر منهمكا فى إصلاح الدراجة .. غير ملق أى اهتمام إلى المراقبة .

وهتف عبد الحميد فى ضيق وعصبية :

— ما الذى يفعله هذا الأحمق ؟

وهز حمزة رأسه متسائلا :

— ماذا ؟

— إنه لا يكاد ينظر إلى الطريق .

— هل تريده أن يجلس متربعا وعيناه على الطريق ليقول لكل من هب ودب .. يا ناس هنا فدائى يرقب الطريق الذى ستمر عليه عربة ديان ؟!.

— ولكنه لا يرقب أصلا .

— إنه يرقب بطريقته الخاصة .

— إنه إنسان غير مسئول . ولا بد أن ..

وقاطعه حمزة فى غيظ :

— اهدأ يا أبو عبده .. إنك تبدو وكأنك تخرج للعمل لأول مرة .. ألم تصطد دوريات إسرائيلية من قبل ؟

وقال عبد الحميد وهو يلتقط أنفاسه :

— كثيرا .. ولكنها لم تكن بهذه الخطورة .

وهز حمزة رأسه وتساءل فى استخفاف :

— وما خطورة هذه ؟

— إننا سنصطاد الرأس الكبير .

— ليس فى الصيد كبير .. كلهم روح آثمة .. تزهقها طلقة .. وجسد شرير تمزقه شظية .. اهدأ .. ودع الأمر لى .

ولكن عبد الحميد استمر يمسك بمقبض المفجر .. وأذناه ترهفان السمع وعيناه تحدقان فى شبح بكر المنحنى فوق الدراجة .

وفجأة سمعت أصوات عربات آتية من بعيد .

وشدت أعصاب عبد الحميد وهمس فى حدة :

— لقد وصلوا ..

وشد حمزة من سيجارته نفسا وقال بهدوء :

— جائز .

— إنهم هم بلا شك .

واشتدت قبضته على يد المفجر .

ونظر إليه حمزة وقال فى سخرية :

— يا أخى اهدأ .. وارفع يدك عن المفجر .

— كيف .. إنهم يقتربون .. ألا تسمع صوت العربات ؟

— أجل أسمع .

— وماذا ننتظر إذن ؟ .

— ننتظر الشارة .

— إن هذا الأحمق يبدو كأنه ليس هنا .

وجذب حمزة نفسا من سيجارته ولم يجب .

وعاد عبد الحميد يقول فى عصبية :

— غير معقول .

— ما هذا غير المعقول ؟

— إنه منكب على الدراجة .. وكأنه ليس أمامه غير إصلاحها .

— يجب أن يبدو كذلك .

— العربات تقترب .. ألا تسمع ؟.

وكان بكر قد انحنى على الدراجة وهو يرهف السمع ويرقب الطريق من أسفل الكاسكتة .

وبدت ثلاث عربات تقبل من الناحية الأخرى تجاه الجرف .. وأخذت العربات تقترب أكثر وأكثر .. حتى استطاع بكر أن يلمح الرجل الأصلع ذا العصابة على عينه .. بجوار سائق عسكرى .. وخلفه أحد الضباط .

وبدأ بكر يستعد للإشارة . وهو يرى العربة تقترب من الجرف .. وتوشك أن تصل إلى مكان العبوة الناسفة .

وفجأة وقبل أن يرسل الإشارة .. وقبل أن تصل العربة إلى المكان المحدد .. دوى انفجار شديد .. وأبصروا العربة تنحرف عن طريقها فجأة لتهوى فى الجرف وقد علا من حولها الدخان والتراب وتناثرت الشظايا والحجارة .

وكان حمزة ينظر مذهولا إلى عبد الحميد ويتساءل فى غضب :

— لماذا لم تنتظر الإشارة ؟

— أكنت تريدنى أن أنتظر حتى تتجاوز العربة العبوة .. وتمرق منها ؟

— ومن أدراك أنها وصلت ؟

— لقد مر الزمن الكافى لوصولها .

واستطرد يقول وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه اللاهثة :

ــ غير معقول أن أتركها تمر .. إنها فرصة العمر ..

وقال حمزة وهو يهز رأسه فى أسى :

ــ لقد أضعت فرصة العمر .

ــ لقد نسفت العبوة العربة .

ــ بل تفجرت قبل أن تصل .

ــ وهذا الصراخ .. والضجيج .

ــ لقد انحرفت العربة عن الطريق وهوت إلى الجرف .

ــ إن هذا كاف لأن يقضى على من فيها .

ــ ليحدث ما يحدث .. المهم أن نقضى الآن على بقية العربات .

وكان الرفاق قد انقضوا من وسط الأحراش على العربتين الباقيتين .. بالقنابل اليدوية والرشاشات ولحق بهم حمزة وعبد الحميد وبكر ..

ولم تطل المعركة .. دمرت العربتان وترك أفرادها بين قتلى وجرحى .. وفى دقائق كانت الجماعة قد انسحبت إلى مكان تجمعها .. وخلال العودة كان الصمت يخيم على الرءوس .

وتساءل أحدهم :

ــ ترى هل قضى على الرجل ؟

ورد آخر فى تشكك :

ــ لقد هوت عربته فى الجرف .

وقال ثالث :

ــ المفروض أن يكون قد قضى .

وعاد الأول يقول :

ــ لقد فجرت العبوة مبكرا عن موعدها .

ثم نظر إلى بكر لائما :

ــ أعطيت الإشارة مبكرا .. لست أدرى لم ؟

ورد آخر :

— كانت أعصابه متوترة .

وقال بكر وهو يطلق زفرة ضيق :

— لقد فجرت العبوة قبل أن أعطى الإشارة .

وأجاب عبد الحميد فى عصبية :

— لقد تأخرت فى إعطاء الإشارة .

— كنت أوشك أن أعطيها .. عندما سمعت العبوة تنفجر ورأيت العربة تنحرف إلى الجرف محاولة تجنب الانفجار .

وقال حمزة ضاحكا :

— من أجل هذا أكره الديناميت .. والرصاص .. وكل هذه الأشياء غير المضمونة .

ثم رفع كفيه وقد فرد أصابعه واستطرد يقول :

— لو كان الأمر بيدى لانتظرته بجوار الجرف وانقضضت عليه .. ولما تركته يفلت .

وقال عبد الحميد فى غيظ :

— ومن قال إنه أفلت .. لقد هوى بعربته فى الجرف .

وتساءل حمزة :

— ومن يدريك أنه لم يفلت ؟

ورد أحد الرفاق :

— لننتظر حتى نسمع نتيجة العملية من لسان العدو .

وأردف حمزة يقول :

— أجل إن مثل هذه العملية لا يمكن إخفاء أنبائها .

وكان حمزة على حق .

فلم تمض فترة .. حتى أذاعت المصادر الإسرائيلية أنباء العملية وكانت آخر

ما يمكن أن يخطر ببال الرفاق الذين قاموا بها .

قال حمزة وهو يردد مقهقها بين الرفاق بعد أن عادوا إلى مواقعهم :

ـــ تقول الرواية الإسرائيلية إن حائطا انهار على السيد ديان بينما كان يمارس هوايته فى حفر الآثار .. وأنه بقى ساعتين تحت الحجارة والتراب إلى أن مرت امرأة اكتشفت الحادث . وأنقذت حياته وأنه يرقد الآن فى مستشفى هاشومير .

وهز بكر رأسه وقال فى أسى :

ـــ نفد الرجل .. لو لم يتعجل عبد الحميد التفجير ..

وتساءل أحد الرفاق :

ـــ أى امرأة هذه التى اكتشفت جسده تحت الحجارة والتراب .. لا بد أنها امرأة .. بلدوزر .. كاسحة للتراب ..

ـــ وكان ديان .. يتسلى بحفر الآثار .. فى هذا الوقت الذى تحشد فيه القوات الإسرائيلية على الضفة الغربية .. من أجل القضاء على المقاومة ..

ـــ ويجلس ليلعب تحت الجدران المنهارة .. وحيدا .. بلا أنيس .. ولا صديق .. ولا حارس .. ثم يرقد تحت الأتربة والحجارة .. حتى تمر به المرأة العجيبة .. فتكتشفه بين الأنقاض وتنقذه من الهلاك .

وهز حمزة رأسه وقال فى غيظ :

ـــ خسارة .. أفلت المجرم من جدار الآثار .. ولا أظن الفرصة ستتاح له بعد ذلك .. أن يمارس هوايته المحببة .. لن يقترب من جدار منقض أو حائط منهار .. خسارة .. ألف خسارة ..

ورفع كفيه إلى أعلى قائلا :

ـــ الله يجازيك يا عبد الحميد .. لو انتظرت برهة .. لأرحتنا منه .. ومن آثاره .

وفى نفس المساء الذى كان يرقد فيه القائد الإسرائيلى فى مستشفى هاشومير .. بعد أن أخرجته المرأة من بين حجارة الجدار المنقض الذى كان

يمارس أسفله هوايته للآثار .

نفس هذا المساء كان أحد أعوانه فى وزارة الدفاع الإسرائيلية يقوم بالاتصال بالصحفيين الأجانب يطلب منهم التجمع فى الصباح المبكر فى القدس المحتلة حيث تنتظرهم مفاجأة كبرى .

وكانت القيادة العامة للمقاومة أدرى بهذه المفاجأة الكبرى وأعلم بكل ما سبقها من حشود وتحركات .. أعلم حتى بساعة الصفر التى ستبدأ فيها هذه المفاجأة .

وبالتالى .. لم يكن هناك فيها .. ما يدعو إلى المفاجأة .

وصدرت الأوامر لكل القيادات بأن تكون على استعداد تام للعمل .. للحركة .. للضرب .. ووضعت الكمائن فى كل مكان يمكن للعدو أن يسلط عليه عدوانه ويتخذه مسرحا لاستعراض بربريته .

وفى نفس المساء بدأت مدفعية الهاون ٨١ ، ١٢٠ تقصف حشود العدو ومواقعه .. واستمر الضرب حتى أوشك الفجر أن يطلع .. وبسرعة تحركت القوات لتتخذ مواقع جديدة لمواجهة الهجوم الذى يوشك أن يبدأ .. مع أول خيط من خيوط الفجر .

وكانت على مجموعة عمار .. أن تكمن فى مزارع الموز فى البيارة الكائنة غرب الطريق الرئيسى للكرامة ..

وكانت الأوامر تقضى بأن تترك قوات العدو تتوغل فى الأرض .. ثم تفاجئها قوات الكمائن بغارات سريعة ومفاجئة تدمر مدرعاتها وتقضى على قواتها .

وبدأت خيوط الفجر الأولى تتسلل من وراء الأفق الشرقى .

وكان عمار يقبع بمدفعه بين يديه وعدد من القنابل اليدوية فى جيوبه .. وبجواره جلس يحيى وحمزة .

وهبت نسمة رطبة حركت أوارق الموز العريضة .

وملأ عمار صدره بنسمة الفجر الندية .. وتمتم قائلا :

ـــ أول نسمة من نسمات الربيع .

وأردف يحيى بنبرة ساخرة :

ـــ وأى ربيع ؟!

وزقزق عصفور يتواثب بين الأوراق الخضر .

ونظر إليه يحيى وهز رأسه قائلا :

ـــ خدعتك النسمة .. والأوراق الندية .. فانطلقت تغنى .. يا أحمق ..

وضحك حمزة وأجاب متسائلا :

ـــ أحمق من الإنسان ؟.. كل إنسان ؟!! يغمض عينيه عن الربيع .. عن زهوره .. وأريجه .. ونسائمه .. والحياة تتدفق فى كل عرق من عروق الكائنات .. وفى وجه الحياة يرفع السلاح .. ليدمر .. ويحطم .. الحمقى هم نحن .. كلنا .. كل الناس تقف فى وجه الحياة .. لتوقف تدفقها .. بالحقد .. والمرارة .. والكراهية ..

وجذب حمزة ورقة من أوراق الموز يمسح بها وجهه ثم أردف يقول :

ـــ قال لك أبوك يا عمار .. إن القتال سخافة .. كل قتل سخافة يا عمار .. حتى ما سماه أبوك بالدرء والردع .. القتل كله سخافة يا عمار .

وتساءل يحيى :

ـــ ولماذا إذن تقتل يا حمزة ؟

ـــ لأنى إنسان يا يحيى .. إنسان وسخيف ـــ ولا أمتلك كإنسان سخيف إلا أن أرد السخافة .. بالسخافة .. ماذا تظننى يا يحيى .. زهرة .. أو عصفورة .. أنا إنسان .. وأفعل كل ما يفعله الإنسان من سخافات .. بما فيها سخافة القتل .. وأرتكب كل ما يرتكبه الإنسان من خطايا .. بما فيها الغرور .. والحقد .. والكراهية ..

وكان عمار ينصت شاردا ..

وسأله حمزة قائلا :

— فيم تفكر يا عمار .. فى المستقبل الوردى الذى يحمله الخاتم السحرى فى جيبك ..

وهز عمار رأسه وهو يرهف السمع :

— هذا أزيز طائرات .

ورد حمزة وهو ينصت :

— لا أسمع شيئا ..

— ثم أردف وهو يربت ظهر عمار قائلا :

— استرح يا عمار .. لم يحن الوقت بعد .

وقال عمار وهو ينظر إلى ساعته :

— الساعة قد قاربت الخامسة .. المفروض أنهم سيعبرون الجسور فى أول ضوء .. قد تكون دباباتهم بدأت عبور النهر الآن ..

وقال حمزة وهو يجذب سباطة موز خضراء :

— دعهم يعبروا ..

وقطع صباع موز وقضمه ثم ألقى به إلى الأرض قائلا :

— خسارة .. الموز لا يؤكل على شجره .. كان يمكن أن يجعل انتظار المعركة أكثر متعة .. أحب الموز ..

وعاد عمار يقول وهو ينصت :

— وقد يبدأون الهبوط بالمظلات .

— دعهم يهبطوا .

— أو ينزلون قواتهم بالهليكوبتر .

— دعهم ينزلوا .. إنى أشعر بقرصة جوع .

وقال يحيى :

— فى جيبى بقايا باكو البلح العراقى الذى وزعه علينا عباس بالأمس .. أتأخذ قضمة ؟

— هات أى شىء ..

وتناول حمزة قطعة البلح من يحيى وأخذ يلوكها فى فمه قائلا :

— كان يجب أن أحضر معى براد الشاى والوابور .

وتساءل عمار مستنكرا :

— هنا ؟

— ولم لا .. نتسلى حتى يصل الكلاب .

وفجأة سمع دوى ..

وقال يحيى وهو يبتلع قطعة البلح الباقية .

— وصلوا .

وجذب الرشاش فى يده قائلا :

— استعنا على الشقا بالله .

وأخذت الانفجارات تتوالى .

كانت الدبابات قد بدأت تقدمها تحت ستار كثيف من نيران مدفعية العدو الثقيلة .

وبدأت الجماعات المقاومة الرابضة فى كمائنها ترقب الانفجارات فى صمت .

وقال عمار :

— إنهم يضربون المواقع الخالية ..

واستمرت الانفجارات تتزايد .

واستمر تدفق دبابات العدو ومشاته المحملة على العربات نصف الجنزير على الضفة الشرقية بغير مقاومة .

وكان هدف العدو الذى أعلنه .. هو تطهير منطقة الأغوار من رجال المقاومة .. وكان يقدر لحملته بضع ساعات ينهى بها مهمة ضرب المقاومة وتأديب الأهالى .

وكان الحشد الذى تدفق من قواته يمارس العملية وكأنها نزهة فى أرض سهلة

خضراء تمشطها قواته من المخربين والإرهابيين وتنزل بهم ضربة قاسية تضع بها نهاية لكل ما يسببونه لها من إزعاج .

وبكل مظاهر التبجح والغرور الصهيونى بدأت عملية إنزال القوات الإسرائيلية على المرتفعات شرق الكرامة .. لكى تقطع على المقاومة طريق الانسحاب .

وهبطت أول طائرة على المرتفع .. وهبطت منها أول دفعة من الجنود .. وهبط قائدهم .. فى ثقة وغرور .. كأنه فى رحلة سياحية .. أو كأنه يهبط فى حديقة بيت أبيه .

وبدت الأرض خالية .. تؤكد إحساس الغزاة بأنهم فى نزهة ..

وفجأة انطلقت رصاصة من مدفع رجل عجوز قبع منكمشا فى جحره وراء إحدى المرتفعات .. لتردى قائد الغزاة قبل أن يواصل خطاه المتغطرسة فوق الأرض الحرة الطيبة .

وتوالت الطلقات من كل صوب تحصد الجنود الهابطين .. وتصرعهم قبل أن تطأ أقدامهم الأرض ..

وأحدث الهجوم المفاجئ فزعا بين القوات الهابطة .. ولم تعد المسألة تبدو لهم نزهة ممتعة أو رحلة سياحية .. وأسرعوا يحملون جثة قائدهم ويلمون قتلاهم وجرحاهم فى الطائرات الهابطة .. التى اندفعت إلى أعلا عائدة أدراجها تحمل خيبة الأمل المفاجئة .

وفى نفس الوقت بدأ إنزال المظليين فى مزارع الموز .

وأخذت كمائن المقاومة المتناثرة فى المزارع تتصيدها بالرشاشات والقنابل اليدوية والسلاح الأبيض .

وبدأ عمار وجماعته الانطلاق فى المزارع الخضراء يفرغون رشاشاتهم فى أجساد المظليين الهابطين .

وأمسك حمزة بيد عمار وهو يهم باصطياد أحدهم وهو يوشك أن يهبط فوق

أشجار الموز وهتف به :

— دعه لى ..

ولكن عمار أفرغ فيه دفعة طلقات جعلته يهوى جثة هامدة .

وقال حمزة :

— قلت لك دعه لى .

ورد عمار فى حزم :

— ليس هذا وقت عبث يا حمزة .

— كنت سأقتله بالمدية ..

— قد يصيبك بمدفعه قبل أن تقضى عليه بمديتك ..

وقال حمزة فى إصرار :

— أتحدى ..

— ليس هذا وقت تحد يا حمزة .. إنها معركة .. يتوقف عليها مصيرنا كلنا ..

ثم صوب مدفعه إلى جندى آخر فأرداه قائلا :

— يجب أن نبيدهم جميعا .. لأنهم يريدون إبادتنا كلنا .. يجب أن نثبت لهم أن إبادتنا لم تعد شيئا ميسورا .. لن تتكرر أبدا .. مذبحة دير ياسين .. أو كفر قاسم .

وكان بعض الجنود الإسرائيليين قد هبط فى المزرعة المجاورة وبدأت تدور معركة حامية الوطيس بينهم وبين الجماعة التى استقرت فى المزرعة .

واندفع الثلاثة يعبرون إلى المزرعة وقد أحسوا أن كفة الجنود الإسرائيليين قد أخذت ترجح وأنهم يحاولون التجمع فى المزرعة مستترين فى أحد الأكواخ .

وقال حمزة وهو يندفع مع زميليه بين الأشجار :

— هنا لن ينفع الرصاص .. لا بد أن نتسلل حولهم ونطبق عليهم بأيدينا .

وقال له يحيى :

— أجل .. من العبث أن ندخل معهم معركة نيران .. فستنفد ذخيرتنا قبل

أن نقضى عليهم .

وكانت القوة الإسرائيلية قد أوشكت أن تقضى على قوة المقاومة .. صرعت اثنين .. وجرحت الثالث .

وقال عمار وهو يتوقف عن السير :

— المواجهة غير ممكنة .

وقال يحيى :

— دعونا نلف من هذا الدرب .

وقال عمار :

— يجب أن يحاول أحدنا لفت نظرهم بالنيران من الناحية الأخرى ويلف الباقى للانقضاض عليهم من الخلف .

وقال يحيى :

— أنا سأبقى لأشغلهم بالنيران من هناك ..

وسار يحيى بين أشجار الموز فى دورة واسعة ثم بدأ يطلق الرشاش على القوة الإسرائيلية محاولا بالوثب بين الأشجار أن يوهمها بأن قوة كبيرة توشك أن تهاجمها .

وأخذت النيران تنهال حوله .. وهو يقفز من مكان إلى آخر مغيرا موقعه بسرعة .

والتف عمار وحمزة حول القوة الإسرائيلية .

ولم يكادا يقتربان من موقعها حتى بدآ قذفها بالقنابل اليدوية ..

وفى لحظة الارتباك التى أحدثها انفجار القنابل انقض حمزة وعمار ..

وسكتت النيران .

وبدأت المواجهة فى الكوخ بالسلاح الأبيض .

وهجم حمزة وعمار ووراءهما يحيى .. بالمدى .

وأصاب الإسرائيليين ذعر شديد .. وهم يرون المدى تطبق عليهم لتشق

البطون والصدور ..

وبدأت أصابع حمزة تطبق على الأعناق ..

لم يحاول أن يعذب أحدا .. فلم يكن الوقت يسمح .. وكان عليه أن يستغل أسنانه إلى جانب أظافره .

وانتهت المعركة فى دقائق .. بدت كأنها الساعات .

وهز عمار رأسه وهو يغادر الكوخ وقد تصبب العرق من جبينه وتمتم قائلا :

ـــ لم يكن هناك سبيل سوى هذا .

وقال حمزة فى استخفاف :

ـــ أنا إنسان .. ولا مفر من ارتكاب خطايا الإنسان .. لقد رأيتهم يشقون بطن أمى وهى حامل .. كانت سخافة منهم .. ومن يومها أقسمت ألا أكون أقل سخافة .

وانطلق الثلاثة من المزرعة .. ليواصلوا الانقضاض على القوات الإسرائيلية المتغطرسة .. ويحولوا رحلتها السياحية .. إلى نزعة دامية .. ويعلموها أن المقاومة .. لم تعد صبيا يسهل تأديبه ..

٢٠

الله أكبر ..

استمر تدفق الدبابات الإسرائيلية فى أرض الأغوار ..

وبدأت الدبابات تحيط بالكرامة من الشمال والجنوب كفكى كماشة .. كما أخذت تندفع من جسر الملك حسين إلى جنوب المدينة .. لتتلقاها مدفعية الجيش الأردنى ودباباته .. بوابل من النيران ..

وفى أحد المواقع قرب مفترق الطرق استقرت بطارية عبد الكريم فوق الجبل وقد وجهت فوهات مدافعها صوب النهر ..

وكانت القذائف قد أخذت تنهال على حشود العدو وعلى مناطق تجمعها وعندما بدأ التقدم انقضت المدفعية بنيرانها على الجسور فدمرتها .

وأمسك عبد الكريم بمنظاره وهتف بالملازم خليل قائد التروب :

ـــ لقد بدأوا ينزلون الجسور فى كل مكان .

وأكمل خليل وهو يرقب تقدم الدبابات .

ـــ إن الدبابات تتدفق عبر النهر .

وبدأت قذائف طائرات العدو ومدفعيته تنهال على المواقع وانطلقت قذائف المدافع المضادة للطائرات لتصد الطائرات المغيرة .. محاولة أن تمنح الموقع الحماية وتيسر لمدافعه حرية الضرب والاشتباك .

وسقطت قذيفة قرب المدفع المجاور لعبد الكريم وانطلقت صرخة مدوية .. وصمت المدفع عن الدوى ..

وهتف عبد الكريم فى مرارة :

ـــ أصيب الطاقم ..

وقال خليل :

— سأذهب إليهم .

ورد عبد الكريم وهو يندفع نحو المدفع .. الذى استمرت القذائف تنهال حوله :

— يجب ألا تكف المواقع عن الضرب .. إن دباباتهم تتدفق حول الطريق ..

ووصل عبد الكريم وخليل إلى الموقع .

وأصابتهما رجفة وهما يريان جسد المدفعى مطبقا على المدفع .. بلا رأس .

وازدرد عبد الكريم ريقه وهو يقترب من الموقع ويرى بقية الطاقم قد تناثرت أشلاؤه ..

وهتف خليل فى وجيعة :

— لا فائدة .. الموقع كله تدمر .

ورد عبد الكريم :

— ولكن المدفع ما زال سليما .

— لقد أصيب فى جانبه .

— ولكنه لم يعطل تماما ..

— دعنا نجربه .

— أسمع أنينا حولى .

ونظر عبد الكريم فوجد جسدا ما زال يتحرك فى حفرة مجاورة واندفع إليه يفحصه ثم هتف :

— عبد الله ..

وبدا الرقيب عبد الله وقد أصيبت ساقه بشظية مزقت عضلات الفخذ وهو يحاول أن ينهض .

— القذائف فى الصندوق وراء المدفع إنها ما زالت سليمة .

ثم تمتم قائلا :

— الحمد لله إننا نستطيع أن نواصل الضرب .

وهتف به خليل :

— استرح يا عبد الله .. نحن سنشغل المدفع .

— ولكنى أستطيع أن أعمل ..

— ابق أنت مكانك .. وسأضمد لك جرحك لأن دمك ينزف ..

وهز عبد الله رأسه :

— ليس هذا وقت تضميد الجراح ..

ونهض عبد الله واقفا ..

فأقبل عليه خليل يحاول أن يربط له جرحه النازف بمنديله .

واستمرت القذائف تنهال وأزيز جنازير الدبابات يقترب . وصوت المدافع فى المواقع المجاورة يهدر على طول الخط .

وصمت مدفع مجاور بعد أن دوت قذيفة وعلا عمود من الدخان ..

وهتف عبد الكريم :

— المدفع المجاور قد أصيب .

وصاح خليل :

— مصيبة .. لا بد أن نشغل هذا المدفع .

واندفع عبد الله بجرحه نحو المدفع .

وبدأ يحاول تشغيله .

ومضت فترة شدت فيها أعصاب عبد الكريم وهو يرقب المدفع الرابض فى صمت وعبد الله ينكب عليه يحاول إصلاحه وخليل ينقل الذخيرة إلى جواره .

وفجأة هتف عبد الله :

— الحمد لله :

وناوله خليل إحدى القنابل ..

وبدأ الدوى ..

وكان عبد الكريم يرقب ساق عبد الله وهى آخذة فى النزيف ووجهه يزداد شحوبا بعد كل قذيفة تطلق .

والدوى يزداد .. وأصوات الجنازير تقترب ..

وأرهف عبد الكريم سمعه .. وكأنه ينصت إلى أوركسترا تعزف من حوله .. محاولا أن يكتشف نشازا فى إحدى آلات العزف ..

وفجأة هتف فى مرارة :

— دمر مدفع واحد وعشرين .. الذى يعمل عليه طاقم شفيق .

سأل خليل فى دهشة :

— كيف عرفت ؟

— لقد صمت .. إنى أرقب انطلاق القذائف من الموقع كله ..

ومد خليل يده بالقذيفة إلى عبد الله ولكن عبد الله لم يتناولها ..

لم يستطع أن يمد يده ..

خار جسده من كثرة ما نزف .. واستند على المدفع ثم هوى ..

واندفع عبد الكريم إلى المدفع .. بعد أن جذب جسد عبد الله وهو يهتف فى وجيعة :

— انتهى عبد الله .. سكب آخر نقطة من دمه .. مع آخر طلقة أطلقها ..

وتناول عبد الكريم المدفع قائلا فى حزم :

— لا يجب أن يصمت هذا المدفع .

ثم رفع عينيه إلى السماء وهتف داعيا :

— لآخر قطرة من دمنا يا رب .. ولكن ليس قبل أن نسكت عواء الكلاب على أرضنا .

وواصل الضرب .

وأصيبت بعض دبابات العدو .. وتقدم البعض الآخر .

واستمر الدوى .. وأخذ عبد الكريم وخليل يتبادلان الضرب على المدفع . وهز عبد الكريم رأسه وبدا كأنه قد فقد قدرته على تمييز أصوات الأوركسترا من حوله وتمتم قائلا وهو يدفع القذيفة فى جوف المدفع ..

ـ لست أدرى من الذى يضرب .. ومن الذى صمت .

وقال خليل وهو منهمك فى العمل :

ـ المهم ألا يصمت هذا المدفع ..

وأعطاه إحدى القذائف قائلا :

ـ صوب نحو هذا القول القادم من اليمين .

ورد عبد الكريم فى أسى :

ـ يبدو أن مدفع عبد الجواد قد صمت أيضا ..

ـ لا يهم .. اضرب .

واستمر الضرب ..

واستمر انفجار الدبابات .. واستمر أيضا تدفقها ..

وقال عبد الكريم وهو يحاول التقاط أنفاسه :

ـ هذا السيل لا يتوقف .

وقال خليل وهو يعطيه القذيفة :

ـ اضرب ..

وأصيبت دبابة أخرى .

وقال عبد الكريم :

ـ واحدة أخرى تبدو وراء التبة .

وناوله خليل القذيفة صائحا :

ـ اضرب ..

وانحرفت الدبابة يمينا فلم تصبها القذيفة .

وهتف عبد الكريم :

— خسارة ..

وأسرع خليل نحو موقع القذائف .

وتعالى صوته يهتف فى مرارة :

— انتهت .. مصيبة .

وصاح عبد الكريم يستعجله :

— أسرع يا خليل .. إنها تتقدم ..

وعاد خليل وقد بدت علامات الجزع على وجهه :

— انتهت الذخيرة .

— غير معقول !

— الصندوق فارغ ..

— والذخيرة الاحتياطى .

— انتهت أيضا .

وتمتم عبد الكريم فى حيرة وأسى :

— وليس هناك فرصة لكى نحضر ذخيرة من الصف الخلفى فالدبابات تتقدم على الطريق .

وهتف عبد الكريم :

— لو أننا فقط نوقف الدبابة الأولى لوقف القول كله .

وأخذ خليل ينظر حوله ..

— أحضر بعض الطلقات من الموقع المجاور ..

— غير معقول .. إن القذائف تنهال من حولنا ولن نصل إلى أقرب موقع إلا والدبابات قد اكتسحت الخط كله ..

ومضت فترة صمت .. بدا كل منهما عاجزا ..

والدبابات تقترب ..

وهز عبد الكريم رأسه وهو يتمتم :

— لا فائدة .. انتهينا .

وفجأة تناول بعض القنابل اليدوية ثم اندفع من وراء المدفع وهو يقول لخليل :

— تعال .. لم تعد أمامنا سوى هذه الفرصة ..

اندفع فى جنون .. وهو يصيح : « الله أكبر .. الله أكبر » مجذوب فقد عقله ، واندفع خليل وراءه فى الطريق المكشوف .. والنيران تدوى من حولهما وهما منطلقان كأنهما يعدوان فى سباق المائة ياردة ..

وفى ثوان .. كان الاثنان يواجهان الدبابة ..

لو وقفت هذه الدبابة .. لكف السيل كله عن التدفق ولكانت هناك فرصة .. لبقية المواقع .. في تدمير القول بأكمله ووقف التقدم ..

وكان مدفع الدبابة مصوبا نحو الموقع يصب عليها وابل من نيرانه ..

وقذف عبد الكريم بأول قنبلة فهبطت فى البرج .

وتوقفت الدبابة فجأة عن السير .

وواصل الاثنان قذف القنابل .

وشل قول الدبابات .

وحاولت الدبابات الخلفية الدوران ولكن الطريق كان أشبه بعنق الزجاجة ..

وبدأت قذائف المدفعية تنهال على الدبابات .

واندفع عبد الكريم وخليل يحاولان العودة إلى الموقع واستدار مدفع الدبابة .

وسمع دوى .. وعلت صرخة .

ولم يبصر عبد الكريم من خليل .. سوى أشلاء متناثرة فى الجو ..

لم يجد من جثته شيئا يجره معه .. سوى ذراع .

فجذبه وانطلق ..

ووراء الموقع ..

استقر عبد الكريم .. مغشيا عليه .. تنزف جراحه .. ويضم إلى صدره ..

ذراع خليل .

وتوقف سيل الدبابات .

أصيب منها ما أصيب .

وحاولت البقية العودة .. تطاردها قذائف المدافع .

وفى الشمال كانت الدبابات تتدفق على طريق الكرامة .. من شمال البلدة وجنوبها ..

وفى نفس الوقت كانت مجموعة للصحفيين الذين جمعتهم القيادة الإسرائيلية فى القدس قد حملتهم إحدى عربات الأتوبيس إلى أريحا فى رحلة مرحة ضاحكة راهن بعضهم البعض الآخر على نوع المفاجأة التى قد أعدتها القيادة الإسرائيلية ..

وقال أحدهم :

— لعلها وليمة على الطريقة العربية !

ورد آخر فى سخرية :

— بل وليمة على ضحية عربية .

وقال صحفى ثالث :

— سيلتهمون الضفة الشرقية بحالها .

ورد الأول :

— هذه المرة فى ٦ ساعات ، وليس فى ٦ أيام .

واستمر الحوار الساخر بين الصحفيين :

— إنها مجرد كرباج على ظهر الإرهابيين حتى يكفوا عن شقاوتهم .

— بل إنها شىء أكبر من هذا .. هذه الحشود كلها لا يمكن أن تكون لمجرد التأديب .

— إننا لم ندع لمجرد مشاهدة غارة تأديبية على المقاومة العربية .. فهى تحدث كل يوم .

— إذن فلا بد أن نذهب معهم إلى بغداد ثم نهبط على القاهرة .. ما دامت الحملة التأديبية لا تعجبك .

— والله .. يظهر أنهم سيأكلونها ساخنة .

— ممن ؟!!

— من العرب .

— تظنهم يحملوننا كل هذا المشوار لنشاهدهم وهم يأكلونها ساخنة .. ومن العرب !!

— ومعهم كل هذه الهيصة .. إن الدبابات تتدفق على الضفة الغربية منذ أسبوع .

وتوقفت العربة أمام مبنى صغير .

وخرج منه ضابط إسرائيلى يحيى مجموع الصحفيين ببشاشة وهو يقول :

— تتناولون فنجانا من الشاى أو شيئا باردا ؟

وقال أحد الصحفيين :

— نفضل أن نرى المفاجأة الكبرى .

وقال الضابط :

— صبرا ..

— إلى متى ؟

— بعد برهة ستنقلون إلى الضفة الشرقية .. لمشاهدة عملية بسيطة تنهى قواتنا فلول الإرهابيين ..

وصمت الضابط برهة ثم استطرد يقول ضاحكا :

— ما دمتم لا تريدون أن تتناولوا شيئا هنا .. إذن فلننتظر حتى نشرب القهوة هذا المساء معا فى عمان .

وضحك أحد الصحفيين قائلا :

— ألم أقل لكم ؟!

وهز صحفى آخر رأسه قائلا :

— سنرى ..

وفى نفس اللحظة أقبل جندى من الداخل يستدعى الضابط الإسرائيلى ..

ومضت فترة قبل أن يعود الضابط وقد بدا على وجهه التجهم وامحت من قسماته البشاشة والمرح .

وصمت الضابط برهة ثم قال للسائق باقتضاب :

— سنعود إلى تل أبيب .

وهتف أحد الصحفيين متسائلا :

— ماذا حدث ؟

— لا شيء ..

— ألن نذهب إلى الضفة الشرقية ؟

— بل ستعودون إلى تل أبيب .

— لماذا ؟!..

— ستحضرون هناك مؤتمرا صحفيا .

— ولكن لماذا لا نعدى إلى الضفة الشرقية ؟

— هذه هى الأوامر .

وهتف أحد الصحفيين فى سخرية :

— إذن فلن نشرب القهوة فى عمان .

ورد آخر :

— فى تل أبيب أفضل .

وقال ثالث فى صوت خافت :

— يظهر أنهم أكلوها ساخنة !

— غير معقول ..

وصاح الضابط للسائق :

— هيا .. ماذا تنتظر ؟!!

وعادت العربة إلى تل أبيب .

وفى القدس كانت مى قد استيقظت مبكرة .. سقت شجرة الليمون .. وتحسست القنبلتين المخبأتين فى أرض الحديقة ..

ولم تلبث أن سمعت الشيخ عبد السلام يهتف من الداخل :

— مى ..

وأقبلت عليه فإذا به يقف أمام الراديو مشدوها وهو يتمتم :

— بدأ الكلاب هجومهم .

وصاحت فاطمة رافعة يديها إلى السماء :

— يا رب .. انصرنا .. يا رب أنت قادر على كل ظالم .

وتمتمت مى وقد بدا عليها الشرود :

— كيف هجموا ؟

ورد عبد السلام :

— بالدبابات والطائرات والمدافع .. لقد هجموا بكل قواتهم .. إنه هجوم كبير .

وعادت مى تتساءل مشدوهة :

— وكيف واجهناهم ؟

— مدفعية الجيش تضرب حشودهم .

— وقواتنا ؟..

— ليس هناك أنباء بعد .

وتساءلت مى فى ضيق وقلق هامسة :

— وهل سنبقى نحن ننتظر ؟.

وهز الشيخ عبد السلام رأسه فى عجز :

— وماذا نملك أن نفعل ؟..

ثم رفع رأسه إلى السماء وهتف :

ـــ يا رب .. إن إيمانى بك لا يتزعزع .. اللهم إن تهلك هذه الفئة فلن تعبد فى الأرض .

واستمرت نظرات مى القلقة الشاردة .

وهمست كأنما تحدث نفسها :

ـــ ما أوجع إحساس العجز .. ما أوجع ألا يملك المرء سوى الدعاء .

ثم هتفت داعية :

ـــ يا رب .. أعنا على أن نفعل شيئا .. أكثر من أن ندعوك يا رب ..

وفجأة انطلقت إلى الحديقة .

وهتف بها عبد السلام :

ـــ إلى أين يا مى ؟

وردت مى قائلة :

ـــ دعنى أفعل شيئا يا عمى .. إن إحساس العجز يقتلنى ..

ووصلت مى إلى الحديقة وخالد وراءها .

وبدأت تزيح الحطب والأعشاب ثم أخرجت القنابل من الحفرة التى دفنت فيها .

وصاح خالد فرحا :

ـــ هل ستضربين اليهود يا مى ؟

وقالت مى :

ـــ عد أنت إلى البيت يا خالد .

ـــ لماذا ؟

ـــ عد أنت حتى تأخذ بالك من أبيك وأمك .

ـــ وأنت ماذا ستفعلين ؟

ـــ سأذهب فى مشوار صغير وأعود بسرعة .

ـــ ولماذا أخرجت القنابل ؟

ـــ لأفحصها حتى لا تكون قد تلفت .

ـــ يا مكارة .. أنت ستضربين بها اليهود ..

ـــ عد أنت يا خالد إلى البيت .

ـــ ولماذا لا أذهب معك ؟

ـــ قلت لك ابق مع أمك وأبيك .. إنك رجل يا خالد .. ويجب أن تبقى للدفاع عن البيت .

ـــ وكيف أدافع وليس معى سلاح ؟

ـــ سأحضر لك سلاحا ..

ـــ متى ؟

ـــ عندما يحضر عمار .. ألم يقل لك إنه سيعطيك مسدسه ؟

ـــ أجل قال هذا .. ولكن متى سيحضر ؟

ـــ غدا ..

ـــ وسيعطينى المسدس ؟

ـــ أجل .

ـــ وسأضرب به ؟

ـــ طبعا ..

وجذبته مى من يده إلى الداخل بعد أن أخفت القنبلتين فى جيبها واتجهت إلى الباب والشيخ عبد السلام يتمتم قائلا :

ـــ خذى بالك من نفسك يا مى ..

ـــ حاضر يا عمى ..

ـــ كونى حريصة .. إننا فى حاجة إليك .. كلنا فى حاجة إليك ..

واندفعت مى إلى الطريق ..

وفى آخر الطريق كانت تقف دورية من عربيتين إسرائيليتين وعلى مقربة

كانت تقف عربة محملة بالخضروات . وحول البائع وقف بعض المشترين من الأهالى ..

واقتربت مى من العربة وقالت للبائع :

ـــ بكم رطل البندورة ؟

وقبل أن يرد البائع همست به :

ـــ ابعد العربة عن الطريق

ورفع البائع نظره إليها ثم قال :

ـــ صباح الخير يا ست مى .

ـــ صباح الخير ..

وأخذ المشترون حاجتهم من الرجل فى هدوء .. ثم تحركت العربة بعيدا عن موقف الدورية .

وسارت مى بجوار الرصيف المقابل للدورية ثم دارت فى منحنى . واستقرت مختفية وراء سور مهدم لإحدى الحدائق وأخذت ترقب العربتين .

وبهدوء أزالت طابة الأمان عن القنبلتين ثم قذفت بهما على العربتين واحدة بعد الأخرى .

وسمع دوى الانفجار .. وأخذت مدافع الدورية تطلق نيرانها فى هوس فى كل اتجاه .. فى الطريق ونحو البيوت .. فى الأرض وفى السماء .

واتجهت مى مسرعة إلى الحديقة .. وخرجت من الباب الخلفى المفضى إلى الشارع الآخر .. ثم سارت فى هدوء عائدة إلى البيت .

وفى نفس اللحظة كانت الهجمات تتوالى من قوات الفدائيين فى الأرض المحتلة تهاجم الدوريات الإسرائيلية وتنسف مواقعها .

ووصلت مى إلى البيت .

ودلفت من الباب وارتمت على أحد المقاعد تلتقط أنفاسها المتلاحقة .

وأقبل عليها خالد يتساءل :

ـ عدت سريعا يا مى !

ـ أجل ..

ـ أين القنابل ..؟

وهمست مى :

ـ حيث يجب أن تكون .

واستطردت تقول وأنفاسها تتلاحق :

ـ فى صدور المعتدين ..

وأقبل عليها الشيخ عبد السلام يربت ظهرها فى حنان ويتساءل :

ـ أنت بخير يا مى ؟

وردت مى :

ـ أفضل كثيرا .

ـ وأخبار القتال ؟

ـ الهجوم مستمر .

ـ وأنباؤنا ؟

ـ ليس هناك أنباء بعد .

٢١

إشراقة على الطريق ..

نيران المعركة تتأجج فى أرض الأغوار وقوات نجدة العدو تتدفق نحو الشرق ، وقصف مدفعيته يتزايد على مدينة الكرامة ومقاتلاته تلهب ظهر الأرض بقذائفها تدمر البيوت وتحرق المزارع بالنابالم .. تضرب كل شيء حتى قواته نفسها. والمدفعية الأردنية تضرب إمدادات العدو تحاول وقف تقدم مدرعاته عبر الجسور وتقصف حشوده المتدفقة فى الأغوار .. وفى المرتفعات الشرقية مجموعة من قوات المقاومة تصب نيرانها من مدفعية الهاون والقذائف الصاروخية والمضادة للدروع لتوقف السيل المتدفق من دبابات العدو وآلياته والذى انحرف من الطريق نحو الغرب ليقع فى حقل الألغام المنبث غرب المدينة .

وفى مزارع الموز ما زالت طائرات الهليكوبتر تواصل إنزال قوات المظليين الذين تتلقاهم كمائن الفدائيين المنبثة فى المزارع بالرشاشات المتوسطة لتفتك بهم وتحصدهم فيتساقطون كأفواج الطير الدائخ المتهافت . ويملأون مستشفى الميدان الذى نصبه العدو قريبا من أرض المعركة بحيث تتحول حركة الطائرات العمودية من صب المهاجمين على المزارع إلى محاولة إخلائها من مئات المصابين المكدسين فيها تعود بهم ثانية إلى القدس لتلقى بهم فى مستشفى هداسا .

واندفعت مجموعات الفدائيين تتلقى بقاياهم التى أفلتت من نيران الرشاشات بالأيدى والمدى .. وتطبق عليهم بالأظافر والأسنان .. ترد عدوانهم بكل ما يتأجج فى نفوسها من مرارة الظلم .

وسيل الدبابات يواصل تدفقه على المدينة عبر الطريق الرئيسى من الشمال والجنوب رغم نيران الهاون التى تنصب عليه من المرتفعات الشرقية .

وفوق سطح أحد البيوت وقف عمار ويحيى وحمزة برشاشاتهم وقنابلهم وقد بدا على وجوههم التوتر والإرهاق .

وقال يحيى وهو يصوب رشاشه نحو إحدى الدبابات المتقدمة عبر الطريق :

— ما كل هذه القوات التي حشدها الكلاب في هجومهم .. إنهم يريدون إبادتنا .

ورد حمزة :

— لن يبيدونا قبل أن نبيدهم .. سنعلمهم أن لحمنا لم يعد طريا ..

وتمتم عمار وهو يقذف بإحدى القنابل اليدوية :

— هذه معركة العمر بالنسبة لنا .. إما أن نكون .. أو لا نكون أبدا .. إما البقاء .. وإما العدم .

وقال حمزة في غيظ :

— الدبابات لا تريد أن تقف ..

وقال يحيى :

— لو أوقفنا الدبابات الأولى .. فسيعطل كل الطابور .. لأن الطريق ضيق . ولن تستطيع بقية الدبابات التقدم .

وقذف عمار بقنبلة أخرى .

وتمتم يحيى :

— لا فائدة .

وتوقف حمزة عن ضرب رشاشه .. ثم ألقاه جانبا وقد بدا عليه الشرود ، ثم تمتم يردد قول عمار :

— هذه معركة العمر يا عمار .. وإما أن نكون .. أو لا نكون أبدا .

ثم هتف في إصرار :

— سنكون يا عمار .. سنكون أبدا .

ومن حقيبة بجواره جذب حزاما ناسفا وشده حول وسطه وأمسك بقنبلتين

فى كلتا يديه ثم صاح :

ـــ سنكون أبدا ..

وهتف به عمار متسائلا :

ـــ ماذا ستفعل يا حمزة ؟

ورد حمزة وهو يقفز بكل قواه على ظهر الدبابة التى وصلت بمحاذاة البيت الذى يرابطون على سطحه :

ـــ معركة العمر يا عمار .. تستحق أن ندفع فيها عمرنا .

وسمع صوت دوى يصم الآذان .

انفجرت الدبابة بكل ما فيها ومن عليها ..

انفجر جسد حمزة .. الضاحك المرح .. ليفجر الدبابة .. وتوقف الطابور كله على الطريق .

دفع حمزة عمره ببساطة .. فى محاولة لكسب معركة العمر .

حاولت بقية الدبابات أن تعبر الدبابة المتفجرة ولكن الطريق كان ضيقا كعنق الزجاجة .

وانهالت القذائف فوق الطابور ..

قذائف الهاون من المرتفعات الشرقية. والرشاشات والقنابل من فوق الأسطح .

وفى جنون استدارت الدبابات الواقعة فوق الطريق تضرب الدور على جانبى الطريق تهدمها وتدكها ..

وانهارت جدر اللبن والقش واندفعت الدبابات فى جنونها .. تحطم البيوت .. وتدوس الأنقاض .

وأخذت الدبابات تتدفق فى الشوارع الفرعية للمدينة .

وحاول عمار أن يوقف طابورا يندفع فى أحد الطرق الفرعية .

ضرب الدبابة المتقدمة بإحدى القنابل ..

توقفت برهة وأخذ مدفعها يضرب بجنون فى كل اتجاه مدمرا البيوت .

وهمت بالتقدم.. وتمتم عمار هامسا وهو يمسك برشاشه :

ـــ معركة العمر يا حمزة .. ماذا يساوى عمرنا .. إذا لم تدفعه لكسبها .

ثم قفز من السطح ليهبط على ظهر الدبابة .

وبرشاشه قضى على كل من فيها ..

استمر رشاشه يضرب حتى .. صمت فجأة .

أسكتته طلقة صوبت من الخلف ..

وتوالت القذائف .. وتوالى الدوى ..

وهبط يحيى فوق الدبابة المدمرة .. وجذب جسد عمار الذى أخذ ينزف من فوق الدبابة .. وجره بسرعة إلى باب البيت المجاور .

واستلقى عمار بين ذراعى يحيى ..

وبدت الدموع تترقرق فى عينى يحيى ..

ونظر إليه عمار نظرة لوم وتمتم :

ـــ أتبكى يا يحيى ؟

وازدرد يحيى دموعه وهتف :

ـــ أبدا يا عمار .. أنت بخير .

ـــ بخير دائما .. كلنا بخير ..

وصمت عمار برهة يحاول التقاط أنفاسه ثم عاد يتمتم :

ـــ كلنا بخير .. حمزة بخير .. وأنا بخير .. ما دام عمرنا لم يذهب سدى .

وساد الصمت لحظة وبدا عمار كأنه يقاوم ألما فظيعا .

وقال يحيى :

ـــ مالك يا عمار ؟

ورد عمار :

ـــ أبدا .. شكة بسيطة فى جانبى ..

وازدرد ريقه ثم تمتم متسائلا :

ــ دمرت الدبابة ؟

ــ أجل يا عمار .

ــ وتوقف الطابور ؟

ــ وانسحب .

ــ الحمد لله .

وصمت برهة يحاول أن يتمالك قواه ثم همس :

ــ كسبنا المعركة ؟

ــ أجل يا عمار .

ــ معركة العمر يا يحيى ..

وهز يحيى رأسه وهو يحاول أن يسيطر على عضلات وجهه المتشنجة وعلى الدموع التى توشك أن تنساب من مقلتيه .

واستطرد عمار يهمس :

ــ عمرنا نحن يا يحيى .. فما زالت هناك معارك كبيرة أمام الآخرين .. حتى نحقق وجودنا ..

ــ أجل يا عمار أجل .

ــ ونستعيد الأرض .. والحق .

وصمت عمار ووضع يده على جانبه .. وضغط على ضروسه يحاول كبت صيحة توشك أن تفلت من بين شفتيه .

وما لبث أن استرخى وفتح عينيه وهمس قائلا ويمناه تتحسس جيبه :

ــ قبل أن أذهب يا يحيى لى عندك رجاء .

وبدت الحيرة والعجز على وجه يحيى وهو لا يعرف ماذا يفعل وهو يحس أن عمارا ينساب بين يديه .. كما تنساب حفنة ماء من أصابع اليد .

وهمس قائلا :

— أنت بخير يا عمار .. سأحاول أن أحضر ضمادا لجرحك .

وهز عمار رأسه وهمس :

— لا فائدة يا يحيى .

ووضع يده فى جيبه ثم أخرجها ومدها إلى يحيى قائلا :

— أعط هذا لمى .. خاتم الخطبة الذى وعدتها به .

ثم حاول أن يضع الخاتم الآخر فى أصبعه وهو يردد :

— اعتذر لها يا يحيى .. تمنيت أن أعود إليها لأضعه فى يدها بنفسى .

وصمت عمار يلتقط أنفاسه وهز رأسه قائلا :

— تمنيت أن أعود لألبسها الخاتم .. ولأحدثها عن أشياء كثيرة حلوة .. تمنيت أن أعود إليها لأجلس أمامها .. لترسم الصورة .. ولأعتذر لها عن كل ما قلت لها من سخافات .. ولأقول لها .. إنى أحبها .. كما لم أحب أحدا فى حياتى .

ورد يحيى قائلا :

— إنك بخير يا عمار .. وستعود إليها لتخبرها بكل شىء .

وصمت عمار ثم عاد يتمتم قائلا وهو يتناول مسدسه من حزامه قائلا :

— أعط هذا لخالد .. وخذه معك إلى معسكرات التدريب .. إنه يتوق إلى القتال .. عدنى يا يحيى أن تفعل كل ما أوصيك به ..

— سأفعل يا عمار .. سأفعل .

— وقل لأبى .. ألا يجزع .. لأن حياتى لم تذهب سدى .. وقل لأمى إنى راجع .. إياك أن تخبرها بشىء .. أكره أن أوجعها ..

وصمت عمار .. أرخى جفنيه .. واسترخى وشاعت فى قسماته السكينة والرضا وأخرج يحيى زفرة مكبوتة .

ثم أطلق العبرات الحبيسة من مقلتيه .

وانطلق .. يواصل القتال .. بالخاتم فى جيبه .. والمسدس مشدود إلى حزامه .

وقبيل الظهر بدأت طائرات الهليكوبتر الإسرائيلية تلقى منشوراتها تدعو أهل البلدة إلى الاستسلام وتقنعهم بأن هدف الهجوم هو قوات العاصفة وليس المدنيين .

وأطلقت مكبرات الصوت نداءات تطلب منهم الكف عن القتال وتمنحهم الأمان ..

وسكت الدوى .. وساد السكون :

وبدت الكرامة أطلالا .. تتعالى من أنقاضها أعمدة اللهب .. وسحابات الدخان الأسود .

وأخذ الجنود الإسرائيليون ينفذون وعدهم بالأمان .

قتلوا الأطفال والنساء ومثلوا بجثث الشهداء ونهبوا البيوت والدكاكين .. ونسفوا ما نجا من دك المدافع ودمار قذائف الطائرات حتى سويت المدينة بالأرض .. وقام الجنود بجمع المزارعين وشدهم بالسلاسل وحملهم بالعربات إلى الضفة الغربية بدعوى أنهم من الفدائيين ..

وقبيل العصر كانت قوات المقاومة قد أعيد تجمعها فى المرتفعات الشرقية .. وبدأت سلسلة من الهجمات المفاجئة على القوات الإسرائيلية لإجبارها على الانسحاب فى الوقت الذى أخذت المدفعية الأردنية تصب نيرانها على مدرعات العدو وتضرب طائراته جنوب المدينة .

ومع انحدار الشمس فى الأفق الغربى بدأت فلول الإسرائيليين فى الانسحاب تلاحقها هجمات المقاومة ونيران المدفعية الأردنية .. حتى وصلت إلى الضفة الشرقية وبدأت فى العبور بواسطة جسور مؤقتة أقامتها على النهر .

واندفعت قوات العاصفة من جنوب المدينة محاولة تطويق القوات الإسرائيلية المتقهقرة وقطع طريق الانسحاب عليها واحتدم وطيس المعركة شرق النهر ودار قتال مرير فى الظلام انتهى بإخلاء المنطقة كلها من القوات الإسرائيلية واستمرت ملاحقة القوات المندحرة بقذائف الهاون ١٢٠ مم الذى غنمته المقاومة من

العدو .

وأخيرا ساد السكون .. وأطبقت الظلمة .. وهبت نسمة باردة تمزج رائحة الدخان بعبير البرتقال .. وبين الأطلال تصاعد أنين جريح يختلط بصوصوة عصفور يبحث عن عشه الضائع تحت الأنقاض ..

وفى الضفة الأخرى من النهر .. والصمت مطبق .. والليل جاثم على بيوت المدينة .. جلست مى ترهف السمع إلى الراديو .. تدير المؤشر بأعصاب متوترة .. وتنصت إلى وقع أقدام تطرق أرض الطريق بين آونة وأخرى .. تقترب .. وتقترب .. ثم لا تلبث أن تتبدد متباعدة .

وتوقفت أصابعها بالمؤشر على صوت يتعالى من الراديو هاتفا :

— صرح ناطق رسمى فى حركة التحرير الوطنى الفلسطينى « فتح » بما يلى :

وأنصتت مى بكل مشاعرها المرهفة واسترسل الصوت يقول :

« كانت القيادة العامة لقوات العاصفة على علم مسبق بتحركات العدو خلال الخمسة أيام الماضية .. فقد استطاعت وحدات الرصد التابعة لقواتنا أن تحدد ساعة الصفر التى حددها العدو لبدء هجومه المدبر فصدرت الأوامر إلى جميع قيادت العمل داخل الأرض المحتلة أن تكون فى حالة استنفار كاملة وعلى استعداد تام للتحرك والضرب وقد بثت الكمائن فى كل مكان توقعنا أن يتخذه العدو مسرحا لعملياته » .

وكان الشيخ عبد السلام قد انتهى من الوضوء واتجه إلى حجرته وسمع صوت الراديو فأقبل هاتفا :

— أنباء جديدة ..

وردت مى :

— أول بيان عن المعركة من فتح .

وجلس الشيخ عبد السلام بجوار مى منصتا .

واستطرد صوت المذيع يقول :

« وفى الساعة الخامسة والنصف من صباح هذا اليوم بدأ العدو هجومه المنتظر فأخذت طائراته الهليكوبتر تقذف بأفواج كبيرة من المظليين إلى منطقة الكرامة حيث كانت كائننا لها بالمرصاد فاستطاعت أن تبيد أعدادا كبيرة منها .. وعاد العدو فواصل قذف المظليين بأعداد هائلة مرة أخرى وقد التحمت قواتنا مع قوات العدو بالرشاشات والقنابل اليدوية والسلاح الأبيض فى الوقت الذى كانت فيه وحدات مدفعية الهاون والصواريخ وال R. B. J التابعة لقواتنا تدمر آليات العدو المتقدمة من ناحية البحر الميت وفى نفس الوقت قامت عدة مجموعات من قواتنا المتمركزة فى الأرض المحتلة بمهاجمة مؤخرة العدو فوقع بين نارين وسقط فى المصيدة التى أعدتها القيادة بإتقان ، وقد أصيب العدو بارتباك شديد ففقد سيطرته على قواته الأمر الذى أتاح لقواتنا فرصة لإبادة هذه القوات المشتتة » .

وأطلقت مى زفرة راحة وتمتمت قائلة :

ــ الحمد لله ..

وقال الشيخ عبد السلام داعيا :

ــ اللهم أتمم نعمتك علينا .. اللهم انصرنا .

واستمر المذيع يواصل إتمام البيان .. ومى تنصت .. وقد شرد بها الذهن .

سيعود عمار .. بطلا كما كان دائما ..

ولكن هذه المرة .. سيحمل لها خاتما ..

كم كان رقيقا .. وهو يحدثها عن عودته .. وعن خاتم الزواج ..

وانتهى البيان .

وقام الشيخ عبد السلام للصلاة .

واستقلت مى فى فراشها مفتوحة العينين .. يتأرجح ذهنها الشارد بين دوى القذائف .. وتغريد البلابل .. بين أغصان الزيتون .. وشظايا القنابل .

وربما يغلبها النعاس برهة .. ولكن ذهنها لم يتوقف عن الانطلاق بين الهموم

والآمال .. بين لهيب المعركة ونسمات الربيع ..

واستيقظت قبيل الفجر .. والضوء يتسلل باهتا من وراء النافذة ..

ولم تستطع الرقاد فى الفراش ..

فأقبلت على الحديقة .. وكأنها تستل النهار من جوف الليل ..

وسمعت فاطمة وقع خطاها فهتفت بها :

— إلى أين يا مى ؟

— أتمشى فى الحديقة ..

— فى هذه الساعة من الليل !

— لقد طلع الفجر يا خالتى .

— قد يؤذيك البرد يا ابنتى .. ادخلى .. ادخلى .

وعادت مى إلى حجرتها .. وسمعت تمتمة الشيخ عبد السلام بالصلاة ..

ووقفت ترقب صورة عمار وقد ارتسم العبوس على وجهه ..

وتمتمت هامسة :

— اضحك يا عمار .. لقد انتصرنا .

وأرهفت السمع ..

بدا لها أن خطوات تطرق أرض الطريق ..

عابر سبيل .. لابد سائر إلى حال سبيله .

ولكن الخطوات تقترب ..

طرقاتها على أرض الطريق تتعالى .

تقترب أكثر ..

تصعد الدرج ..

وتلاحقت أنفاسها .. وتعالت دقات قلبها .

من ؟!!

أيمكن أن يكون هو ؟

لم لا ..

لقد تعود دائما أن يأتى فى هذه الساعة .. يأتى مع .. ضوء الفجر .. مع الشعاع .. مع النهار .

وطرق الباب ..

طرقات خفيفة مترددة .

لعله مرهق من معركة الليل ..

وسارت نحو الباب ..

وعادت تنصت .. تحاول أن تسمع الطرقات ثانية .. خشية أن تكون واهمة .. وأن يكون الحنين قد جسد لها عودة الغائب ..

ومرة ثانية ..

عادت الطرقات .. خفيفة .. مترددة .

وهتفت مى متسائلة :

— من ؟.

وساد الصمت برهة وعادت مى تسأل فى قلق :

— من بالباب ؟

وسمعت صوت الطارق يقول :

— أنا .. أنا يحيى يا مى .

واندفعت مى إلى الباب هاتفة :

— يحيى ..

وفتحت الباب .. ووقف يحيى أمامها لاهث الأنفاس شاحب الوجه أشعث الشعر مغبر الثياب ممزقها .

وتقدم إلى الداخل ..

وأمسكت مى بذراعيه متسائلة فى لهفة :

— مالك يا يحيى ..

وهز يحيى رأسه دون أن ينطق بكلمة ..

وعادت مى تتساءل فى جزع :

— أين عمار ؟

وارتمى يحيى منهارا على أقرب مقعد ووضع رأسه بين كفيه ..

وكان عبد السلام قد أقبل ونظر إلى يحيى وهو منهار على المقعد وأحس أن يدا تعتصر قلبه فى صدره ..

وتساءل الشيخ فى صوت متحشرج :

— لم يعد عمار يا يحيى ..

وأطرق يحيى ولم يجب .

وعاد الرجل يتساءل والكلمات تكاد تقف فى حلقه :

— ولن يعود يا يحيى ..

وصمت يحيى .

وهبط الشيخ عبد السلام على المقعد المقابل .. وأطلق زفرة حارة .. وتمتم قائلا :

— يا رب .. رحمتك يا رب .

وأقبلت مى تهز يحيى مشدوهة :

— عمار لن يعود .. لماذا ؟

ورفع يحيى رأسه وحاول جهده أن يتمالك وهمس بمى وهو يمد يده إليها بالخاتم .

— قال لى أن أعطيك الخاتم .. وأن أقول لك أشياء كثيرة حلوة .. قال لى إنه تمنى لو استطاع أن يعود إليك ليضعه فى أصبعك بنفسه ..

وأحست مى أنها تختنق وهتفت بصوت مبحوح :

— لن يعود عمار ..

وقال يحيى :

ـــ طلب منى أن أعطى المسدس لخالد .. وأن أقول للشيخ عبد السلام ألا يحزن .. لأن حياته لم تذهب سدى .. لقد عاش بطلا .. وراح بطلا .

وسمع صوت فاطمة يتساءل :

ـــ من هناك ؟

وهتف يحيى قائلا :

ـــ قال لى عمار .. لا تقل لأمى شيئا .. لأنه يكره أن يوجعها ..

وأطلق الأب زفرة حارة وتمتم بما يشبه الأنين :

ـــ يا عمار .. قتلتنى يا عمار .

ثم رفع بصره إلى السماء وهتف :

ـــ لا أستطيع أن أمنح أعز من هذا يا رب .. ما بقى لى أضأل كثيرا مما وهبت .. اللهم .. امنحنى الصبر .. بقدر ما منحت من نفسى .. من قلبى .. من روحى .

وعادت فاطمة تهتف :

ـــ من جاء يا عبد السلام ؟

ونهض عبد السلام يحاول التمسك وهو يقول :

ـــ إنه يحيى يا فاطمة ..

ـــ وعمار ؟

ـــ بخير ..

ـــ لماذا لم يعد ؟

وعاد الشيخ يلتقط أنفاسه ليقول ببساطة :

ـــ يحتاجون إليه فى إحدى المهمات ..

ـــ ومتى يعود ؟

ـــ قريبا ..

ـــ دائما .. يتأخر .. دائما يتعبنى ويعذب قلبى .. منك لله يا عمار ..

وبذل الشيخ جهدا خارقا لكى يكتم رغبته فى البكاء .. فى الصراخ ..

وهبط على سجادة الصلاة .. يدفن فيها أحزانه .. ويردد :

— منه لله .. سيجزيه خير الجزاء.كان دائما رجلا .. ما أعز الفداء .. يارب ..

وكان يحيى يقبع فى مقعده .. وقد تملكه إحساس ألقى به فى هاوية من العذاب .

وكانت مى ترمقه فى صمت كالتمثال .

لم يكن يبدو عليها كأنما قد حدث شيء .. كانت قسماتها جامدة .. وعيناها شاردتين .

وعادت تتمتم فى صوت خافت :

— وماذا قال لك أيضا ؟

وهمس يحيى :

— قال لى إنه يحبك كما لم يحب شيئا فى هذه الحياة .

وملأ وجه مى إحساس بالسكينة .

واستطردت تتساءل فى حنان :

— وماذا أيضا ؟

— قال لى .. تمنيت أن أعود لأجلس أمامها وأبتسم لها .. كى ترسم الصورة .. ولأعتذر لها عما قلت من سخافات .

وهزت مى رأسها وتمتمت :

— عمار لم يفعل إلا كل ما هو صواب .. ولم يقل إلا كل ما هو حقيقة .. عمار .. رائع .. فى حياته .. وفى رحيله .

وسارت فى صمت نحو غرفتها .

وردت الباب فى سكون .

وأمام الصورة وقفت فيما يشبه الصلاة وهمست :

— كنت رائعا يا عمار ..

ورفعت عينيها إلى الصورة .

فإذا بعبوس الوجه يزول .

وإذا بابتسامة رقيقة ترتسم على الشفتين ..

وهمست مى :

— ابتسم يا عمار .. ابتسم يا حبيبى .

إن ابتسامتك إشراقة على طريق النصر ..

واستقر خاتم عمار فى أصبع مى .. تتحسسه فى تعبد .

واستقر مسدسه فى كف خالد يرفع المقبض ويعمر الساقية بالذخيرة ..

ويسير مع يحيى إلى معسكر تدريب الأشبال .

ويستمع إلى همسة فى أذنيه :

— المعركة طويلة يا خالد ..

معركة .. أرض .. وحق .. إذا نحن لم نستعده .. فأنتم من بعدنا .. وأولادنا من بعدكم .. كل شيء يمكن أن يهون مع الزمن إلا الأرض .. والوطن .

« تمت بحمد الله »

صفحة

مقدمة ٧

صورة لا تبهت ٩

كيف ؟ كيف ؟ ٢٤

هل تحبينه ؟ ٣٩

طريق لا بديل له ٥٤

البندقية والقضية ٧١

آه في الفجر ٨٦

حوار على المائدة ١٠٤

هل حاربت ؟ ١٢١

لا يشرب القهوة ١٣٦

ضرورات الحياة ١٥١

درس في الرسم ١٦٩

بعيداً عن صدورنا ! ١٨٨

لن يهجروه ٢٠٦

واجب خاص ٢٢٢

شاي بلا سكر ٢٤١

بخير يا مىّ ٢٥٨

صفحة

من أجل الحياة ٢٧٥

زفة فى كهف ٢٩١

نزهة دامية ٣٠٦

الله أكبر ٣٢١

إشراقة على الطريق ٣٣٦

رقم الإيداع : ٧٧٥٢ / ٨٦

الترقيم الدولى : ٩٧٧ — ١١ — ٠٢٧٧ — X

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

Bibliotheca Alexandrina
0284482

الثمن ٨٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه